

A ROMANCE OF THE NILE

THE LAST
EGYPTIAN

المصري الأخير

قصة علي زفاف النيل

ل. فرانك باوم

ترجمة مارثا بشارة

الرواق للنشر والتوزيع

المصري الأخير
قصة على ضفاف النيل

تأليف

ل. فرانك باوم

ترجمة

مارثا بشارة

الرواق للنشر والتوزيع

المصري الأخير

ل. فرانك باوم

ترجمة: مارثا بشارة

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الغلاف: كريم آدم

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: إسلام منتصر

رقم الإيداع: 2021/30287


الترقيم الدولي: 9-141-824-977-978


جميع حقوق الطبع محفوظة

186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: +20220812006

rewaq2011@gmail.com

 alrewaqpublishing

 alrewaqpublishing

www.alrewaqpublishing.com



للنشر والتوزيع

الفصل الأول حيث تُعانق الصحراء النيل

ترتمي الشمس بلهيبها في حِضْن النيل، تلتصق به، ترتعش، لكنها رغم العنقوان، تبقى متردّدة، حائرة، أمام رغبتها في الولوج أسفل سطح النيل الثائر؛ فهو يهزمها ويُقصيها بعيدًا عن جنباته الفسيحة، حيث تتجلى قوته بلا مُنازع!

أما على ضفّتيه، فيتلوّى البشر من شمس «رع» الغاضبة (1)، فقد هجر عمال الشادوف دلاءهم المُغطّاة بالجلد، وتركوا قضبان الخيزران؛ بحثًا عن مأوى من لهيب الشمس، تحت شجرة يابسة، أو أسفل حصيرة من القش، مثبتة على عيدان قصب السكر الناضج، تكمن القوارب داخل الخلجان الصغيرة، تفرد أشرعتها لثُظّل الصيادين، يهرب الفلاحون إلى أكوأهم الطينية للقيولة، أثناء أشد فترات الظهيرة حرارةً.

لكن على الرغم من هذا الطقس الحار، كانت الباخرة «دهبية» تنفث بخارها، وتواصل السير للأمام؛ على وجه المياه، تدفع النهر العظيم، بحركتها البطيئة نحو البحر. أمام المرّجل يقف الوّاد «العربي» عاريًا (2)، يتصبّب عرقًا، وهو يراقب المرّجل عن بُعدٍ قدر استطاعته، وقد انكمش وجهه الأذكّن من شدة الحرارة، أما المهندس، وهو أيضًا من العرب، فمدّد جسده على سطح السفينة - نصف نائم -، وكلتا أذنيه في حالة انتباهٍ لالتقاط أي صوت، قد يشير لحقيقة أن مُحرك الباخرة المتهالك، ربما يفشل في إتمام عمله كما يجب، وفي الجزء الخلفي من المقصورة الصغيرة، جلس القبطان بوجهه المُكفّه، عاريًا وخاملاً كزميليه، بينما استلقى على سطح الباخرة، أسفل مظلة الشراع، رجلٌ ذو بشرة بيضاء، شابٌ إنجليزي، يرتدي بنطاله الكاكي الفُضفاض (3)، وقميصًا من الحرير الأبيض، مفتوح الصدر.

لم يكن الوقت آنذاك موسمًا للسياحة في مصر. وإن وجدت رجلًا أوروبيًا، يُبحر في مياه نهر النيل في شهر أبريل، فهو إما مرتبط بجهة استكشافية، ومنخرط في أعمال الحفائر والتنقيب عن الآثار، وإما موظف في الحكومة المصرية، أتى من «القاهرة» أو «أسيوط» أو «الأقصر» لإتمام مهمّة عاجلة.

وبالنسبة إلى الباخرة «دهبية»، فهي لم تكن تابعة للحكومة المصرية. لذا؛ فمن الأرجح استنتاج أن صاحبنا هذا، قد يكون مستكشفاً أكثر منه موظفًا رسميًا، إذ يبدو أنه يألف هذا الطقس الحار. يمكنك أن ترى ذلك في بشرته، التي تحولت بفعل الشمس للون البرُنزي، واستسلامه الهادي للتواجد في هذه الظروف القاسية، وهو يدخن غليونه الأسود، ويُرخي عضلاته، ويسند رأسه على وسادة من القش - نصف نائم - يُمعن النظر إلى ضفاف النيل بعينيه الزرقاوين الثاقبتين.

من آن لآخر، يختلس العَرَبَاوِيَّة الثلاثة، نظرةً خفيةً لسيدهم، لكنها ممتزجة بالخيِّرة! إذ من الغباء أن يُبحر رجل غربي في مثل هذا الوقت! أبناء هذا البلد يعرفون جيدًا متى يعملون ومتى يتوقفون عن العمل، وهذا هو الدرس الذي لا يتعلَّمه الرجل الأوروبي على الإطلاق! غير أن صاحبنا هذا، لم يكن مغامرًا عابرًا يلهو بحماقته، بل هو رجلٌ عاش بينهم لسنين طويلة، يتحدث لغتهم العربية بطلاقة، ليس ذلك فحسب، بل بإمكانه فك طلاسم الهيروغليفيَّة التي تعود للأزمنة الغابرة، والمنتشرة على الآثار المصرية القديمة، في جميع أنحاء مصر. هذا ما يعرفه «حَسَّان» و«عبد الله» و«علي» جيدًا؛ لأنهم رافقوا «ونستون بك» في رحلاته الاستكشافية السابقة، سَمِعُوهُ وهو يترجم هذه الطلاسم على الأحجار الصمَّاء، إلى لغة عربية بليغة. كل هذا رائع، لكن إذا كان من المسموح لهؤلاء العمال أن يصرِّحوا بأرائهم، فسيخبرونك بأن كل الأمر لا يعدو كونه مشقةً لا طائل منها، وحتى سيدهم نفسه يبدو ليس حكيماً في بعض الأوقات، يفعل أشياء غبية طوال الوقت، يضحى براحته وراحة خَدَمِهِ في القيام بأمور غير ذات أهمية! ولو لم ينفق «ونستون بك» ببذخ على أهوائه، لربما ذهب سعيه سُدى، في طلب عمال يقبلون العمل معه في مثل هذا الطقس الحار، لكن العامل «العربي»، يقبل بأن يُشَوِّى جسده على باخرة في النيل، في ظهيرة أحد أيام أبريل الحارة، فقط ليصل لكنوز الآثار، التي يطمع الكثير من الأوروبيين في امتلاكها.

في الساعة الرابعة عصرًا، هبَّ نسيمٌ لطيف. لكن ما الفائدة؟ الرحلة على وشك الانتهاء الآن، فقد عبروا للتوُّ منحنى في مجرى النهر، وواصلوا للإمام، حتى رسَّت السفينة على الضفة الشرقية، حيث تلال جبل «أبو الفدا»؛ في جنوبها يقطع هذه التلال بستانٌ من النخيل، وبين التلال والنخيل، يمتدُّ طريقٌ ممهد من النيل إلى قرية «القوصية»، لمسافة ميلٍ أو نحو ذلك، حيث أتى «ونستون بك» خصيصًا لزيارة هذا المكان.

وعلى الرغم من هبوب نسمة عاصري، لا يكاد أحد يشعر بها، فإنَّها ساعدت ولو قليلًا في إنعاش المسافرين المنهكين. جلس «ونستون بك» وأفرغ الرماد من غليونه، وهو في الوقت ذاته، يتفحص بدقة في تلك المناظر الطبيعية الخالية من الحياة حوله؛ تلال الحجر الجيري الرَّمادية بدت غير جذابة للنظر، قابعة تحت حرارة الشمس، تفوح منها الروائح الكريهة، ومن أسفل التلال حتى النهر، لا أثر لخضرة أو حياة، فقط قشرة قاسية صُلبة من الطمي الجاف؛ لقد زحفت الصحراء برمالها وغطت الكثير من الأراضي؛ حتى أسفل النخيل تكدست أكوام الرمال الثقيلة. ترك الفلاحون الأراضي ما بين قرية «القوصية» والنهر لفعل الطبيعة، ولم يكثرثوا لإعمارها.

كانت المياه عميقة عند الضفة الشرقية، حيث يجرف منحنى النهر تيار المياه نحو الشاطئ، أما «دهبية» الصغيرة، فظلت تنفث البخار بصوتها المزعج حتى بلغت ضفة النهر، وأنزلت الرجل الإنجليزي «ونستون بك» على الطمي الصلب، ثم عادت أدراجها لترسو في المياه الضحلة، بينما أوقف «حَسَّان» المحرك، وألقى «عبد الله» المرساة في النهر.

ترجّل «ونستون بك» عن الباخرة بكل ما أوتي من قوة، بعد أن وضع خوذته الفلين، وحمل مظلته البنيّة ذات الخطوط الخضراء. ويبدو أنه يريد بهذا الانتقال السريع من سطح الباخرة، إلى الشاطئ ذي الطقس الأشبه بلهب الفرن، أن يتغلب على تراخيه في مواصلة الطريق نحو القرية، لكن محاولة حشد رجاله ليسيروا خلفه بهذه السرعة لن يكون مفيداً، سيعتبرون ذلك اعترافاً منه بأنه أخطأ في تقدير الأمور. الطريقة الوحيدة التي تُمكن الرجل الغربي من السيطرة على العامل «العربي»، هي جعله يصدق أن صاحب العمل يعرف جيداً ماذا يفعل. لم يكن النخيل بعيداً عن الشاطئ؛ لذا أقنعهم بأنه سيستريح قليلاً تحت ظل النخيل، حتى تهدأ حرارة الشمس.

فقط بعد تقدّم «ونستون بك» لبضع خطوات، اندفع العرق يتصبّب من كل مسامّ بشرته، لكنه واصل السير بإصرار، حتى بلغ مساحة ظل صغيرة مستطيلة، ألقت بها أول نخلة في طريقه. ما إن وصل للظل، حتى تقرفص فوق الرمال، ونشّف عرق وجهه بالمنديل. كان الصمت ثقيلاً، ليس هناك أي صوت من أي نوع، ليخفف وطأة هذا الصمت الرهيب، حتى الخنافس اختبأت في أعماق الرمال، لم يكن هناك سُكنى قريبة بما يكفي ليخرج منها صوت نهيق جَمَار أو رُغاء ناقة، فقط تدفق هادئ لموجات النهر، بعد أن توقف صوت الباخرة «دهبية» وتوقف اهتزاز محركها.

جرف «ونستون بك» سطح الرمال الساخنة بيديه بعيداً؛ حتى يتمكن من مدّ جسده ليستريح قليلاً، ظل يتقلب يميناً ويساراً محاولاً التقاط نسمة هواء خفيفة، من تلك التي تعبر بين التلال والنيل، لقد حكم عليه حظه العاثر بقضاء ما يقرب من ساعة أو ساعتين في هذه الظروف غير المريحة؛ لذا راح يتفحص المكان حوله، لعله يجد موضعاً أفضل من ذلك الذي وقع عليه اختياره!

بينما يتطلع حوله، وقعت عيناه على بقعة بيضاء على مسافة منه، كانت مباشرةً بعد آخر نخلة، أثارت فضوله، وبعد دقيقة من التفكير، نهض وتقدم متمهلاً نحو البقعة البيضاء، عند اقترابه منها تبيّن أنها رداء قصير أو عباءة، وعند نهاية أحد طرفيها يوجد ما يشبه غطاء الرأس، كان نصف العباءة مدفوناً في الرمال، وعند نهاية طرفها، يوجد عمامة مُتسخة، مزينة بأشرطة حمراء وصفراء باهتة، تتخلل قماشها الخشن. وضع «ونستون بك» قدمه على العباءة، فتحرك شيء ما بداخلها وأصدر صوتاً مكتوماً، ركلها بقدمه بعنف، فاختلف الصوت وتوقفت الحركة، وفجأةً، ظهر من شقّ صغير بين طيّات العمامة، عينٌ سوداء لامعة، نظرت بثبات لهذا الدخيل المزعج، سألته بلسان عربي وصوت هادئ:

• أتعاملني بوحشية أيها الأبله! كيف تجرؤ على إزعاجي وإيقاظي من غفوتي؟!

لقد فقد «ونستون بك» صبره بسبب الحرّ الشديد، فركل هذا الشيء ثانيةً، قائلاً:

• نعم، انهض يا كلب!

عندها رُفعت العمامة، وظهر وجه رجل، فنهض، ثم عقد ساقيه العاريتين، وجلس مُحدِّقًا عينيه نحو هذا المزعج!

بصرف النظر عن الحالة الرديئة التي كان عليها رداؤه، والذي بهتت الألوان في جزء كبير منه، كان الرجل عاريًا عند الصدر وأسفل الركبة، ولم يعطِ مظهره الرثُّ أي انطباع بالنظافة. أما جسده؛ فكان رشيقيًا، عريض المنكبين، له يدان وأقدام طويلة، أذرع وسيقان منحوتة العضلات، يشبه كثيرًا هؤلاء الرجال في النقوش على جدران المعابد المصرية القديمة. له جبهة عريضة، ذقن مربعة، عيون واسعة حاملة، وجنتان ممتلئتان، فم كبير. كان أفطس الأنف وله فك بارز قليلًا، وشعر ناعم. أما لون بشرته، فلم يكن أدكن أكثر من بشرة الرجل الإنجليزي البرُنزيَّة، لكنه أكثر شبهًا بالقهوة المخففة بالحليب. يشبه رجلًا وسيماً، يبدو عليه عدم المبالاة أكثر من الرصانة والوقار، اكتسى وجهه بحذر وثبات، تحسُّبًا لأي إرباك. كان أكثر دهاءً وخبرة، حتى من «ونستون بك» نفسه!

اقترب منه صاحبنا الإنجليزي، قال وهو ينظر إليه عن كُتْب:
• أنت قبطي، أليس كذلك؟

ضحك الرجل، وتحدث الإنجليزية بتلقائية كأنه يتكلم بلغته الأم، قائلاً:

• إذا كنت كغيرك، تنساق خلف الأحكام المُسبَّقة، وتعتبر كل قبطي مسيحيًا!

ثم عاد ليوضح:

• «أنا لست مسيحيًا، لكن إذا كنت تعني بقبطي أنني مصريٌّ وليس عربيًّا، إذا فأنت محقٌّ في تقديرك بالفعل!

شهو «ونستون بك» مستغريًا من وقع المفاجأة، أن يتحدث أحد مواطني مصر بإنجليزية سليمة، هذا أمر غير معتاد البتَّة! فهو لم يقابل رجلًا استطاع أن يتحاجج ويتحدث بكل ثقة وسهولة من قبل، مثل هذا الرجل!

أزاح بعض الرمال الساخنة، وجلس في مقابل صديقه الجديد، قائلاً بصوتٍ ساخر:

• ربما أتحدث الآن إلى سليل الملك «رمسيس» العظيم نفسه.(4)

أجابه الرجل بهدوء وبرود:

- بل أعظم من ذلك! ثم أردف، جَدِّي هو «أخت - كا - رع» ينحدر من دمٍ ملكيٍّ أصيل، كان هو الذي يحكم ويتحكم بـ «رَمسيس الثاني»، هذا الملك الأحمق، الذي ظن نفسه يحكم المصريين.

كان «ونستون بك» مستمتعًا بهذا الحديث، قال بطريقة مهذبة - وهو ساخرٌ في نفسه -:

- معذرة، لم أسمع عن جدك العظيم من قبل!

سأله «المصري»:

- ولماذا تأسف؟ أظن أنك فقط واحد من هؤلاء المستكشفين، الذين يجوبون مصر، في محاولةٍ غيبية، لفكِّ رموز النقوش على جدران المقابر والمعابد القديمة وقراءتها. صحيح يمكنك التوصل لقراءة القليل، لكن هذا القليل سيتركك في حيرة وارتباك. أعظم علمائكم علمًا في الآثار، أمثال «مارييت» و«بتري» و«ماسبيرو» كانوا يحلُّون لغزًا واحدًا ويخمنون عشرين أخرى في المقابل. وهكذا، بنوا تاريخًا رائعًا عن الملوك القدامى، لكنه في الحقيقة سخيف ومزيف لهؤلاء الذين يعرفون سجلات التاريخ الحقيقية.

سأله «ونستون بك» بسرعة:

- مَنْ هؤلاء الذين يعرفون السجلات الحقيقية؟

طأطأ «المصري» رأسه وتمتم:

- ربما لا أحد! ثم أردف، في أحسن الأحوال، ربما واحد أو اثنان فقط، لكنك ستعرف الكثير، إذا درست لغة المصريين القدماء، سيُمكنك ذلك من فك رموز العلامات والصور، ربما حينها ستخبرك الكتابات بما تعنيه، بشيءٍ من اليقين!

تنهَّد «ونستون بك» بغضبٍ، وسأله بصرامة:

- أجب عن سُؤالي، مَنْ هؤلاء الذين يعرفون السجلات الحقيقية؟ وأين هي؟

هزَّ «المصري» رأسه قائلاً بتواضع مُصطنع:

- أنا رجل جاهل، من أنا «كا - رع» المسكين حتى أجادل واحدًا من علماء أوروبا!

أمسك صاحبنا الإنجليزي خوذته وراح يحركها ليحصل على بعض التهوية، جلس صامتًا بعض الوقت، ثم عاد ليسأله ثانيةً:
• لكن جدك، هذا الرجل الذي قلت إنه كان يتحكم في «رمسيس» العظيم. مَنْ هو؟
أجاب «المصري»:

• كان الناس يدعونه «أخت - كا - رع»، كما أخبرتك. هو من نسل الملكة الشهيرة «حاتشبسوت» (5)، دمه ملكي أصيل، كان جَدِّي سليل الملك «ميناء» (6). سيحكم مصر، لو لم يُطخَّ به «رمسيس الأول» (7). ليؤسس أسرته. لم يكن «أخت - كا - رع» قادرًا على أن يحكم باسمه، لكنه حكم مصر من خلال «رمسيس» الضعيف، وحمل ألقابًا عديدة مثل «الكاهن الأعلى للإله آمون رب الحصاد»، وأيضًا «رئيس الخزانة». كل المملكة كانت تحت سيطرته وإدارته، يرسل «رمسيس» إلى الحروب ليشغله، وعندما يعود من الحروب، يشغله ثانيةً ببناء المعابد والقصور، ويتركه يشيّد لنفسه آثارًا عديدة؛ حتى لا يكون له عذرٌ ليتدخل في عمل الحكومة، أبعد كل هذا، تأتي أنت وتقرأ نقوش هذا الملك الغاصب «رمسيس»، وتندهش من قوته وتدعوه عظيمًا؟! أنت في جهلك هذا لا تعرف حتى اسم «أخت - كا - رع» أعظم حاكم عرفته مصر على الإطلاق!

ارتبك «ونستون بك»، تفحص تعابير الرجل وهو يقول:

• هذا صحيح، نحن لا نعرفه، يبدو أنك على دراية أكثر من علماء المصريين!
دبَّ «كا - رع» يده في الرمال إلى جواره، قبض حفنةً بيده ثم تركها تنسال من بين أصابعه، وهو يتأمل سقوط حَبَّات الرمل، قال:

• حكم رمسيس الثاني لمدةٍ خمسٍ وستين سنة، و...

قاطعته «ونستون بك» مصححًا كلامه:

• تقصد سبعاً وستين، هذا هو المكتوب في النقوش.

أكمل المصري كلامه موضحًا:

• تقصد النقوش المزيفة! لقد قام جدي بإخفاء خبر موت «رمسيس الثاني» لمدة عامين؛ لأن خليفته «مرنبتاح» (8) كان عدوًّا شرسًا، لكنه بالأخير، اكتشف هذا السر، وفي الحال قتل جدي «أخت - كا - رع»، الذي لم يقوَ لكِبَرِ سِنِّه على مقاومته، ثم استولى على مدينتي «بر - آتوم» و«بر - رعسيس» (9). اللتين بناهما جدي، لكنه لم

يجد أية كنوز هناك. كم هو عظيم جدّي! كان قادرًا على خداع أعدائه وإذلالهم حتى بعد موته.

نظر «ونستون بك» مُتلهفًا، وتحدث بصوتٍ مبحوح:

- اسمع يا «كا - رع» ما أخبرتني به الآن، يعني أنك اكتشفت سجلات تاريخية غير معروفة للعلماء حتى هذه اللحظة. بالنسبة إلينا نحن - علماء الآثار - الذين نتعطش لكشف أسرار التاريخ المصري القديم، ستكون هذه المعلومات لا تُقدَّر بثمن. لذا؛ اسمح لي بمشاركة هذه الأسرار التي لديك، وأخبرني بما تريد في المقابل؟ أنت فقير ولا أحد يعرف عنك شيئًا، سأجعلك غنيًا وسأجعل اسم «كا - رع» معروفًا، أنت شابٌ صغير ويجب أن تستمتع بحياتك. هيّا، أخبرني يا أخي الكريم، وكُنْ على ثقةٍ بأني سأعاملك بنزاهة رجل إنجليزي يوفي بكلمته.

لم يشأ المصري حتى أن يرفع عينه نحوه، بل ظل يعبث بالرمال، وقد ارتسمت ابتسامةٌ على وجهه، تتمم قائلًا:

- لم يمض حتى خمس دقائق منذ ركلتني بقدمك مرتين، ودعوتني «كلب»، الآن أنا أخٌ للرجل الإنجليزي الشريف، ويريد أن يجعلني غنيًا ومشهورًا!

عقد «ونستون بك» حاجبيه كما لو كان سيقوم بركل الرجل ثانيةً، لكنه قاوم غضبه، ثم سأله بلا مبالاة:

- وماذا كنت تظن أنني فاعل! أنت ترتدي عباءة، وهذا يعني أنك «عربي» ومن الجيد أن يُضرب العرب أحيانًا!

لم يهتمّ المصري إذا كان كلام «ونستون بك» مزاحًا أم اعتذارًا، فقط، ظل ينظر بملامحه الجامدة نحو الرمال ولم يُجب ولو بكلمة. شعر الرجل الإنجليزي بعدم الارتياح؛ أخرج من جيبه علبة سجائر، فتحها ومدّ يده يعرض على «المصري» أن يأخذ واحدة، نظر «كا - رع» للسيجارة وبدا على وجهه الاهتمام للمرّة الأولى!

انحنى للأمام، ووضع يده اليمنى على جبهته ثم على قلبه (10)، ثم مال بهدوء والتقط سيجارة. أوقد «ونستون بك» عود ثقاب وأشعل سيجارَه، بينما عين «المصري» تتابعه باهتمام بالغ. ثم أشعل سيجارة «كا - رع»، فقابل «المصري» ذلك بلمسةٍ أخرى على جبينه وقلبه تعبيرًا عن الشكر، قبل أن يدخل في حالة من الاستمتاع، وهو يستنشق دخان «التبغ»، فلمعت عيناه، وأصبحت هيئته أكثر إشراقًا!

ظل «ونستون بك» يراقب الرجل في صمت، حتى أخذ نفخةً ثالثةً واكتملت متعته، حينها بدأ يتكلم وهو يختار كلماته بعناية شديدة:

- أنت تعلم يا أخي العزيز، أنا جميعًا نسعى للحصول على سجلات التاريخ الخاصة ببلادك، نحن نعلم تمامًا أهمية الآثار التي سيكتشفها المصريون الحاليون أنفسهم، كما فعلوا في السابق، الحكايات والحواديت التي تتناقلونها من جيل لجيل، تعطيك الخبرة الكافية؛ لمعرفة المكان الذي يخفون فيه البرديات والسجلات والآثار المهمة، سواء أكانت موجودة في مقابر جبل «أبو الفدا» أم بالقرب من مدينة «القوصية»، ربما تعرف أين نجدها، لو الأمر كذلك، سنفتح هذه المقابر معًا ونقتسم بالتساوي ما نجده.

هزَّ المصري رأسه، ونفض الرماد عن سيجارته، وقد بدا عليه الانزعاج والضيق:

- أنت مخطئ في تقديرك لمدى خبرتي ومعرفتي!

ثم مدَّ ذراعيه قائلاً بلهجة حادة:

- انظر لتك الثياب البالية، هل تظن أنني كنت سأضيع الفرصة إذا كان بمقدوري الحصول على رشوتك؟! لقد مضى عدة أشهر منذ أن دخلت سيجارة، عندما أتى «تادرس» الترجمان إلى جبل «أبو الفدا» في الشتاء الماضي، أسير حافي القدمين؛ خشية أن يبلى نعلي ولا أعلم إذا ما كان بمقدوري شراء غيره، أقضي غالبية أيامي جائعًا، أعيش طريدًا مثل «ابن أوى» (11). منعزلًا عن رفاقي وعن العالم كله، هذا هو «كا - رع» سليل الملوك، ذو الدم الملكي!

اندهش «ونستون بك» بشدة، فهذه المرة الأولى التي يستمع لأحد المصريين يشكو سوء حظه وظروفه، ويبدو أننا هنا أمام شخص متمرد أو جاحد، وهذا ما جعل «ونستون بك» يسأله:

- لماذا؟!

أجابه «المصري» بنبرة متعالية:

- لأن أصولي النبيلة جعلتني في عزلة، ليس جيدًا أن يتواجد «كا - رع» سليل الملك العظيم «أخت - كا - رع»، في زمن زهبت فيه قوة مصر، وأصبح العرب المسلمون يحتقرون أبناءها، والإنجليز المسيحيون يضربونهم!

سأله «ونستون بك»:

- هل تعيش في القرية؟
- لا، أعيش في كوخٍ صغير، بين مجموعة أكواخ، خلف الجبل، في مكان يُدعى «الفدا».

- تعيش مع مَنْ؟
- مع جدّتي «حتاتشا».
- أه!
- هل تعرفها؟
- لا، فقط تذكّرت تلك الأميرة المصرية «حتاتشا» التي أشعلت «لندن» بكل تمدّنها وعصريتها، في زمن والدي!

انحنى «كا - رع» نحو «ونستون بك» وهو يتلفت حوله، ويراقب جهة الجبل والصحراء والنيل، ثم همس في أذنه بصوتٍ مرتعش:

- أخبرني عنها.

تساءل «ونستون بك» مندهشًا: «أتقصد عن الأميرة؟!»، ثم أردف قائلاً:

- في الحقيقة، لست أعرف الكثير عن تاريخها، لكن سمعت أنها كانت مثل طيف شرقي بديع الجمال، لقد جعلت كل نبلاء إنجلترا يسعون للتقرّب إليها، أحد هؤلاء كان «اللورد رون» الذي طلق زوجته على أمل الزواج من الأميرة المصرية الجميلة، لكنها بالأخير رفضت الزواج منه. لقد صاحب الأميرة «حتاتشا» الكثير من الفضائح قبل اختفائها من لندن، كان مجيئها غامضًا مثل رحيلها، لقد رحلت دون سابق إنذار، أتذكّر جيدًا أن بعض المعجبين المولعين بها، أنفقوا ثرواتٍ طائلةً للبحث عنها في كل أرجاء مصر، لكن دون جدوى، ولم يسمع عنها أحد منذ ذلك الوقت!

أخذ «كا - رع» نفسًا عميقًا ثم متمم:

- كانت مثل جدتي، عاشت حياتها كاملة وهي ابنة لـ «ست»[\(12\)](#).

حدّق «ونستون بك» نظره وقال:

- أتقصد أن تقول..

قاطعته «كا - رع»: نعم! ثم تلفت حوله في خوفٍ وأردف، نعم هي جدتي «حتاتشا» التي فعلت ذلك، لا تخبر أحدًا بذلك يا أخي العزيز، هي ما زالت في تحالف مع إبليس، وقادرة على تدميرنا إذا كانت تكرهنا، ابنتها هي أمي، وهي ابنة «اللورد رون» نفسه الذي تحدثت عنه أنت، لكنها لا تعلم شيئًا عن والدها ولا حتى عن إنجلترا، أنا نفسي لم أذهب لمسافةٍ أبعد من النيل ولو ليومٍ واحد؛ لأن «حتاتشا» جعلتني عبدًا لها.

فكر «ونستون بك» مليًا ثم قال:

• لا بُدَّ أنها الآن امرأة عجوز، هذا في حال أنها ما زالت في قيد الحياة!

أجاب «كا - رع» قائلاً:

• كانت في السابعة عشرة عندما ذهبت إلى «لندن»، وعادت في غضون ثلاث سنوات وهي تحمل ابنتها (أمي) بين ذراعيها، وكانت في الخامسة والثلاثين حين ولدتني أمي، حدث كل ذلك منذ ثلاثة وعشرين عامًا. ثمان وخمسون سنة ليست بالعمر الكبير، لكن «حتاتشا» تبدو عجوزًا ذابلة منذ رأيتها وحتى اليوم، كما هي، لا تتغير، أقسم لك يا أخي برأس «أوزوريس» (13)، أن هذه المرأة ستظل في قيد الحياة، حتى تتصلب رقبتني أنا في القبرا!

سأله «ونستون بك»:

• هل هي من علمتك الإنجليزية؟
• نعم، تعلمتها وأنا ما زلت في المهدي، كانت جدتي دائمًا تحدثني بالإنجليزية في محادثاتنا الخاصة، وأيضًا أتحدث المصرية القديمة، التي تسمونها أنتم «القبطية»، وأقرأ «الخط الهيروغليفي» وكل كتابات أجدادي التصويرية بشكل صحيح، وبالطبع أعرف «العربية». كانت «حتاتشا» معلمة ماهرة.
• وماذا عن والدتك؟
• لقد هربت وأنا ما زلت طفلًا؛ لتنضم لحريم أحد العرب في «القاهرة»، لقد تركت حياتنا ومعيشتنا؛ ولذلك بقيت أنا دائمًا بصحبة جدتي.

عندئذٍ، أجابه الرجل الإنجليزي ساخرًا:

• على أية حال، أنا سعيد جدًا بتلك الحقيقة، بأن دمك ليس ملكيًا خالصًا!

عاد «كا - رع» ليرد بإصرارٍ وثقة:

• ولم لا! ألسنا جميعًا نسل المرأة؟ ربما لم يكن جدي مهمًا جدًا، لكنه أنجب صاحبة الدم الملكي «حتاتشا»، جدتي. قد لا يعني أمي كثيرًا من يكون والدها، لم يكن ذلك مهمًا بالنسبة إليها، لكن من نسلها استمددتُ أنا دمي الملكي، من العظيم «أخت - كا - رع»، وما زال يعيش بداخلي يومًا بعد يوم. أنتم يا شعوب أوروبا، يسيطر على عقولكم الاهتمام بمراسم الزواج الجوفاء، لكن لا تستطيعون التباهي بأصالة نَسَب أمهاتكم كما أنا، ليس هناك دم أنقى من دمي، بغض النظر عن دم آبائي الذي يسري في عروقي الآن. فالأب لا يورث ابنه إلا القليل. ولهذا؛ ليس هناك فرصة لتلوين نسبي، مهما كانت الظروف سانحةً لحدوث ذلك!

لم يُول «ونستون بك» اهتمامًا بهذا الخطاب؛ لأن جميع هذه الكلمات الفارغة كانت مألوفة جدًا لأذنه، لكنه فكر بعمق في اكتشافه الغريب - هذا «المصري» - وشخصيته غير العادية. فعاد ليسأل محاولاً، متابعة تسلسل أفكاره:

- إذًا، ما تعرفه عن أسلافك، وعن حياة وأعمال «أخت - كا - رع». كل ذلك، عرفته من جدتك؟

- نعم.
- ولم تُفصح هي لك، كيف عرفت كل هذا؟
- بلى، هي قالت لي كل ذلك، وأنا أصدقها، «حتاتشا» امرأة رائعة!
- أتفق معك، لكن من أين أتت هي بكل هذا المال، الذي مكنها من إثارة إعجاب كل إنجلترا، بجمالها وأناقته؟
- لا أعلم.
- هل ما زالت ثريّة حتى الآن؟

ضحك «كا - رع» قائلاً:

- ألم أخبرك أننا نعيش بنصف بطن، ونحيا في أوجرة كالثعالب! وبالنسبة إلى الثياب، فلكل واحد منّا خرقة بالية واحدة يرتديها. نحن لا يعيننا المظهر الخارجي كثيرًا، هذا ما يهتم به من لا يملكون شيئًا في داخلهم، الثروات قد تُحفظ في صناديق يأكلها الصدأ.
- لكنك بصفة شخصية، قد تفضل حيازة ثياب فاخرة، أليس كذلك!
- بالطبع. فقط هي «حتاتشا» التي تعلمني التفلسف لأنسى ملابس الرثة!

فكر الرجل الإنجليزي مليًا ثم سأله، هل تعمل في الفلاحة؟

- هي لن تدعني أفعل ذلك، كانت تقول دائمًا، لو تم تصحيح أخطاء الماضي، لكنت الآن ملك مصر! لكن حتمية عدم تصحيح هذه الأخطاء، لن يغير من لبّ القضية شيئًا!
- إذًا، هل تحصل «حتاتشا» على المال بنفسها؟
- هي لا تفعل شيئًا، فقط جالسة في الكوخ ليل نهار، تصب اللعنات على أعدائها.
- إذًا من أين تحصلان على قوتكما بهكذا حال؟!

فوجئ «كا - رع» بالسؤال، وفكر مليًا قبل أن يجاب:

- في بعض الأحيان، عندما يتعاطم احتياجنا، تأتي جدتي بعملة ذهبية قديمة تعود لأحد ملوك الفرس، وتعطيها لشيخ في مدينة «القوصية»، وهو على استعداد أن يعطيها بعض القروش في المقابل؛ لأنه يبيع هذه العملة للمتحف في «القاهرة»، مقابل مكافأة مادية قيّمة. ذات مرة، منذ عدة سنوات هدد الشيخ «حتاتشا» إذا لم تعترف أين وجدت هذه العملات، فما كان منها إلا أن دعت «ست» لمعونتها، وألقت

تعويذة على الشيخ، فماتت جماله وتعفنت، وأصيب أطفاله بالعمى، فاضطر لترك «حتاتشا» وشأنها، وكان بالرغم مما حدث لماشيتته وأطفاله، سعيدًا بحصوله على العملات الذهبية!

- وأين تحتفظ بها؟
- هذا سرُّها الذي تخفيه عن الجميع، عندما مرضت منذ نحو شهر، وكانت مستلقية على السرير كالميتة، فتشّث في كل مكان ولم أعر على شيء، يحتمل أن يكون كثرها نضب!
- هل كانت تمتلك أي شيء آخر غير هذه العملات الذهبية؟
- كان معها جوهرة ثمينة ذات مرة، أرسلت بها «تادرس» الترجمان لبيتاع بثمانها كتبًا إنجليزية من «القاهرة».
- وما الذي صارت إليه هذه الكتب؟
- بعد أن قرأناها معًا اختفت، لا أعرف ما الذي صار لها!

عندما اقتربت الشمس أكثر للأفق، بدلًا أماكنهما مرتين، بعد أن اختلف مكان ظلال النخيل، الآن صار الظل أكبر، ونسمة الهواء أكثر برودة. جلس الرجل الإنجليزي صامتًا يفكر، أما «كا - رع»، فراح يدخن سيجارته الثالثة.

كان التنافس بين المستكشفين وعلماء المصريات على أشده، جميعهم حريصون على الاعتراف بهم كمكتشفين. منذ أن حالف الحظ الأمريكي الشجاع «دايقيز»، أصبح المستكشفون يعيشون على التنقيب أكثر بين آثار مصر؛ للكشف عن المزيد من الآثار لإبهار الباحثين ولفت انتباههم في كل العالم. لقد تم العثور على الكثير جدًا من الآثار بامتداد النيل على ضفتيه، لكن لا زال هناك اعتقاد بأنه يوجد الكثير جدًا لم يُكتشف بعد.

و «جيرالد ونستون» رجل واسع الثراء، ذو شغفٍ كبيرٍ بعلم المصريات، لا يكُل ولا يمل من السعي في هذا المجال الممتع. وبسبب انتشار شائعة مفادها، أن شيخ «القوصية» هو الذي يأتي بالعملات الذهبية والمجوهرات، قرر أن يزور القرية بنفسه؛ ليكتشف المكان السري لهذه الكنوز قبل أن يسبقه شخص آخر.

لكن القصة التي سمعها للتو على لسان الفصيح «كا - رع»، جعلت زيارته لـ «القوصية» بلا معنى، وبالرغم من ذلك، فهو الآن يعرف جيدًا أنه على وشك اكتشاف مهم؛ لذا من الأفضل له أن يتدارك أي مواقف حساسة قد تواجهه؛ لأن احتمال وقوع أي خطأ من جانبه ربما يحطم كل آماله.

أخيرًا، بعد تفكير، تكلم إلى الشاب «المصري» بحرص:

• إذا كان لدى أخي أية معلومات أخرى ذات قيمة، سيتمنى بيعها بمقابل مُجزٍ، ومعلوم لكلينا، أن العجوز «حتاتشا» بالتأكيد تزور مقبرة سرية، وتأخذ من هناك كنوزًا، استطاعت بسببها أن تذهل كل «لندن» لفترة قصيرة، وعندما نَفِدَت ثروتها؛ اضطرت للعودة لمجتمعها الفقير المتواضع، وأجبرتها ظروفها المادية الصعبة، أن تعيش بتلك العملات القليلة المتبقية حتى الآن.

معرفة جزء من قصة جدتك، يجعل من السهل تخمين الباقي. هذه العملات الذهبية تعود للملك «داريوس» (14). قرابة خمسمائة عام قبل ميلاد المسيح؛ لذلك لا تساوي كثيرًا في قيمتها أمام ما تعرفه «حتاتشا» عن الآثار التي تسبق ذلك بألفي عام.

تلك المقبرة التي أخرجت منها جدتك هذا الكنز، لا بُدَّ وأنها تحتوي على كنز من الآثار لا يُقدر بثمن، ليس مجرد عملات كتلك التي تخلصت منها المرأة العجوز دون اهتمام. الألواح والآثار بالنسبة إليّ لا تُقدر بثمن، وسأعطيك في مقابل الحصول عليها آلاف القروش وسأكون سعيدًا ومُمتنًا لك.

فكّر كيف يمكنك أن تساعدني لنصل لتلك النتيجة التي نتمناها، إذا تمكنت من انتزاع السر من جدتك، فلن تكون بحاجة لتعيش عبدًا لها فيما بعد، ربما ستذهب إلى «القاهرة»، تشاهد الراقصات وتنفق أموالك بحريّة، أو تشتري حميرًا وجمالًا، أو حتى تُنصّب نفسك شيخًا.

سأجعل باخرتي «دهبية» ترسو في منطقة مجاورة، وسأمرُّ على هذا المكان كل يوم عند الغروب، وأنتظر منك إشارة. هل تفهم قصدي يا أخي العزيز؟

أخذ المصري سيجارةً أخرى وأشعلها بهدوء ووقف على قدميه، ووقف «ونستون بك» أيضًا. لقد مالت الشمس في الركن البعيد من جبل «أبو الفدا»، وأنعش الظل نسيم لطيف، خَفَّف من حدّة الحرارة.

لَفَّ «كا - رع» العباءة حول قامته الطويلة، وانحنى احترامًا وهو يودع «ونستون بك» قائلاً:

• لِيَحْمِكَ «أوزوريس» يا أخي!

ردّ «ونستون بك» وهو يمازح واحدًا من أتباع أقدم الديانات:

• لِيَمْنَحْكَ «حورس» (15). السلام!

ثم راح يراقب سيقان هذا «المصري» وهي تبتعد متبخترَةً فوق الرمال الساخنة، بخطواتٍ بطيئةٍ منتظمة، في تناقضٍ سخيفٍ بين مشيته المختالة وعباءته القذرة وجسمه المُتَسَخ!

نادى على «حَسَّان» و«عبد الله»، وراح يحدث نفسه وهو يتجه ناحية النيل:

- أنا محظوظ! لقد أشعلت طيش هذا الوغد، لا بُدَّ أنه قريبًا سيُظهر شيئًا ما، حينها سألتزم بكلمتي.. آه ما خطب هذا الحيوان القذرا! لماذا توقف؟

فجأة توقف «كا - رع» عند سفح الجبل بلا حراك، مُحدِّقًا في الرمال أمامه في ضيق، ثم تمتم:

الحصول على السجائر يستحق المعاناة! ثم أردف بانفعال أكثر، لقد ركمني بقدميه مرتين ودعاني بالكلب.

ثم بصق في الرمال وواصل سيره!

(1). «رع» إله الشمس عند المصريين القدماء.

(2). «عربي» أو «عرباوي»، تُطلق على أهل مصر من البدو، الذين يعيشون في القرى الصحراوية أو الجبلية.

(3). نوع من القماش المتين، لونه بين درجات البني المصفّر.

(4). رمسيس الثاني من ملوك الأسرة التاسعة عشرة، في الدولة الحديثة، يفترض بعض علماء المصريات أنه فرعون الخروج (خروج بني إسرائيل من مصر) لكن ذلك غير مثبت بأدلة علمية قاطعة حتى الآن.

(5). من أشهر ملكات مصر في الأسرة الثامنة عشرة، من الدولة الحديثة، اشتهرت بحسن علاقاتها الخارجية والتجارية، ولها رحلة شهيرة لبلاد «الحبشة»، سجلت أحداثها على جدران معبدها في الدير البحري «بالأقصر».

(6). أول ملك قام بتوحيد قطري مصر، مملكة الجنوب في (الصعيد) ومملكة الشمال في (الدلتا)، وأسس الأسرة الأولى في تاريخ المملكة المصرية القديمة.

(7). هو مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، من الدولة الحديثة، لم يكن له أصول ملكية، واتخذ اسم «رع - مسو» الذي يعني (ابن رع أو وليد رع) ليضفي شرعية على حكمه، أشهر أحفاده هو الملك «رمسيس الثاني».

(8). هو ابن الملك رمسيس الثاني، وله لوحة معروفة باسم «لوحة إسرائيل» لأنها الأثر الوحيد الذي يذكر اسم (بني إسرائيل) صراحةً حتى الآن، وقد سجل على اللوحة انتصاراته الحربية، ومنها انتصاره على شعب «إسرائيل» وتعقبهم.

(9). مدينتان مصريتان أثريتان، تقعان حاليًا في «تل المسخوطة» بمحافظة الإسماعيلية.

(10). عادة عند بعض المصريين، وخاصة في الريف، للشكر المقرون بالاحترام.

(11). كلب بري يرمز للإله «أنوبيس» حامي الجبانة، في الديانات المصرية القديمة.

(12). إله الشر عند المصريين القدماء.

(13). إله البعث والحساب.

(14). أحد ملوك الفرس من الأسرة الأخمينية، الذين أسسوا إمبراطورية الفرس الأولى في إيران، في القرن السابع قبل الميلاد.

(15). أحد أشهر الآلهة المصرية القديمة، حارب الإله «ست» لينتقم لمقتل أبيه، الإله «أوزوريس».

الفصل الثاني حتاتشا

تمتد جبال «أبو الفدا» بطول اثني عشر ميلاً، وبارتفاع قرابة مائتين أو ثلاثمائة قدم، تتخذ هذه التلال شكل أوتاد مُدبّبة، لها قَمَم ضيقة غير مستوية، تُحدر بزواوية حادة لأسفل على كلا الجانبين، لا توفر سوى موطئ قدم فقط لمن يحاول تسلق الجبل.

عند الطرف الجنوبي للجبل يوجد عدد من الحفر، عثر المستكشفون بداخلها، على عددٍ من التماسيح المُحَنّطة؛ مما يثبت أن هذه الزواحف عُبدت في السابق من قِبل السكان الأصليين لمدينة «القوصية»، التي كانت يُطلق عليها في النصوص الهيروغليفية القديمة اسم «قِيس»، وفي العصر اليوناني «كوساي».

كانت «القوصية» في أوج عظمتها، عاصمة الإقليم الرابع عشر من أقاليم مصر العليا، والمقصد المفضل في الشتاء لملوك الدولة الوسطى. أما القرية الحديثة، فهي تقع على مسافة ميل أو اثنين من ضفة النهر، في وادٍ خصب ترويه الآبار. غالبية سكانها من العرب، أو خليط من العرب والفلاحين الأصليين -أي الأقباط - الذين يمثلون النسل المباشر للمصريين القدماء.

توقع علماء المصريين الأوائل، العثور على مقابر مهمّة مُخبّأة بداخل منحدرات الحجر الجيري في جبل «أبو الفدا»، لكن التنقيب كشف فقط عن بعض الحفر، التي استخدمت كمقابر لمومياوات التماسيح، وعدد قليل من التجاويف المتناثرة، المنحوتة في الصخور بشكل غير منتظم، وغير جديرة بالاهتمام، ربما كانت تحتوي هذه التجاويف على مومياوات ذات يوم، لكن سُرقت محتوياتها منذ زمن بعيد. تشير النقوش المتبقية في هذه المقابر الصخرية، إلى أنها كانت مخصصة لدفن المواطنين العاديين لمدينة «قِيس»، وقد لوحظ أن هذه التجاويف جميعها تواجه النيل، أما منحدرات الجبل المواجهة للشرق فلم تكن تُستخدم في الدفن. لقد تمتع المصريون بهذه الفرص الرائعة للدفن؛ إذ حُفظت مقابرهم في منأى عن كلاب «ابن آوى» المتوحشة، وأيضاً بعيداً عن عبث لصوص المقابر.

التفّ «كا - رع» بعدما ترك «ونستون بك»، حول الطرف الجنوبي للجبل، وعبر حافة المُنحدر الرّمادية القاتمة، هنا، بالقرب من الحجر الرملي المتدلي كالعناقيد، تُوجد عُشش، عبارة عن أكواخ مبنية من كِسَر الحجارة وشقافات الطوب اللين. سكان المكان الأصليون يدعون «الفدا»، وهذه الحفنة القليلة من البشر، هم من دم مصري خالص، ورفضوا الاختلاط بأهل «القوصية» تماماً.

أكثر هذه الأكواخ أصالةً، هو ذاك الذي تسكنه «حتاتشا» وحفيدها؛ لقد تم تشييده على كهف في الجبل، يعلوه سقف من أعواد القصب. كانت هناك محاولة من البَنّائين لجعل الجدار

يبدو بشكل هندسي متماثل، وهذا ما يظهر من العلامات التي حملتها الأحجار المُرَقمة الآتية من المحاجر. عند المدخل المبني على شكل قوس لا يوجد باب، بل نصف حصيرة تتدلى من أعلى، أما الأحجار فكان سُمكها يبلغ أربعة أقدام.

الأكواخ الأخرى، تصنّف بمحاذاة كوخ «حتاتشا»، قبله أو بعده، لكنها لم تحظ بنفس تصميم البناء، ومع ذلك، تبدو جميعها كآثار قديمة رائعة الجمال. الأكواخ التي تقع عند الحافة الجنوبية والشمالية، كانت مهجورة ومُهْمَلَة. وتقول الحكايات، إن «الفدا» - على الرغم من اسمها العربي - قديمة قَدَم مدينة «قيس»، وليس هناك مجال للشك في ذلك. كان موقعها رائعًا في فصل الصيف؛ لأن الجبال تُظَلِّلُهَا أثناء فترة القيظ في الظهيرة، أما حولها فلا يوجد سوى الرمال والصخور، والصحراء التي تمتد من أمامها حتى حدود «القوصية».

دلف «كا - رع» للشارع الضيق الطويل بين الأكواخ، دافعًا من أمامه عنزة اعترضت طريقه، ثم أكمل طريقه. ما إن دخل مسكنه الذي يتكون من غرفة واحدة، حتى توقف هنيهة لتعتاد عينه كآبة المكان، ثم حدق النظر، وبدا على ملامحه السرور إلى حدٍّ ما!

في أحد أركان الكوخ، على فراش من نبات البوص المجفف، كانت ترقد ما يشبه امرأة، ترتدي عباءة قطنية سوداء مفتوحة من الصدر، يبرز أسفلها نهدٌ مُجَعَّد منكمش، يرتفع ويهبط بشكل متقطع، كأن العجوز الشمطاء تتنفس بصعوبة بالغة، عيناها مغمضتان وغائرتان، شعرها الرمادي المتهدل الذي يحيط بوجهها، جعلها تبدو كساحرة شريرة!

لكن على الرغم من سِنَّها، ومن الطقس الحار الذي تعيش فيه، فإن «حتاتشا» تتمتع ببشرة بيضاء كواحدة من هؤلاء الأوروبيات. بالكاد تلحظ بقعًا غامقة على بشرتها.

على مقعد خشبي قصير بجوار الفراش، كانت تجلس فتاة، تحمل بيدها سعفة نخيل تدفعها للأمام والخلف لتمنع الذباب من الاستقرار على وجه «حتاتشا»، ربما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، لكن مظهرها يوحي بأنها فتاة إنجليزية ناضجة في الخامسة والعشرين، يتسم وجهها بلامح جميلة بحسب مقاييس الجمال العادية، لكن به تبلد يجعلها غير مغرية لمتذوقي الجمال، عيناها السوداء غاية في الجمال، لكن يُحبطك عدم العمق بهما عند النظر إليها. كانت الفتاة ترتدي العباءة السوداء التقليدية، لكن بسبب الحر الشديد، تركت عباءتها تنزلق لأسفل، تاركة صدرها وكتفيها عاريين.

بعد نظرة عميقة متفحصة لجذته «حتاتشا»، جلس «كا - رع» إلى جوار الفتاة، لَفَّ ذراعه حول وسطها، جذب جسدها نحوه، أما هي فلم تَسْتَأْ من المداعبة أو تَسْتَجِب لها، فقط استسلمت لعناقه ببرود، وظلت تحرك سعفة النخيل بذراعها اليمنى.

همس «كا - رع» بصوتٍ منخفض، بلهجة قُبْطِيَّة:

- آه يا حبيبتي «نفتيس»، هل ذهبت «حتاتشا» في قبضة الشيطان ثانية؟
- لم تُجِب الفتاة، لكن بمجرد سماع صوت «كا - رع»، فتحت المرأة العجوز عينيها، وحدّقت نظرها بثبات نحو حفيدها للحظة، يداها اللتان تمسكان ثيابها بتشّج، رفعتهما تتوسل له، وقالت بالإنجليزية، بصوتٍ أجشّ ضعيف:
- أريد رشفة، أسرع يا «كا - رع».
- استاء الرجل، لكنه ترك الفتاة ونهض، قال وهو يَحْتَجُّ:
- إنها الأخيرة يا «حتاتشا»، أنت تعرفين أنه لن يمكنني جلب المزيد بعد الآن.
- أجابت بصعوبة شديدة:
- ربما لن أحتاج المزيد، هذه هي المرة الأخيرة، أسرع يا «كا - رع»!
- كان صوتها يتلاشى مع قرقرة غريبة، ورفرف صدرها كأن النَّفس على وشك مغادرتها.
- ظل «كا - رع» يراقبها بفضول، وقد بدا عليه التأثر من سكرات الموت التي تصارع جدته، ثم التفت نحو «نفتيس» وأمرها بلسانٍ قبطيٍّ أن تذهب، فنهضت الفتاة وخرجت من مدخل البيت.
- ذهب «كا - رع» نحو الحائط، وانتزع حجرًا، ظهر خلفه مخبأ سري، أخذ منه إناءً أسود أملس، له غطاء من المعدن الباهت، حمله إلى «حتاتشا» وجثا على ركبتيه أمامها، نزع الغطاء ووضع عنق الإناء على شفطيتها. تشبثت أصابعها النحيلة التي تشبه المخالب بالإناء، وشربت بنهم، بينما يراقب «كا - رع» مجرى الشراب في حلقها النحيف.
- عندما انتهت، حمل الإناء الفارغ وأعادته للمخبأ، ووضع الحجر كما كان، ثم جلس على المقعد بجوار السرير. كان هناك وعاء به بعض قِطع الخبز الجاف، انحنى نحوه وأمسك بقطعة، مضغها بأسنانه القوية، بينما يحدّق في «حتاتشا» التي تبدو كجثة هامدة.
- لقد صار المكان مظلمًا الآن؛ لأن وقت الشفق في مصر قصير، لكنّ عيني الرجل لهما بؤبؤ يتسع كعيون قطة؛ ولذا، كان قادرًا على تتبّع نفس المرأة العجوز وهو يعلو ويهبط في بطنه، وأدرك أنها ما زالت تتنفس ثانية بسهولة.

مرت ساعة كاملة، لم يتحرك خلالها «كا - رع» سوى مرة واحدة ليشرّب من جرّة ماء موضوعة في الزاوية التي أمامه، أزعجته كثيرًا حالة «حتاتشا»، إذا ماتت سيكون في حيرة من أمره ماذا سيفعل! فهو لم يعتدّ العمل، وليس لديه مصدر رزق من أي نوع، ستكون الحياة صعبة حقًا! علاوة على ذلك، لقد اعتاد أن تقوده تلك المرأة العجوز القوية في كل شيء، وكانت هي التي تعوله طيلة ثلاثة وعشرين عامًا هي كل حياته، لقد اعتاد «كا - رع» أن يفكر بعمق في الكثير من المواضيع، لكنه الآن يواجه أمرًا لم يحسب له حسابًا من قبل؛ لأن «حتاتشا» لم تناقشه معه قط، ومسألة وفاتها لم تكن في الحسبان حتى وقت قريب، لكن حالتها كانت خطيرة جدًّا هذه الليلة، وإكسبير الحياة الذي تناوله فرغ على آخر قطرة!

لقد أذعن كل الناس في «الفدا» لـ «حتاتشا»؛ لأنها ادّعت بطريقة ذكية أنها من أصل ملكي، لكنهم لا يعلمون شيئًا عن قصة «أخت - كا - رع»، ولا عن مغامراتها الطائشة في «لندن» منذ سنين، هذه الأمور لم يتوقعوها أو يفكروا بها على الإطلاق، علاوة على ذلك، لم تأتمن «حتاتشا» على أسرارها سوى حفيدها «كا - رع»، الذي بدوره لم ينبس ببنت شفاه، سوى لذلك الرجل الإنجليزي الذي لن يعود ثانية ليحكى في الأمر مرة أخرى.

لكن ما زال هناك الكثير لم يعرفه «كا - رع» نفسه، وقد أدرك ذلك وهو يحدق بقلق في جدته المريضة، يجب أن تخبره من أين تأتي بهذه العملات الذهبية والمجوهرات، وإذا ما زال مُتبقّيًا بعض منها، فسيحتاج لمثل هذه الأشياء بعد موتها، أما بخصوص مسألة جنازتها وطريقة الدفن، فقد أعربت عن أمنيات غريبة بخصوص التصرف في جسدها بعد وفاتها، ما الطريقة التي سيفعل بها ذلك؟

فجأة، وقع صوت ضعيف - لكنه واضح - على مسامعه؛ مما جعله يثبّ من مكانه! فتحت «حتاتشا» عينيها الكبيرتين، وتمكن «كا - رع» من رؤية بريقهما رغم الظلام، قالت له:

• اقترب إليّ.

سقط على الأرض إلى جانبها، وجلس القرفصاء بالقرب من رأسها، انحنى ليلتقط أية همسة لها. طففت تحدّثه بالإنجليزية:

• الإله «أنوبيس» يناديني يا بُنيّ، يجب أن أنضم لمملكته، لم تكن سيني حياتي رائعة، بل أبلت جسدي بالحب والكراهية وخطط الانتقام، أنت خليفتي ووريث كنوزي وانتقامي وكراهيتي. لقد حان الوقت؛ لترد لي الجميل مقابل رعايتي لك، وتقوم بالمهمّة التي أعددتك لها منذ الطفولة، عذني بأنك ستفعل كل ما أقوله لك بالحرف.

أجاب بهدوء:

• بكل تأكيد يا «حتاتشا»، ألسيتِ جدتي!

صمتت لبرهةٍ ثم تابعت:

• أنت متبلد المشاعر وأنا ناني وقاسي القلب. وأنا مَنْ جعلتك هكذا، أنت ذكي وشجاع وقوي بفضل تربيته لك.

ذات مرة، عندما كنت شابة جميلة ومحبوبة، كنت أواجه العالم كله، لقد وقعوا جميعهم في غرامي وسقطوا عند قدمي. لكنّ رجلاً واحداً دمر السعادة والحب في قلبي، وتركني وحيدةً مكسورةً مثل غزالة شريفة، انحدرت من أبهة القصور إلى هذا الكوخ المصنوع من الطين، حاملةً طفلي بين ذراعي. وهنا، حزنت ونوّحت وعانيت لسنواتٍ دون عزاء. بعد ذلك، هذا الحب الذي دمر سلامي تلاشى وانتهى، وزرع «ست» مكانه بذور الانتقام التي رعيثها. والشجرة نبتت ونمت، أنت يا بُني جذع الشجرة القوي، الثمرة التي ظلت تنمو لسنين طويلة، أما الآن فقد نضجت. الآن، أنت أيضاً ستواجه العالم، لكن كرجل قوي، وليس كامرأة ضعيفة كما كنت أنا، ستحقق انتقامي وتثار لي، أليس كذلك يا حبيبي «كا - رع»!

تحيّر «كا - رع» لكنه أجابها:

• إذا قالت «حتاتشا» شيئاً، فليكن كما تريد.

ثم تابعت:

• إذا، أضغ جيداً لكلماتي، واحفظها بعناية في عقلك، لا تنسَ منها شيئاً حتى تجدها عند الحاجة لمساعدتك. سأشرح لك كل شيء الآن وأنا أملك قوة الإكسير؛ لأنها عندما تذهب، ستفارقني أنفاسي، وعندها سيبدأ عملك.

انحنى «كا - رع» أكثر، للمرة الأولى يدق قلبه أسرع من المعتاد، شعر بإثارة تجتاح كل كيانه، أخيراً أتت ذروة حياته، الآن هو على وشك اكتشاف الأشياء العظيمة، التي يجب عليه أن يحققها في العالم المجهول.

مضت ساعة بعد ساعة و«حتاتشا» تلقن تعليماتها وتوجيهاتها لحفيدها، تسأله من حين لآخر حتى تتأكد أنه فهم ما تقصده، أسماء عديدة تكررهما مراتٍ ومراتٍ حتى تنطبع في ذهنه. وعندما انتهت من حديثها، أخذت سبّابته ووضعتها على صدرها العاري، وجعلته يردد خلفها قَسماً بإطاعة كل تعليماتها بكل الطرق، والحفاظ على أسرارها للأبد. ثم تراجعت للوراء واستلقت على الفراش.

بزغ الفجر في أوانه، وتسلسل شعاع الضوء أسفل قوس المدخل، وأنار على هؤلاء القابعين في الزاوية؛ العجوز القذرة، غير المهذبة، مضطجعة ميتة على فراشها المصنوع من نبات البوص المجفف، وبجانبها «كا - رع» لا يحرك ساكنًا، عيناه تحدقان في الجدار أمامه، مستغرقةً في التفكير.

الفصل الثالث التزجمان

خرجت «نفتيس» من كوخ والدتها في برودة الصباح الباكر، تحمل على رأسها جرة فخارية، قاصدة النهر؛ لتأتي من هناك باحتياجهم اليومي من المياه. أثناء مرورها بمسكن «حتاتشا»، كان «كا - رع» واقفاً عند المدخل، جذب الفتاة نحوه وقبّل شفيتها. لكنها كانت قبلات بلا طعم!

سألته بلا مبالاة:

• كيف حال جدتك؟

أجاب وهو يمسك ذراعها بيده وباليد الأخرى يقترب من خدّها:

• هي الآن مع «إيزيس» (16)!

ارتجفت الفتاة وهي تنظر لأعلى، قائلة:

• دعني أذهب!

لكنه أحاطها بذراعه وقبّلها ثانية، فرفعت يديها لأعلى وتشبّثت بالجرة لتحميها من السقوط. فجأة اجتاحت «كا - رع» قوة مباغته، جعلته يمسكها، ويدور بها بقوة مثل النحلة، حتى اصطدم بالجدار المقابل له!

وترنّحت «نفتيس» فسقطت الجرة منها وتهشمت على الأرض، ثم تراجعت للوراء لتتكئ على جدار المدخل محدقة في ذاك الشخص الذي وقف أمامها.

وقف أمامها رجل، بدا من ثيابه مظاهر الثراء، فوق رأسه طربوش أحمر أنيق - مثل الكثير من المصريين - يرتدي معطفاً من السّاتان الأزرق، المنسوج بإتقان بخيوط من الفضة، والمزين بصفّ من الأزرار الفضية اللامعة، تحته صدرية من الحرير الأبيض، يرتدي أسفلها بنطالاً قصيراً وقصفاً من الحرير الزعفراني، يصل إلى ركبتيه - يشبه الأتراك -، ثم ساقان عاريان حتى نعله الأصفر، فوق هذا كله، عباءة فضفاضة من الحرير القرمزي، تتدلى من الكتف لأسفل، ولك أن تتخيل روعة وفخامة ملابسه!

كان قصير القامة، ممتلئاً قليلاً، بوجهه شارب أسود مشذب بعناية شديدة، مظهره مرتب ووسيم بشكل ملحوظ، عيناه واسعتان وسوداوان تقريباً كعيني «كا - رع»، إلا

أنه في هذه اللحظة، كان يتطاير منهما الشرر، ويشوّه العُبُوس شكل جبينه. لقد وقف فاتحاً ساقيه، ناظرًا للفتاة بغضب، وواضعًا كلتا يديه في وسطه!

رمقته «نفتيس» بنظرة بها بعض الذهول، فرغم ملامح وجهها غير المعبرة، فإن فتحتي منخارها اتسعتا قليلاً، كما لو كانت خائفة، ثم تمتمت:
• تادرس!

انتصب «كا - رع» بطوله من الأرض، ووقف عابساً أمام عدوّه، ثم تمتم باستياء:

• «الترجمان» الملعون مرةً أخرى!

أدار «تادرس» رأسه ليرمق عدوّه بنظرة احتقار، ثم عاد لينظر للفتاة مرةً أخرى ويُعَنّفها بشدة:

• ماذا عن وعدك لي يا امرأة؟ هل تصبحين ألعوبة في يد كل مصري قذر كلما أدت لك ظهري؟!

لم تُجبه «نفتيس»، لكنها راحت تنظر لشكل الجدائل الفضية على معطفه، تدقق النظر في طبيّاتها ولقّاتها، تفكر في لون الساتان الأزرق الذي يشبه لون الفيروز، لا بدّ أنه تكلف الكثير من المال، ربما خمسين قرشاً!

بينما تابع «الترجمان» تهديده بلسانٍ عربي:

• سوف تُسأل أمك عن هذه الخيانة، إذا كنتِ تنوين استغبائي وجعلي ألعوبة بيدك، سأسترد المهر على آخر مليم.

وقع نظر الفتاة على شقافات الجرّة المكسورة المبعثرة، وقالت نائحة:

• لقد كُسرت!

اغتاظ «تادرس» من سذاجتها، وركل بقدمه كسر الفخار وهو يقول:

• أباه! يوجد الكثير من الجرّار في «قنا»، سيكلف الأمر «سارة» العجوز، أكثر بكثير من ثمن جرّة، إذا لم تُحكّم سيطرتها عليكِ وتؤدبكِ، تعالني معي!

لوح بيديه في غطرسة، دافعاً إيّاها حتى كوخ أمها، غير مبال بنظرات الشر في عيني «كا - رع»، الذي وقف في مكانه لا يحرك ساكناً، بينما تبعته ألفتاة خانعةً مستسلمة.

دلفا إلى حجرة مربعة، مضاءة بطاقتي نور داخل جدار من الطين، أثاثها فقير وبسيط، الأيسرة من نبات البوص النيلي. كانت هناك عنزة ذات بقعة بيضاء على عينها اليسرى، تجتر الطعام وهي تُخرج رأسها من الجدار.

عند المدخل استقبلته امرأة ذات وجهٍ بشوش وبنية جسدية جيدة، لكنها ذابلة قليلاً، عقدت ذراعيها على صدرها، وأحنت رأسها قائلة:
مرحبًا!

رد «تادرس» التحية بعدم اهتمام:

السلام لأهل البيت.

ثم ألقى بجسده على مقعد، أما «سارة» فجلست القرفصاء على الأرضية الطينية، وهي تنظر بإعجاب لملابس «الترجمان»، ثم قالت:

• أنت رجل عظيم يا «تادرس»، لقد شرفتنا بمجيئك، انظر لعروستك يا «ترجمان»، ألم تصرّ ملفوفة القوام وناعمة أكثر من قبل؟ ألا ترى أنها الآن جاهزة للسكن في بيت الحريم لديك؟

أشعل «الترجمان» سيجارةً بعد أن هدأت حدة نبرته، واختفت من وجهه ملامح الغضب، ثم قال:

• يجب أن أتكلم معك بشأن «نفتيس»، هي تتساهل كثيرًا مع شباب «الفدا»؛ وبخاصة مع هذا الوغد «كا - رع».

سألته «سارة» باستنكار:

• وما الذي يمكن أن تفعله؟ الفتاة يجب أن تأتي لنا بالماء، وتساعدني في العمل حتى تأخذها عندك، لن يمكنني حبسها وعزلها عن الناس كالأميرات. علاوة على ذلك، لا يوجد رجال في «الفدا» سوى «نيكاو» العجوز، وهو أعمى، والشباب المدعو «كا - رع».

أجابها «تادرس» وهو ينفخ سيجاره بتراخ:

• «كا - رع» هذا هو الذي يسبب لي الضيق!
• «كا - رع»! لكنه من أبناء الملوك، وأنت تعرف جيدًا أن أبناء الملوك القدامى، يتمتعون ببعض الحرية في أن يفعلوا ما يحلو لهم بالآخرين، لا عليك، هو فقط يأخذ قبلةً بين

الحين والآخر، لقد رأيتُه بنفسِي، لا داعي للقلق على الإطلاق!

أجاب «الترجمان» ساخرًا:

- ابن ملوك! ومن أين لنا أن نعرف إذا كانت قصص «حتاتشا» القديمة حقيقية أم لا؟!
- لا بُدَّ وأنها حقيقية، لقد خدمت والدتي والدة «حتاتشا» لأنها كانت ابنة ملوك، على امتداد أجيال، كان المصريون يجعلون أسلاف «كا - رع» على الرغم من زوال مُلكهم، وحتى بعد أن حكمت عليهم الظروف العيش في فقر. تعقّل يا عزيزي «تادرس»، أنت دمك مصري أصيل مثلنا - حتى ولو لم يكن ملكيًا - هل سنحط نحن المصريين من كرامتنا، بالشجار مثل الكلاب الإنجليزي أو الوثنيين العرب!

أجاب «تادرس» مفكرًا:

- العرب ليسوا بهذا السوء، لديهم العديد من العادات المعقولة، وقد أصبحنا ملزمين بقبولها، بعد أن اجتاحت هؤلاء المسلمون بلادنا، وها هم هنا باقون فيها. ولا يمكن أيضًا الاستهزاء بالإنجليز بهذه السهولة يا «سارة». أنا أعرفهم جيدًا؛ وكذلك حلفاؤهم، الأمريكيون والألمان والفرنسيون. هم يسافرون لمسافات بعيدة جدًا للاستمتاع بمشاهدة «القاهرة» ونهر النيل، ويضعون الجنيّات الذهبية في جيبي؛ لأنني أرشدهم إلى المعالم الأثرية وأشرح لهم التاريخ، وفي الوقت نفسه أُمْنَع العرب الماكريين من سرقتهم إلى أن أحصل على أجر. نعم؛ كل الناس لهم استخداماتهم، صدّقيني!

هتفت المرأة بإعجابٍ شديد:

• أنت رائع!

أجابها بتفاخر، أنا ترجمان، اسمي معروف من «القاهرة» إلى «الخرطوم»، ثم ألقى بسيجارة لـ «سارة» تلقّفها ببراعةٍ ووضعتها بين شفّتيها، ثم أشعل لها سيجارتها من سيجارته بلطف.

أثناء حديثهما معًا، بعد أن دخلت «نفتيس» الكوخ خلف «تادرس»، ذهبت إلى الجانب البعيد من الغرفة، ورفعت غطاء صندوق متواضع، مصنوع من خشب الكافور، أخذت حُزمة ملابس، ثم أغلقت الغطاء ونشرت محتويات الحُزمة على الصندوق.

ثم أدارت ظهرها لأمها و«تادرس»، حلت ثوبها الأسود المغبّر، تركته يسقط على فخذيها، ثم أسدلت فوقه سترة بيضاء، وفوقها رداء من الشاش الخشن المُغَطّي بطبقة لامعة رخيصة. بعد أن خلعت الثوب الأسود علقته على الوتد. ثم ربطت حزامًا مُذهّبًا عريضًا حول خصرها، ظهرت أسفلها كشكشة الثوب.

كان «تادرس» يتابع خطيبته أثناء حديثه مع «سارة»، وقد بدأ يشعر ببعض الارتياح؛ خاصة عندما قامت ببرم بعض الأزهار الاصطناعية على شكل تاج، ووضعتها فوق شعرها الأسود، ثم جاءت إليه وجلست في حِجره. كانت قدماها ما زالتا حافيتين، ولم تكونا نظيفتين جيداً، لكنه لم يلاحظ ذلك.

قالت المرأة العجوز وهي تستنشق دخان سيجارتها بمتعة كبيرة:
• سوف أتحدث إلى «حتاتشا» عن «كا - رع»، وسوف تخبره هي أن يكون أكثر حرصاً.

ردت «نفتيس» في الحال:

• حتاتشا ماتت!

ألقت «سارة» السيجارة من يدها وحدقت للحظة، ثم غطت رأسها بثيابها وانطلقت في نوبة من العويل، وهي تهتزُّ بجسدها للأمام والوراء، صاح بها «الترجمان» وهو يُنزل الثوب عن رأسها:

• صه! وقري هذا العويل عندما يجتمع المشيِّعون.

التقطت «سارة» سيجارتها مرةً أخرى، ثم سألت ابنتها:

• متى ذهبت «حتاتشا» لـ «أنوبيس»؟

أجابتها الفتاة:

• لم يخبرني «كا - رع». كنت معها وقت غروب الشمس بالأمس، وكانت تُحتضر حينذاك.

قال «الترجمان» بلا مبالاة:

• لا يهم، «حتاتشا» الآن في حال أفضل في العالم السفلي، أما حفيدها الوغد، فعليه أن يذهب للعمل وإلا ستتضور معدته المَلَكِيَّة جوعاً!

أجابت «سارة» بنبرةٍ توحى بالخوف:

• مَنْ يعلم! لم نرهما يعملان قط، ربما تمدهم الآلهة باحتياجاتهما!

رد «تادرس»:

- أو ربما سرقا مقبرة! هذا هو الاحتمال الأكثر ترجيحًا، لكن لو صحَّ ذلك، أود أن أعثر على المكان، بالطبع هناك أموال في اكتشافٍ من هذا النوع. قد يعني ذلك وجود جعارين، وتمائيل جنائزية، وتمائم، ومزهريات وأوان قديمة.. وما إلى غير ذلك. وكلها يمكن بيعها في «القاهرة» بسعرٍ جيد. وفي بعض الأحيان قد يوجد جواهر وحُلِيّ ذهبية أيضًا، لكن هذا يكون في مقابر الملوك فقط. اذهبي إلى «حتاتشا» يا عزيزتي «سارة» وأبقي عينيك مفتوحتين.

أومأت والدة «نفتيس» برأسها وسحبت آخر نفس من سيجارتها. ثم غادرت الكوخ وهرعت إلى مسكن «حتاتشا». كان هناك خمس نساء قد تجمّعن في المسكن، معظمهن كبيرات في السن، وجميعهن يرتدين ملابس سوداء دكّناء، قرفصن جميعهن في دائرة حول الفراش الذي ترقد عليه الميتة. حاولت إحداهن غلق عيني «حتاتشا»، لكن للأسف لم تفلح لأنها فعلتها متأخرًا. في إحدى زوايا المنزل، كان «كا - رع» يمضغ قطعةً من قصب السكر!

انضمت «سارة» للنساء وراحت تولول وتُهيل التراب على رأسها، وهي تضرب على صدرها، وعلى مثالها تفعل النساء الأخريات، كان صراخهن مفاجئًا. نظر إليهن «كا - رع» لبرهة، ثم حمل أعواد القصب وذهب إلى الخارج.

وقف ساكنًا لبعض الوقت وهو متردد. كان هناك عمل يجب عليه القيام به، وقد تكاسل حتى استحوذ المُعزّون على المنزل. الآن، الشمس حارة بالفعل وما زال أمامه رحلة شاقة. تنهّد «كا - رع»، لم يكن معتادًا على العمل قط!

مشى «كا - رع» إلى الطرف الشمالي من منطقة الأكواخ، ودخل كوخ الأعمى «نيكاو». كان يقف بجانب الباب حماره السوري طويل الرأس ذو العينين المهيبتين، وكان صاحبه «نيكاو» جالسًا على الأرض يفرك له قدميه بخرقة قديمة مغموسة في زيت. أمسك «كا - رع» باللجام وألقاه على رأس الحمار.

رفع «نيكاو» عينيه الكفيفة إلى أعلى وسأل:

- من هذا؟

لم يردّ «كا - رع»، لكنه قام بهزّ السّرج على ظهر الحمار محاولاً ربطه. لف الرجل العجوز رجليه النحيقتين حول أرجل الحمار ومد يده لسحب السرج بعيدًا.

صرخ «نيكاو» وهو يقاوم:

• هذه همجية حفيد «حتاتشا»، أنا أعرفه جيدًا، لن أسمح لأحد أن يسلب مني حماري العزيز «ماماك»، كُفَّ عن ذلك وإلا سأنادي «الترجمان»، هو موجود هنا منذ الصباح.

جاوبه «كا - رع» بركلة في بطنه، ثم أتبعها بركلة أخرى، حتى صرخ الرجل وتلوى على الأرض من شدة الألم، ثم قاد سليل الملوك، الحمار «ماماك» إلى الخارج، وقفز فوقه بخفة ورشاقة، ورفس مناخس الحمار وهو يصرخ:

• شي حا!

بدا الحمار أمامه وديعًا ومطيعًا، لكنه نشيط وقوي. لم يكن هناك طريق محدد في الاتجاه الذي ذهب إليه، وبدت رمال الصحراء كأن لا نهاية لها. جلس «كا - رع» على أحد جانبي الحمار، يمضُ القصب، بينما يواصل الحمار السير في نفس الوقت. مرت ساعة بعد أخرى. أخيرًا، ظهرت أمامه فجأة مجموعة من الصخور، وبعض من أشجار النخيل عند سفحها. كلما اقترب كبرت الصخور أكثر، وصارت مثل جبل صغير، تتخلله شقوق عميقة في الصخور. ولكن كان هناك خضرة داخل هذه الشقوق، والكثير من الماعز ترعى تحت الأشجار. سار «كا - رع» من أمامها وصعد إلى سفح الجبل، حيث كان هناك مدخل لأحد الكهوف المعلقة.

نزل عن الحمار، ركض إلى الكهف وجثا عند نبع مياهٍ صافٍ، كان النبع يتلألأ ويهدر ماءً باردًا من قلب الصخور. تبعه «ماماك» وألقى بأنفه في الماء بجانب وجه «كا - رع» وشربا معًا، ثم قام الرجل ونادى بصوتٍ عالٍ:

• مرحبًا، هل «ثابت» هنا؟

فجأة سمع شخصًا يضحك من خلفه، فوثب «كا - رع» على كعبه. وقف في مقابله قزم قبيح غريب الشكل! يتناقض شعره الأبيض الثلجي مع بشرته الدُّكَّاء مثل الشوكولاتة، كان يصل بالكاد إلى خصر «كا - رع»، لكن جسمه وأطرافه كانت ضخمة جدًا لدرجة توشي بقوة هائلة. يرتدي عباءة بيضاء خالية من النقوش، تتدلى من رقبتة إلى قدميه، أما رأسه فمن دون غطاء.

بدأ القزم يتكلم بينما الشاب يحدِّق به، قال بلغةٍ مصريةٍ قديمة:

• أنا أعرف المهمة التي بانتظارك، «حتاتشا» ماتت!

رد «كا - رع» بإيجاز:

• هذا صحيح.

- أردف القزم وهو يفرك أنفه:
لقد أقسمت لي، بأنني سأعيش طويلاً بما يكفي لتحنيطها، وكانت على حق. كانت امرأة رائعة «حتاتشا» العجوز، وامرأة ملكية أيضاً، سأوفي بوعدتي لها.

سأل «كا - رع» مندهشاً:

- هل يمكنك فعل ذلك حقاً؟! هل تعرف طريقة التحنيط التي كان يقوم بها القدماء؟
- ولم لا؟ أنت تظن أنني لا أجيد التحنيط؛ لأن الحرفة أصبحت بلا قيمة في هذه الأيام الشريرة. لكنني نجحت في تحنيط والدة «حتاتشا» - جدتك الكبرى - وكانت «حتاتشا» سعيدة جداً بهذا العمل. ألا تبدو جدتك طبيعية حتى الآن؟ هل رأيتها؟

هز «كا - رع» رأسه قائلاً:

- ليس بعد.
- لقد خزنت جيداً، العلكة والتوابل العطرية، وعرق البلح والمرّ والقرفة الصينية، وملح النطرون، كل تلك الأشياء التي عهدت إليّ بها «حتاتشا» منذ فترة طويلة. وشرائط الكتّان الناعم للضمادات وأوانٍ للأحشاء. لا تزال جميعها في مخزني الخاص، بقيت معي منذ أن تركتها جدتك في عهدتي؛ لذلك لا يوجد سبب يمنع تنفيذ رغبتها.
- هل ستعود معي؟
- نعم، سنأتي بالجثمان إلى هذه المنطقة الخالية، هي الآن لم تُعد «حتاتشا»، بل هيكل الجسد الذي استخدمته طوال حياتها، وسوف تستخدمه مرةً أخرى عند البعث. لذلك يجب الحفاظ عليه بعناية. ستستغرق العملية أربعين يوماً، كما تعلم. في نهاية ذلك الوقت، سأقوم بتسليم مومياء «حتاتشا» في يديك. أما أنت، فيجب عليك بعد ذلك أن تعطيني حجر الزمرد محفوراً عليه خرطوش (17). باسم العظيم «أخت - كا - رع». أليس هذا هو الاتفاق كما أخبرتك «حتاتشا»، يا أميري؟
- نعم، يا عزيزي «ثابت».
- هل تعرف من أين تأتي به؟
- نعم أعلم.

بدا القزم مسروراً وذهب ليقوم بالتحضير لرحلته، أما «كا - رع» فقد نام في الكهف؛ لأن الشمس كانت شديدة الحرارة وقد أرهقته الرحلة الطويلة. كما رقد بجواره حمار الأعمى «نيكاو» ونام.

عند منتصف النهار، أيقظ القزم «ثابت» الشاب «المصري» وأعطاه بعض الكعك ليأكل وشراباً من حليب الماعز. ثم أحضر حماراً قوياً أشهب وركبه بخفة هائلة. لاحظ «كا - رع» وجود كيس كبير مثبت في حلقة السرج - ربما لوضع جسد «حتاتشا» بداخله -

بعد لحظات تحركا معًا عبر الرمال. قال القزَم:
• يجب ألا نصل إلى «الفدا» قبل غروب الشمس

أوما «كا - رع» بالموافقة. لذلك؛ سارا بتمهّل وتحمّلا أشعّة الشمس الحارقة، التي لا يستطيع أحد تحملها سوى سكان مصر الأصليين.

عند غروب الشمس ظهر جبل «أبو الفدا» أمامهما، وكان الظلام قد حلّ عندما دخلا شارع القرية الضيق. نزل «كا - رع» عن ظهر الحمار «ماماك» عند كوخ صاحبه الأعمى «نيكاو»، وعندما صفعه على فخذه، انطلق الحمار بسرعة إلى الداخل. ثم تبع القزم «كا - رع» إلى عتبة مسكنه.

لقد عاد المُشيّعون إلى منازلهم وتركوا «حتاتشا» مسجّاةً بمفردها، لكن أحدهم وضع قطعة قماش على وجهها لإبعاد الذباب. سحب القزم شمعة من جيبه وأوقدها. نزع الغطاء عن وجهها، وتأمل لحظاتٍ في وجه المرأة الميتة. ثم تنهّد بعمق، وفك الكيس من سرجه، وأطفأ لهب الشمعة.

وقف «كا - رع» عند المدخل ينظر إلى هلال القمر. في وقت قصير، وقف حمار القزم الأبيض بجانبه. الآن أصبح الكيس ضخماً وثقيلًا، معلقًا من أطرافه في السرج. كان بإمكان «كا - رع» رؤيته بوضوح في الضوء الخافت. وضع «كا - رع» يده على الكيس وسأل القزم:

• هل ستحمّله معك دون أن يسقط؟

أجاب القزم وهو يمتطي ظهر الحمار، وراء الكيس:

• سأمسك به جيدًا، مسكينة «حتاتشا». لم تكن تعرف أننا سنأخذ رحلتنا الأخيرة معًا في صحبة «خنسو» (18).

• طابت ليلتك.

• طابت ليلتك، بعد أربعين يومًا، تذكّر، بعد أربعين يومًا

• والتابوت؟

• أنت ستأتي به

كان الحمار يعرج وهو خارج من مسكن «حتاتشا»، ومرّ بهدوءٍ في الشارع الضيق، حتى تلاشى في ظلام الليل واختفى.

تثاءب «كا - رع»، ونظر إلى الأكواخ حوله، كان هناك ضوء خافت في واحدٍ منها فقط، هو كوخ «سارة» العجوز، عبس «المصري» ثم ضحك وتمتم:

• ليكن لـ «الترجمان، هذه الـ «نفتيس»، أما بالنسبة إليّ، فهناك نساء في «القاهرة» و«لندن» وكل العالم الواسع، أبّاه! هناك نساء في كل مكان!

دخل المنزل، وأسدل نصف الحصيرة المعلقة على المدخل، وثبّتتها بإحكام ليمنع دخول أحد.

(16). هي إلهة الأمومة والخصوبة، قامت بإحياء زوجها الإله «أزوريس» بعد مقتله، وأنجبت منه الإله «حورس»، وقامت بحمايته.

(17). رسم على شكل مستطيل، له حواف مستديرة، يكتب بداخله أسماء الملوك.

(18). إله القمر عند المصريين القدماء.

الفصل الرابع كنز «أخت - كا - رع»

على جانب مدخل الكوخ، كان هناك تجويف، أخذ منه «كا - رع» مصباحًا صغيرًا من البُرُنْز، كان المصباح له تصميم جميل وغريب الشكل، مملوءٌ ببعض بالزيت، ويظهر على سطحه فتيل صغير. يتذكّر «المصري» هذا المصباح منذ أيام طفولته، لكنه نادرًا ما رآه يُستخدم. أضاء الفَتِيل وفركه بأصابعه حتى اشتعلت النيران أكثر وصارت أقوى، ثم أدار «كا - رع» ظهره إلى مدخل الكوخ وراح يتفحص الجدار الخلفي للمسكن بعناية.

المسكنُ مبنيٌّ في الأساس على كهفٍ طبيعيٍّ بداخل الجبل، ولكن بسبب عدم انتظام شكل التجويف، وأيضًا بسبب صلابة الجزء الموجود في الجدار الخلفي، تم تشكيل الجزء الآخر من الكهف ليكتمل بناء الكوخ. لم يُبَدِ «كا - رع» اهتمامًا كبيرًا بهذه الحقيقة من قبل، لكن الأمر أذهله الآن، عندما اكتشف أن البناء قد تم تشييده لإغلاق فتحة عميقة جدًا، وغير منتظمة، بحيث لا يمكن استخدامها كجزء من المسكن. كانت قطع الحجارة المستخدمة في بناء الكوخ كبيرة الحجم، وتم بناؤها وتشبيتها مع الصخور الطبيعية النازلة من الجبل لتشكّل الجزء الأكبر من السقف.

استقرت عين «المصري» على الطبقة الثالثة من هذه الأحجار، وقام بالعدّ من الزاوية إلى الحجر السابع. لم يكن بالنسبة إليه هذا مختلفًا في شكله عن باقي الأحجار - لكن حسابات «حتاتشا» كانت دقيقة، وكانت تعلم جيدًا ماذا تفعل -.

مشى نحو الحجر الموجود في الجدار الخلفي وضغط بشدة على الحافة اليمنى للحجر، تحرك الحجر، واستدار تدريجيًا إلى الداخل، حيث يوجد مفاصل صلبة من البُرُنْز، في الأعلى والأسفل لتسند الجهة اليسرى وتدعمها.

عندما انفتح الحجر، كشف عن ممرٍ ضيقٍ طوله قرابة أربعة أقدام وارتفاعه ثلاثة أقدام، تسلل «كا - رع» إلى داخل الممر الضيق على الفور، ممسكًا بيده المصباح أمامه. نعم؛ كان تخمينه صحيحًا - يوجد كهف منخفض وغير منتظم الشكل، خلف هذا الجدار.

كان اهتمامه الأول هو؛ إغلاق المدخل عن طريق الضغط على كتلة الحجر لتعود إلى وضعها السابق. كان هناك مقبض من البُرُنْز مثبت على الجانب الداخلي يسمح له بفتح الممر مرةً أخرى بسهولة.

شعر في البداية بالرطوبة والبرد داخل الكهف، وعندما رفع مصباحه، رأى بعض الممرات العميقة التي تؤدي إلى أسفل الجبل. اختار الممر الثاني من يسار هذه الممرات، وسار في طريقه بحذرٍ على امتداد الأرضية الوعرة. في بداية الأمر ظن أنه سار في الطريق الخطأ؛

لأن هذا الطريق لم يكن يبشر بالخير مثله مثل العديد من الطرق الأخرى؛ لكن عندما توقف وتذكر تعليمات «حتاتشا» وحساباتها، تأكد أنه يسير في الطريق الصحيح.

على بُعد خطوات، يتحول مسار هذا الممر بشكل مفاجئ وينحدر إلى أسفل؛ لكن الصخور التي كانت تحت قدميه تبدو الآن ممهدة أكثر، والطريق أسهل في السير. ثم ينتهي الممر فجأة بعد مائة خطوة، حيث كانت الصخرة منقسمة في الأصل.

مشى «المصري» إلى آخر نهاية الممر، ثم قاس بدقة ثلاث خطوات للوراء مرةً أخرى. رفع مصباحه، وفحص الجدار الأيمن للنفق عن كثب. رأى العديد من الشقوق والتجاويف غير المنتظمة، لكن لاحظ أن إحدى هذه الفجوات، محاطة بدائرة صغيرة من اللون الأسود، أو بلونٍ آخر أغمق من الأجزاء الأخرى في الصخر.

تهلّل «كا - رع» من الفرحة! كان يخشى ألا يجد هذا المكان، على الرغم من تأكيدات جدّته أنه واضح للعيان. أخرج خنجرًا قصيرًا مديبًا من ثنانيا عباءته - كان قد وجده في القبو بجانب مدخل الكوخ - رشقه الشاب في فتحة موجودة في الصخرة ودفعه للداخل حتى انزلق داخل شيء يشبه المقبض، ثم أدار المقبض، وسمع صوت نقرة حادة.

تراجع «كا - رع» إلى الوراء خطوةً واحدة، عندما تدرجت الصخرة ببطء وكشفت خلفها عن نفق آخر يمتدُّ بزاوية قائمة على الأول. لكن على عكس الآخر، لم يكن هذا نفقًا طبيعيًا في الصخر، لكنه نفق تم نحته بذكاء ودقة بواسطة المنقبين عن الآثار. كان السقف مقوَّسًا والأرضية مصقولة ممهدة.

تسلّل الشاب من الفتحة ومضى على طول الممرّ المقوَّس. لم يغلق الباب خلفه؛ لأن «حتاتشا» حذرتَه من ذلك. كانت الأرض تنحدر تدريجيًا، وكان يعلم أنه في كل خطوة يتجه بعيدًا أسفل الجبل. الجوُّ الآن أصبح حارًا وخانقًا، وأصبح «كا - رع» يجد صعوبةً في التنفس، لكنه استمرَّ في التقدم بثباتٍ لمدة خمس دقائق - بدت كأنها ساعة -، ممسكًا بالمصباح أمامه، انطفأ أخيرًا وميض الفتيل فجأة، كما لو أن هناك نسمة هواء قد هبّت وأطفأته!

في تلك اللحظة، كاد صدره ينفجر، وصار يلهث بأنفاس متقطعة، لكنه ثابّر وواصل بسرعة إلى الأمام حتى وجد هواءً باردًا فاستنشق ملء رئتيه بامتنان.

توقف انحدار الطريق إلى أسفل عند هذه النقطة، ووجد «كا - رع» أمامه عمودًا صخريًا ضخمًا، بدا للوهلة الأولى أنه يسد النفق. نُقش عليه كتابات هيروغليفيه غير مُنسقة. ذهب على يسار العمود ووجد نفسه في غرفة عالية مُقبَّبة. توقف ليرتاح قليلًا وهو يشعر ببعض الرضا.

كانت الغرفة دائرية الشكل، ولا يزيد قطرها على ستة عشر قدمًا. ومن الواضح وجود عمود هوائي يبدأ عند قبة الحجره وينتهي عند قمة الجبل، حيث وجد «كا - رع» نفسه يتنفس بشكل طبيعي مرةً أخرى. قال في نفسه، يجب أن تكون هذه هي المكتبة التي حدثتني عنها «حتاتشا»!

حول جدران القبو كانت هناك كَوَات (19)، محفورة داخل الحائط الصخري في صفوف منتظمة وتحتوي على أوعية تشبه الصناديق، مغطاة بنقوش وصور بألوان مبهجة. في وسط الغرفة، كان هناك لوح مستدير كبير من الجرانيت، سطحه العلوي مصقول بدقة شديدة.

قام «كا - رع» بسحب صندوق من إحدى الكَوَات، ووضعه على لوح الجرانيت بجانب المصباح الخاص به. ثم أخذ منه لفافة بردي وفحصها باهتمام. نعم؛ لقد قرأها من قبل. كانت واحدة من تلك التي غالبًا ما تكتبها جدته بطريقة عشوائية للمساعدة في تعليمه. قام بفحص لفافةٍ أخرى، ولفافةٍ ثالثة، بهدوء واهتمام شديد. هذه أيضًا كان يعرفها جيدًا. كان هناك مائتان وثمانية عشرة لفافة من ورق البردي في هذه المكتبة القديمة، وقد درس واستوعب «المصري» قبل سنوات، كل هذه المعرفة التي تحتويها البرديات. لقد قرأها بسهولة، وعرف على الفور من سياقها، المعاني المختلفة للعديد من العلامات التي لا تزال تحير الطلاب الأقل اجتهادًا في دراسة اللغة المصرية القديمة.

تعود المخطوطات إلى حقبة زمنية تمتد من الأسرة الرابعة وحتى أيام البطالمة، وفي تجويف كبير أسفل لفائف البردي، كانت توضع الأعمال السابقة لـ «هيروودوت» و«ديودور الصقلي» و«مانيتون» و«سترابو» وغيرهم، بالإضافة إلى مجلدات عن التاريخ المصري والأوروبي الحديث، اشترتها «حتاتشا» العجوز من «القاهرة» خلال السنوات القليلة الماضية. كانت موضوعه أيضًا هناك، العديد من الجداريات التاريخية لملوك مصر الأوائل أمام الحائط، مرتبة ترتيبًا زمنيًا. لقد أسس هذه المكتبة «أخت - كا - رع»، وتم الحفاظ عليها والإضافة إليها على مدار قرون عديدة، حتى صارت مخزنًا حقيقيًا لسجلات تاريخ بلده الرائع.

ابتسم «كا - رع» وهو ينظر في أرجاء الغرفة، ثم تتمم:

• الجميع يتجادلون بشأن تاريخ مصر القديمة، لكنني أنا وحدي الذي أعرف الحقيقة!

كانت هناك كومة من لفائف البردي في تجويف آخر، أقل أهمية من تلك المرتبة بعناية داخل الصناديق. أحضر «كا - رع» ملء إبطه منها ووضعها فوق قرص الجرانيت الذي في منتصف الحجره، ونفض عنها الغبار بثوبه، واختار خمس عشرة منها بعد إلقاء نظرة خاطفة على محتويات كل واحدة. ثم أعاد الباقي إلى مكانها. بعد أن أنجز

هذا العمل، حمل مصباحه وعاد إلى المَمَرِّ، هذه المرة لَفَّ حول العمود الصخري الضخم إلى اليمين ليخرج من الغرفة.

ومنه دخل إلى غرفة ضخمة مستطيلة، شاسعة لدرجة أن ضوء المصباح بدا وكأنه لا يشق محيط هذه الظلمة الشاسعة لأبعد من بضعة أقدام فقط. لكن كانت هناك مصابيح أخرى معلقة في أقواس برُنْزِيَّةٍ ضخمة، وشرع الشاب في إضاءة العديد منها، وقد وجدها كلها تقريبًا مُزَوَّدَةً بالزيت.

وعندما دلف إلى الغرفة، تراجع إلى الوراء، وتملَّكه إحساس بالرهبة؛ إذ وجد الغرفة الكبيرة، مليئة بتوابيت المومياوات، مُرتَّبة وموضوعة على أقراص من جرانيت «أسوان» الصُّلد. عند المدخل على وجه التحديد، كان هناك عشرات الأقراص بلا توابيت. ثم رأى تابوتًا رائعًا من خشب الآبنوس المُصَمَّت، منحوتًا بإتقان، وعلى كل سنتيمتر من سطحه نقوش فرعونية رائعة. لقد صُنِعَ هذا التابوت خصيصًا لـ «حتاتشا» في «لندن»، أثناء إقامتها في تلك المدينة، وتم نقله سرًّا إلى هذا المكان بطرق هي فقط تعرفها!

كانت جميع النقوش مكتوبة بلغة مصرية قديمة باستثناء كلمة واحدة «حتاتشا»، التي كُتبت بأحرف لاتينية على غطاء التابوت. انتقل «كا - رع» إلى القرص التالي حيث وضعت فوقه مومياء جدته الكبرى «تي - آتون»، التي حنَّطها القَزَم «ثابت» بمهارة شديدة. وقام بتحنيط أطرافها بشكل منفصل. ويمكن رؤية وجهها بوضوح من خلال القماش الرقيق المشدود بإحكام فوق الوجه. تنهَّد «كا - رع» أمام المومياء تنهيدةً تنمُّ عن إجلالٍ عميقٍ قبل الصعود إلى الغرفة.

كلما واصل تقدمه للأمام، زادت المومياوات في قَدَمِ أعمارها وكذلك في روعة توابيتها وأهمية نقوشها. كانت بعض التوابيت مغطاة بكثافةً بالنقوش الهيروغليفية التي تحكي تاريخ حياة المُتوفَّى، بينما كانت بعض التوابيت مليئة بتمائيل أوشابتي(20). وتمائم وجعارين. أخيرًا وصل «كا - رع» إلى نهاية الحجرة وتوقف بجانب مومياء العظيم «أخت - كا - رع»، الذي بالرغم من كونه ليس ملكًا بالاسم، حكم مصر خلال حياته من خلال «رمسيس الثاني» الضعيف، الذي يسميه رجاله عن جهل «رمسيس العظيم».

ركع الشاب «المصري» طويلًا أمام مومياء جدِّه العظيم. في حين كان «رمسيس» نفسه و«سيتي»(21). والده، والعديد من ملوك مصر الآخرين، يرقدون في المُتَحَفِ المصري في «القاهرة»؛ ليحدق بهم حشود السيَّاح الفضوليين المعاصرين وينتهكون حرمتهم، كان هذا الحاكم الجليل قد رتَّب وخطَّط بحكمة لأجل عزلته وعزلة ذريته في العالم الآخر.

«أخت - كا - رع» هو من بنى هذه المقبرة السرية خلال حياته، وقد حافظ على السر جيداً؛ لدرجة أنه لم يترك سجلاً مرسوماً أو محفوراً، قد يسترشد به أي أجنبي، لاكتشاف مكانه في العصور القادمة.

ابتهجت عيون «كا - رع» بشدة عندما رأى تابوت مومياء جده الرائع. كان التابوت مُرَصَّعاً بالأحجار الكريمة، التي يمكن اعتبار واحدة منها بمثابة ثروة لشخص، عاش مثله لفترة طويلة في حالة مادية متواضعة. لكنه لم يعبت بهذه الأحجار الكريمة. فقط قام بلمس القرص الجرانيتي أسفل التابوت، فانزلق جزء منه إلى الأمام وكشف عن وجود فتحة.

أخذ «كا - رع» مصباحه وتسلَّل إلى الفتحة. كانت هناك سبع عشرة درجة تؤدي إلى الأسفل. ثم ممر قصير، منه دلف إلى غرفة كبيرة أخرى منحوتة في الصخر الصلب. هنا كنز «أخت - كا - رع»!

أما محتوياته، فهي بلا شك سُرقت من مدن الكنوز في «بر - آتوم» و«بر - رعمسيس»، والتي تبين بعد وفاته أنها سُلبت.

كانت الغرفة بأكملها مُغطَّاة بالجرانيت المصقول، وحول الجدران توجد طاوولات من الجرانيت لحفظ الكنوز فوقها، بالإضافة إلى مزهريات ضخمة واسعة الفوهة، مصنوعة من الرخام السَّمَّاقِي والملاخيت والألَّزُورْد والعقيق والبرُّنْز. وكانت على الطاوولات أكوام من سلاسل وأساور وحلي وأوانٍ من ذهب خالص.

في وسط الغرفة كان هناك اثنا عشر عموداً من المرمر، ستة في كل جهة، وكل قاعدة تحمل مزهرية رائعة تحتوي على أنواع مختلفة من الأحجار الكريمة.

كان على الأرض أيضاً العديد من المزهريات والأواني الممتلئة بالمجوهرات والحلي الذهبية. ومزهريات أخرى كانت مليئة بقطع النقود التي تعود للملك «داريوس»، لاحظ «كا - رع» أن واحدة منها تحتوي أقل من النصف! لأن جدته اعتادت أن توفر لهم احتياجاتهم المادي منها؛ لأنها تعود لتاريخ حديث نسبياً، ولن يُثار أي شك في أن مصدر هذه النقود كان مقبرة «أخت - كا - رع» القديمة.

في الحقيقة، كان من السهل أن نرى العديد من خلفاء «أخت - كا - رع» قد أضافوا إلى هذا الكنز بدلاً من السرقة منه. الكنز الأصلي الموجود في اثنتي عشر مزهرية ضخمة من الملاخيت لم يمَسَّها أحد قط، على الرغم من أن «حتاتشا» كانت لا بُدَّ أن تكون قد أخذت منه في وقت من الأوقات. لكن تمت إضافة الكثير من الكنوز المتناثرة على الطاوولات والأرضية منذ أن وُضع «أخت - كا - رع» في مقبرته.

وقف «كا - رع» بلا حراك! لكنَّ عينيه كانتا تلمعان. دبَّ يده في جَرَّة وسحبها للخارج مليئةً بالياقوت. كانت ممتلئة من جميع الأحجام والأشكال الملونة، وكانت مصقولة على أسطح مستوية بدلاً من تقطيعها على شكل وردات وفقاً للطرق الحديثة. بعض الأحجار منقوش عليها أحرف صغيرة، لكنها عادةً ما تكون مصقولة بنعومة.

توجه الشاب إلى الطاولات التي أمام الحائط. كان هنا أيضاً الكثير من الحلي الذهبي المرصع بالياقوت والماس والچمشت والزمرد، بالعديد من التصاميم. بعض الأحجار كبيرة الحجم ذات قيمة كبيرة. لكن جذب انتباه «كا - رع» تابوتٌ مصنوعٌ من الخشب الأذكن ومزِين بالكتابة الهيروغليفية الفضية. أزاح الغطاء وأخذ من التابوت سلسلة ضخمة من الذهب، وضعها حول رقبتة. نُقشت كل حلقة منها بدقة بكتابة اسم أحد الملوك، وأهم إنجازاته.

قرأ «كا - رع» بعض النقوش واندesh جداً. لقد صُنعت السلسلة في الأصل من اثنتي عشرة حلقة من قِبَل «با - إن - نتر»، الملك الثاني عشر بعد الملك «ميناء»، هذا الملك الذي خلال حكمه، كان نهر النيل يفيض بالعسل لمدة أحد عشر يوماً! وقد أخذ خليفته السلسلة وأضاف حلقة أخرى، وهكذا زادت حلقات السلسلة عبر العصور التالية، وصولاً إلى زمن «آخت - كا - رع». لا عجب إذًا، أنها طويلة وضخمة وثقيلة!

لم يُرد «كا - رع» استبدال هذه السلسلة الرائعة. لذا تركها معلقة حول رقبتة، وأخفاها أسفل عباءته.

بعد ساعة أو أكثر من تفتيش هذه الكنوز، التي اعتبرها الشاب بطبيعة الحال ملجأ له، متناسياً أن «حتاتشا» قد حذرته من الاستيلاء عليها. استعد «كا - رع» على مضضٍ لمغادرة الغرفة. في البداية، اختار ثلاثاً وعشرين ماسةً كبيرة من جَرَّة وأخفاها في ثنایا عمامته - يطلقون على العمامة جيب المصري - لأنه نادراً ما توجد جيوب في عباءته، في حين يمكنه إخفاء الكثير من الأشياء في ثنایا قماش العمامة.

قال «كا - رع»، هنا ماسة واحدة لكل عام عشته، بالتأكيد أنا أستحق هذا العدد الكبير، لكنها لم تُرضه. أدخل يده في جَرَّة الياقوت مرةً أخرى، وأخذ كل ما يمكن أن تنسبت به أصابعه. إذ راق له لون الياقوت. ثم صعد الدَّرَج، وعاد إلى غرفة المومياوات من جديد، وأغلق المدخل السَّرِّي المَخْفِي أسفل قرص الملاحيت الذي كان يرقد عليه «آخت - كا - رع» العظيم.

وقف «كا - رع» وهو يشعر بالرَّهْو، ثم تنهد قائلاً، من ذا الذي يتخيل حجم الثروة الهائلة التي صارت في متناول يدي؟! لقد بدأ للتو يدرك أهميته العظيمة!

قام بإطفاء المصابيح التي أشعلها في هذه الغرفة، واقتفى أثر خطواته ليعود إلى المكتبة، وهناك جمع الخمس عشرة لفافة من ورق البردي، وضعها جميعاً في حجر عباةته بينما أمسك بطرف العباءة. ثم عاد من الممر المُقَبَّب، حتى وصل إلى الباب الصخري الذي تركه مُوارباً. صعد من خلال الفتحة ودفع الصخرة إلى مكانها، حتى سمع نقرة شديدة عند انزلاقها فيما يشبه المزلاج.

لقد دلف الآن إلى ذاك النفق الطبيعي في باطن الجبل، ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يصل إلى الممر الحجري الغير ممهد، الذي يفصله عن مسكن «حتاتشا». توقف لحظة، وضع أذنه على الجدار قبل أن يخرج، لكنه لم يسمع أي صوت، أطفأ المصباح ثم أمسك بالمقبض المثبت في الحجر من الداخل وقام بلف الحجر على قائمته البرُنْزِيَّة المثبتة. وهكذا في لحظة، كان في مسكن جدته «حتاتشا»، وبدا الجدار الذي مرَّ من خلاله صلباً وثابتاً كأنه جزء طبيعي من المسكن.

لقد غاب «كا - رع» لعدة ساعات أثناء رحلته الاستكشافية في قلب الجبل، حتى أتى المساء وحل الظلام. ألقى «كا - رع» بأوراق البردي في إحدى زوايا المسكن، وأخفاها ببعض نبات البوص الساقط من فراش جدته، ثم ألقى بنفسه على فراشه لينام. لقد ظل مستيقظاً ما يقرب من ليلتين كاملتين، وكانت جفونه مثقلة بالنوم جداً.

(19). جمع كوة، وهي تشبه صندوق صغير محفور داخل الحائط.

(20). هي تماثيل خدم وجوار، توضع مع المتوفي داخل التابوت لتخدمه في العالم الآخر، وتكون صغيرة الحجم جداً.

(21). هو ابن «رمسيس الأول»، ومعنى اسمه (المنتمي إلى الإله ست)، لم يحظَ بنفس الشهرة الواسعة التي كانت لابنه «رمسيس الثاني».

الفصل الخامس لفافة البزدي

قبل بزوغ الفجر، دسَّ «الترجمان» رأسه من خلف الحصيرة - المسدلة من أعلى المدخل - ليختلس النظر داخل مسكن «حتاتشا». نظر إلى «كا - رع» وارتاب في أمره. لقد زار منزل الشاب في المساء ووجده غائبًا ولم يجد جثمان «حتاتشا» أيضًا. ثم عاد مرةً أخرى لاحقًا، ومرةً ثالثة في منتصف الليل، وفي المرات الثلاث لم يجد جثمان «حتاتشا» الميتة ولا حفيدها!

كان «الترجمان» يتوق لمعرفة المكان السري، الذي أخذت فيه رُفات المرأة العجوز، ومن أي اتجاه عاد حفيدها «كا - رع»! مدَّ خيطين عبر الشارع الضيق - واحد أمام كل جانب من مدخل المسكن - ثم رجع لينام على أريكته، في منزل حماته العجوز «سارة».

طلع الفجر وكان «تادرس» مستيقظًا ومتحفزًا. وجد تلك الخيوط التي وضعها كما هي في مكانها، لم يمسه أحد، والشاب ما زال نائمًا داخل مسكنه. حكَّ «الترجمان» أذنه اليسرى في خيرةٍ وهزَّ رأسه.

بلا شك، «كا - رع» شاب ذكي، لكن أفعاله الغريبة دفعت «تادرس» إلى الاعتقاد، بأن هناك شيئًا مهمًا يجري على قدمٍ وساق. وكان موضوع العملات المعدنية، والمجوهرات القديمة التي تأتي بها «حتاتشا» العجوز، يستحق التحقق من الأمر. جلس القُرْفُصَاء أمام المدخل في برودة الصباح الباكر، ظل يراقب خروج «كا - رع».

أحضرت له «نفتيس» كعكة للفطور، وضعتها في يده، أخذها في سكوت، ثم حملت جرّتها وذهبت إلى النهر. في عودتها، توقفت لتعطي سيدها ليشرب ثم تركته ومضت.

أشعل «تادرس» سيجارةً ودخَّنها حتى آخرها. ثم رفع الحصيرة المثبتة على المدخل مرةً أخرى، ونظر داخل المسكن طويلاً. كان «كا - رع» غارقًا في النوم بطريقة غريبة، يبدو كأنه ميت! لا بُدَّ أن هذا الكسول قد استنفد قوته في حمل جثة جدته إلى مقبرة بعيدة. آه، لا بُدَّ أن هذه المقبرة هي المكان السري، الذي أتت منه العملات الذهبية والجواهر. بكل تأكيد يعرف «كا - رع» ذلك؛ وبالتالي سيكون من الجيد أن يكسب «تادرس» ثقته.

لكن ما هذه الكومة المبعثرة من البوص هناك في الزاوية؟ ولماذا أخذها من البوص الذي في فراش «حتاتشا»؟! فجأةً ثار فضول «الترجمان»! قام بفكّ جزء من الحصيرة التي على المدخل، وتسلسل إلى الكوخ. لم يسمعه «كا - رع» لأنه زحف ببطء على يديه وركبتيه حتى الزاوية. مد يده داخل الكومة وسحب لفافة من البردي.

جلس «الترجمان» ساكنًا للحظة، يخفق قلبه بشدة. هنا اكتشاف عظيم بالفعل! هو يعرف تمامًا أن العشرات من العلماء، سيفلسون عن طيب خاطر ليكتشفوا لفافة بردي جديدة.

زحف ببطء مرةً أخرى إلى المدخل، وجلس حيث كان هناك شعاع من الضوء بين الحصيرة المتدلية من عتبة المدخل العلوية والحجارة الرمادية. فك المخطوطة بعناية، وفحصها بلهفة. لم يكن «الترجمان» عالمًا في المصريات، لكنه يستطيع قراءة الخط الهيروغليفي قليلًا، ويجيد تفسير الصور القديمة. هذه بلا شك لفافة بردي من العصور القديمة وذات قيمة كبيرة، إنها تتعلق بأحداث حرب «رمسيس» ضد «خيتا» (22)، وكانت محفوظة بحالة ممتازة. تحتوي على قائمة الأسرى الذين أُعيدوا إلى «طيبة»، وأيضًا حساب نفقة الجيش. هتف فرحًا بهذا الاكتشاف!

لكن أعقب صرخة السرور السريعة الحفيفة هذه، هجمة قوية وشرسة من «كا - رع»، الذي انقضَّ كالفهد على الدخيل الوَقيح في منزله. قبل أن يتمكن «تادرس» من النهوض، وثب مهاجمه فوقه، وبأصابع رشيقة قوية، أمسك بحلقه بشراسة. صارع «الترجمان» ليحرر نفسه من قبضة «كا - رع»، لكنه لم يستطع. حاول أن يتنفس، ولكن دون جدوى. تحول لون وجهه البُرُنزي إلى الأسود، وجحظت عيناه من الرعب والخوف.

عند رؤيته بهذه الحالة، هدأ «كا - رع»، وتخلَّى عن روح «ست» التي تدفعه للانتقام. أطلق سراح «الترجمان» ودفع الحصيرة بعيدًا عن المدخل ليسمح للهواء بالوصول إليه.

استعاد «تادرس» أنفاسه ببطء، وهو يلهث ويتمتم ويتأوه. لقد تركت أصابع «كا - رع» آثارَ بقع حمراء اللون على رقبتة، لكن هذا لا يهم. لقد عاد إلى الحياة من موتٍ مُحَقَّق، وهذا الانتقال من الموت إلى الحياة، أثار بداخله الامتنان والفرح. لأن الحياة حلوة، هي أحلى وأغلى ما يملك «الترجمان»!

وقف «كا - رع» منتصبًا ينظر إليه في الأسفل وذراعه مطويتان في حالة من الارتياح والتفكير. سببان منعه عن الانتقام. أولهما، أن قتل «تادرس» من شأنه أن يوقعه في مشاكل مع السلطات؛ وبالتالي يسبب له مشاكل كبيرة في هذه المرحلة الحرجة من حياته؛ لأنه بحاجة للتصرف بحريّة، والتحرر من التجسس والمراقبة على حياته. السبب الثاني هو؛ أنه بحاجة لاستخدام «الترجمان» لمصلحته الخاصة في خُططه المستقبلية. لأن «تادرس» كان ذكيًا ومعروفًا. وبالتأكيد سيصبح خادمًا صالحًا عندما يعلم أن من مصلحته أن يكون مخلصًا لـ «كا - رع»؛ ولذا، كان من الأفضل أن يعيش هذا العدو لبعض الوقت.

الآن بعد أن بدأ يتعافى من صدمة هجوم «كا - رع»، بدأ «تادرس» يتكلم بغضب:

• ماذا تقصد أيها الكلب، بمهاجمته مثل الوحش البرّي ومحاولة خنقني؟

- أجابه «كا - رع» بفضاظة:
• وأنت ماذا تقصد بسرقة منزلي والتطفُّل على أموري الخاصة؟
- وقعت عين «الترجمان» على لفافات البردي عند قدميه، وتغيرت تعابير وجهه! سأله بسرعة:
- من أين حصلت عليها؟ هل هناك المزيد منها؟ هل هي مقبرة أم معبد؟ أخبرني يا «كا - رع»، أخبرني كل شيء عنها.
- ابتسم «المصري» ابتسامةً ساخرة، ثم أجابه:
- نعم هناك المزيد منها، انظر! في تلك الزاوية يوجد أربع عشرة لفافة أخرى، لكن من أين أتت؟ من مقبرة أم معبد؟ لا أعرف. هي ميراثي من «حتاتشا». أين وجدتها؟ هي وحدها تعرف ذلك، لكنها حملت السرَّ معها إلى العالم السفلي!
- صمت «تادرس» لبعض الوقت، ثم سأله وقد بدا عليه عدم التصديق:
- أين كانت كل هذه السنوات إذًا؟
- مخبئة تحت فراش «حتاتشا»، لقد سحبتها جميعًا الليلة الماضية، من تحت الفراش كما ترى!
- هل كان هناك المزيد من العملات المعدنية؟
- أظهر «كا - رع» بعض العملات في يده وقال:
- القليل منها!
- أخذ «الترجمان» نفَسًا عميقًا وقال:
- أنت غني يا أميري، خمس عشرة بردية من الزمن القديم تساوي ثروة كبيرة!
- سأله «كا - رع» مسرورًا:
- كم تساوي؟
- التقط «تادرس» واحدة وفتحها جزئيًا ليلقي نظرةً على الكتابة مرةً أخرى وقال:
- يمكنني بيعها في القاهرة بخمسمائة قرش، وربما ألف. الكتابة واضحة بشكل رائع والبردية محفوظة بشكل جيد.

قال «كا - رع»:
• يمكنك الاحتفاظ بها لك!

أندهش «تادرس»!

أردف الشاب ببرود:

• سأعطيها لك مقابل «نفتيس»! لقد دفعت مهراً لـ «سارة» العجوز مائتين وخمسين قرشاً بالفعل، وعليك أن تدفع مبلغاً مماثلاً لتأخذ الفتاة معك، وبعد ذلك يجب أن تدفع مقابل إعالتها. سأريحك من هذا العبء. ولن توفر أموالك الكثيرة فحسب، بل ستحصل على بردية تساوي أربعة أضعاف ما أنفقته.

عَبَسَ وجه «تادرس» وبدا كئيباً، ثم صاح:

• لكن الفتاة لي!

أجابه «كا - رع»:

• والبردية لي. ربما يمكنني شراء اثنتين أو ثلاثة مثل «نفتيس» بثمنها، ولكن ستكون لك إذا قبلت التبادل.

شعر «تادرس» بتحسّر وعدم ارتياح وهو ينظر إلى البردية طويلاً! ثم تمتم متردداً:

• أنا لا أحب هذه التجارة البربرية في جنس النساء.

وافق «كا - رع»:

• ولا أنا! لكن كل اللوم على «سارة»، طالما لديها ابنة سمينة، تريد لها ثمنًا باهظًا. وإلا فكيف تعوض ما أنفقته على الفتاة؟ لكن خمسمائة قرش ثمنٌ باهظٌ أكثر من اللازم بالنسبة إلى «نفتيس»، لو كنت مكانك، ما كنت لأعطي والدتها مائتين وخمسين قرشاً. أعطني لفافة البردي. وحياة «إيزيس»، هذه صفقة سيئة! انس الأمر، أعطني البردية!

صاح «تادرس»:

• مهلاً مهلاً! لماذا التسرع؟ الصفقة ستتم. لا أحد يتراجع عن كلمته سوى العربي اللئيم.

أجاب «كا - رع» وهو يمد ذراعيه الطويلتين ويتثائب:

- حسنًا، كما قلت، لكنها بردية جميلة يا «تادرس»، كلها عن ملك «خيتا» والملك «رمسيس».
- أجابه «الترجمان» وهو يضع غنيمته تحت إبطه بعصيّة:
- أعرف أعرف! تعال معي، سأبلغ «سارة» بالاتفاق.
- نهض على قدميه وهو يترنح؛ لأن حلقة ما زال يؤلمه، تقدم الطريق، وتبعه «كا - رع» بهدوء.
- كانت الأم وابنتها في الكوخ ينسجان الكليم على نول قديم، دخل «الترجمان» وتحدث بصوت عال:
- اسمعي! «نفتيس» هذه متحررة في تعاملها مع الشبان، ولا يمكنني أن آتي إلى هذه القرية المهجورة كل يوم لتأديبها. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن أعود إلى «القاهرة» لأهتم بعلمي؛ لذلك سأمنح الفتاة لصديقي «كا - رع» هنا، وعندما يأخذها منك - إذا فعل ذلك - فعليه أن يدفع باقي المهر، المائتين وخمسين قرشًا التي وعدتك بها.
- بدت «سارة» مندهشة، لكنها أومأت برأسها بسعادة كبيرة وقالت:
- الأمر سيان بالنسبة إليّ. طالما أن «سليل الملوك» سيدفع المال لك، فهذا ليس شأني، كل ما أعرفه، أن نَسب ابن «أخت - كا - رع» العظيم شيء يجب أن نفخر به
- قطعت الفتاة الخيط وهي تحاول إعادة ربطه، بينما تنظر بلا مبالاة من هذا الرجل إلى ذاك.
- قال «كا - رع»:
- أنا لم أعِدْ بالزواج من «نفتيس» - رغم أن ذلك قد يحدث - فأنا لم أخطط لمستقبلي بعد. لكنني سأخذ الفتاة بناءً على اتفاقي مع «تادرس» ولأن حقوقه صارت لي.
- قالت «سارة» وهي تفحص «نفتيس» بعينيها:
- ألا ترى! إنها تزداد أنوثَةً وسمنَةً كل يوم. سوف تسعى كثيرًا يا عزيزي «كا - رع»؛ حتى تجد زوجةً جميلةً مثلها. ومع ذلك، أنا لست في عجلة من أمري أن أفقد ابنتي، صدقني، حتى مقابل المال الذي ستجلبه. خذ وقتك وفكر جيدًا في الأمر.
- أجاب «كا - رع» بإيجاز:

- سأفعل!
- والآن، أخبرني ماذا فعلت مع جدتك «حتاتشا»؟
- لقد أخذتها إلى الصحراء لتحنيطها.

ثم قام وذهب ليتجنب كثرة الأسئلة.

(22). مملكة «خيتا» أو «خاتوش»، أسسها «الحيثيون» الذين استوطنوا الأناضول والشام وشمال العراق، وكانت بينهم وبين «رمسيس الثاني» حروب، انتهت بإبرام معاهدة سلام ومصاهرة.

الفصل السادس «كا - رع» يستحم في النهر

خرج «تادرس» وراء «كا - رع»، وتبعه إلى الشارع، سأله:

• تلك البرديات الأخرى، هل تريد أن أبيعها لك؟

أجاب «كا - رع» على غير الحقيقة:

• لقد بيعت بالفعل!

• حقًا لمن؟

• «وينستون بك»، الرجل الإنجليزي.

سأل «تادرس» مندهشًا، وقد بدا عليه الانزعاج:

• أين قابلته؟

• هنا، عند مرفأ النهر. سيأتي قاربه ليلاً ليأخذ لفائف البردي.

مرت أفكار كثيرة بسرعة في عقل «الترجمان»، هذه أخبار سيئة بالفعل! لقد خطط للحصول على كل تلك البرديات الرائعة في يديه، لكن خاب أمله عندما اكتشف، أن هذا «المصري» الذي يعيش معزولاً في قرية جبلية بعيدة، قد تعرّف بالفعل إلى هؤلاء العلماء الأوغاد، واتفق على بيع بعض كنوزه لهم، قبل أن يعرف هو - الرجل الذكي - بوجود الكنوز من الأساس!

غامر بطرح رأيه قائلاً:

• سوف يسرقك!

أجابه «كا - رع» بلا مبالاة:

• حسنًا!

أصاب «تادرس» حالة من اليأس. ومع ذلك، هناك شيء واحد واضح جيد، وهو، إذا كان «ونستون بك» على وشك الحصول على أربع عشرة لفافة من البردي، من تلك التي تم العثور عليها حديثًا، وعرضها على مدير المتحف في «القاهرة»، فسيكون من الجيد له، أن يسبقه إلى هناك، ويعرض على مدير المتحف لفافة واحدة قبله، بأعلى

سعر ممكن. ويمكن تحقيق ذلك بسهولة؛ لأن ذهبية «ونستون بك» تستغرق أربعة أو خمسة أيام في رحلة النزول إلى «القاهرة».

فبإمكان «تادرس» عبور النيل في قارب صغير، واللحاق بالسكك الحديدية على الضفة الأخرى، والتي سيصل عن طريقها إلى «القاهرة» في اليوم التالي. لذلك؛ قرر على الفور أن يأخذ خط السكة الحديد.

قال «كا - رع»:

- أتوقع أن أذهب إلى «القاهرة» بنفسى قريبًا. إذا كنت هناك، أود أن أستأجر خدماتك بصفتك تُرجمانًا!

انتبه «تادرس» من شروده واستغراقه في التفكير عن «القاهرة» وبيع لفافة البردي، وتفحص الشاب بذهول من أخص قدميه القذرتين الحافيتين، مرورًا بعباءته المتسخة، وحتى وجهه الملطخ وعمامته الباهتة. فهو من مواليد «الفدا» - هو نفسه يعرف ذلك - وكان يُطلق عليه «ابن الملوك» كنوع من الازدراء! منذ صباه وحتى الآن يعتبره جزءًا أساسيًا من القرية الصغيرة؛ فاتر، وكسول، ولا يفعل شيئًا، ومسنود دائمًا بطريقة غامضة من جدته، وليس مقدر له سوى أن يشيخ وسط قريته المنعزلة هذه.

بلا شك، هناك بعض الأهمية الطفيفة التي اكتسبها «كا - رع» بسبب ميراثه للبرديات. لكن أن يفكر في زيارة «القاهرة» واستئجار «الترجمان» ذي المكانة والمظهر الأنيق لخدمته، فهذه أعجوبة أذهلت «تادرس» بشدة! ومع ذلك، لِمَ لا؟ طالما لديه المال، سيكون بإمكان «تادرس» بالتأكيد أن يعلمه كيفية إنفاقه. قد يصبح «كا - رع» سبب نقله في حياته المهنية، أو عنصرًا أساسيًا في رخائه في المستقبل.

قال «تادرس» باستخفاف:

- اتصل بي في أي وقت، يجب أن تتمتع بميزة امتلاك خبرتي ومعرفتي بالعالم.

ردّ «المصري»:

- هذا ما أريده بالفعل، وسأدفع لك مقابل ذلك بسخاء!

مضى «كا - رع» إلى مسكنه، وقرر «الترجمان» وهو يراقبه، أن يقوم بتحضير نفسه بسرعة للسفر. لقد شعر الآن أن الأمور أسهل بكثير في ذهنه مما كانت عليه في البداية. ماذا لو اشترى «ونستون بك» لفائف البردي؟ ألن يكون «تادرس» مرشدًا «للمصري»؟ حتى لو انتهى الأمر كذلك، فهنا أيضًا استفادة، وهذا حسن جدًا. بالفعل جيد جدًا!

استلقى «كا - رع» مرةً أخرى ونام حتى بعد الظهيرة. ثم ذهب إلى كوخ «نفرت» التي تخبز لكل القرية، وقايضها على رغيف خبز ووعاء من الحليب. وحصل منها أيضًا على كيس كبير من الخيش. في المقابل أعطها جرّة الماء الخاصة بجدته «حتاتشا»، التي اشترتها من «قنا»، ووشاحًا قديمًا كانت جدته تضعه فوق رأسها.

أكل الرغيف وشرب الحليب وشعر بالانتعاش. ثم حمل الكيس إلى مسكنه ووضع فيه لفائف البردي.

من التجويف السريّ بجانب المدخل، أخذ المزهريّة الزرقاء ذات السداة المعدنية، وخاتمًا على شكل جعران، كانت جدته تضعه في إصبعها أحيانًا، أما الخنجر الرفيع ذو الشفرة الفولاذية - الذي استخدمه كمفتاح للباب الصخري - فتركه في التجويف؛ وكذلك ترك المصباح.

بعد أن أعاد الحجر لمكانه، وأغلق المخبأ، تلّفت حوله ليرى ما إذا كان هناك أي شيء قد سُرق أثناء غيابه، لكن المسكن كان خاليًا من أي شيء يدل على اقتحام لص أو سارق. ألقي بالكيس على كتفه، وخرج إلى نهاية الجبل متخذًا طريقه إلى النهر.

أما «ونستون بك»، فقد أوفى بوعده، متجاهلاً احتجاجات طاقم الباخرة العرب البائسين. وكما اتفق مع «المصري»، أنه في حال تمكن من الحصول على معلومات قيّمة، أو بعض الآثار القديمة من جدته العجوز، سيجد «الدهبية» في المنطقة المجاورة، بالقرب من بستان النخيل، في انتظاره.

وهكذا، منذ مقابلته مع «كا - رع»، تنتظر «الدهبية» كل يوم من فترة ما بعد الظهر، حتى قبل غروب الشمس بساعة، وتظل هناك حتى يحلّ الظلام دون أن يأتي «المصري». ثم يُبحر مع التيار إلى «تلّ العمارنة» حيث ترسو «الدهبية» هناك حتى ظهر اليوم التالي.

اليوم، كان على موعد مع خيبة أمل جديدة، مثل الأيام السابقة. لكنه «چيرالد ونستون»، عندما يكون لديه هدفٌ ما، يثابر لإجله باصرار عنيد، وقد قرر الحفاظ على وعده بانتظار «المصري» في نفس الموعد، كل يوم، لمدة أسبوع على الأقل، قبل أن يفكر في اتخاذ أي قرار. لم يكن لديه شك، أنه على طريق الوصول لاكتشاف مهم، ولم يكن ينوي التخلي عن هذا الأمل بسهولة.

في هذا اليوم، عندما اقترب من بستان النخيل، رأى شخصًا يرتدي ثوبًا أبيض، ويجلس تحت الظل، تهلّل قلبه من الفرح. أسرع إلى الأمام فوجد «كا - رع»، الذي ظل جالسًا دون حركة، حتى قام الإنجليزي بتحيته وأحنى رأسه له!

كانت عيون «ونستون بك» على الكيس الذي كان بجانب «المصري»، وبدا صوته مُتلهِّفًا على الرغم من محاولته عدم إظهار ذلك. صاح:
• أهلاً يا أخي، مرحباً!

قال «كا - رع»:

• ماتت جدتي «حتاتشا».

تراجع الإنجليزي للوراء وسأله في خوف:

- هل قتلتها؟!
- حاشا! لا، لا على الإطلاق، بل كانت تُحتَضِرُ عندما عدتُ إلى المنزل بعد حديثي معك. أنا لن أستفيد من قتل «حتاتشا» شيئاً!
- هل أخبرتك بشيء؟
- لا شيء. كانت فقط تستجوبني. لكنها همست لي، أنني يجب أن أبحث تحت فراشها عن ميراثي، ثم أخذها «أنوبيس» إلى مملكته. وإذا كان لديها سر فقد أخذته معها!

انزعج «ونستون بك» للغاية. وويخ نفسه على عدم اهتمامه بمقابلة المرأة العجوز، ومحاولة انتزاع سرّ مكان الكنز منها. الآن، للأسف، فات الأوان! سأل «كا - رع» بغير مبالاة:

- ماذا لديك في هذا الكيس؟
- ميراثي.
- ممّ يتكون؟
- لديّ أربع عشرة لفافة من مخطوطات البردي القديمة.

هتف «ونستون بك» من المفاجأة:

«أربع عشرة لفافة! دعني أراها يا رجل، دعني أراها!

لم يتحرك «كا - رع». قال:

- أنا ذاهب إلي «القاهرة»، هل ستأخذني معك في قاربك؟
- نعم. لكى تتأكد. تعال إلى القارب في الحال..

قال «المصري»:

- هذا أفضل، سيتيح لك ذلك فحص البرديات في وقت فراغك، وتحديد ما إذا كانت تهتمك أم لا.

نهض ببطء ووقف على قدميه وألقى بالكيس على كتفه. سبقه «ونستون بك» بفارغ الصبر إلى المركب. نُسي أمر الحر الخانق، ونُسي موت «حتاتشا» المؤسف. فقط اكتشاف الكنز هو الذي تصدّر المشهد! وبالتأكيد كنز مثل هذا، يتكون من أربع عشرة مخطوطة، يمكن الحصول منه على معلومات تاريخية كثيرة ومهمة.

على ظهر «دهبيته» نظر «ونستون بك» إلى البرديات بذهول. لقد تم الحفاظ على كل واحدة منها بشكل مثالي، وفتحها دون الخوف من التعرّض لخطر التكسير أو التهشم. حالتها غير عادية! سأل «كا - رع»:

- قلت لي أين وجدتها؟
- أسفل فراش جدتي «حتاتشا».

رفع ونستون رأسه لينظر إلى الشاب عن كثب، ثم قال:

- إذًا، لم يمض عليها وقتٌ طويل، أنا متأكد من ذلك!

قال «كا - رع» متجاهلاً:

- ليس لديّ علم بذلك.

قام العالم بفك مخطوطة بعناية، قال وهو يفحصها: «هذه قصيدة للشاعر «بن - تا - ورت» وهي صيغة شعرية لم أرها من قبل! شرع في قراءتها، وسرعان ما صحح «كا - رع» قراءته، وشرح له كيف يجب أن يترجم بشكل صحيح. لمعت عين «ونستون بك»، هذا «المصري» يجيد قراءة الخط الهيروغليفي أفضل منه! قد تكون مساعدته لا تُقدّر بثمن في بعض النواحي فيما بعد، ربما يكون الشاب «المصري» نفسه اكتشافًا رائعًا مثل المخطوطات!

كانت المخطوطة التالية عبارة عن، خطاب وجّهه «أمنحتب الثالث» (23). إلى جنوده عشية غزوه لـ «سوريا». مكتوبة بشكل جميل، ويبدو أنها ستكون إضافة قيّمة إلى أدبيات القرن الخامس عشر قبل المسيح.

حتى وقت متأخر من الليل، ظل «ونستون بك» مُنكبًا على قراءة المخطوطات، وجد في بعضها كنوزًا حقيقية، والبعض الآخر كان أقل في القيمة باستثناء عمرها وجمال

كتاباتِها. ومع ذلك، شكَّلت القوائم الأربع عشرة، مكتبة رائعة من الأدب القديم. أما مُكتشِفُها سعيد الحظ، فقد نام قليلاً في تلك الليلة الحافلة بالأحداث.

قُبيل الفجر، بينما كانت «الدهبية» تنفث بخارها، وتواصل السير في مجرى النهر في طريقها إلى «القاهرة»، كان «كا - رع» يتناول فطوراً لم يتذوقه من قبل، بعد أن نام جيداً على سطح السفينة، كانت رائحة القهوة منعشة، ورقائق البسكوت وقطع الفاكهة جعلت عينيه تشرقان. لكن سلوكه المصري الرزين أثناء تناول الطعام، جعل «ونستون بك» لا يشك لحظةً، بأن ضيفه لم يأكل مثل هذا الطعام الفاخر من قبل!

كان الرجل الإنجليزي سعيداً وراضياً جداً هذا الصباح؛ لدرجة أنه قدم لـ «كا - رع» واحدة من أفضل أنواع السيجار، ومرةً أخرى، تذوق المصري طعاماً فاخراً لم يكن يعرفه حتى الآن.

بينما كانا يستمتعان بتدخين السيجار بهدوء، قال «ونستون بك»:

- هل ستبيع لي هذه المخطوطات؟
 - نعم.
 - سأعطيك في المقابل ألف جنيه. هذا، كما تعلم، يساوي نحو مائة ألف قرش.
- أجرى «كا - رع» حساباً سريعاً برأسه، ثم عقد حاجبيه! أضاف «ونستون بك» سريعاً:
- ربما لا يكون ذلك ثمنًا كافيًا، لكن من ناحية أخرى، قد يكون أكثر من اللازم. ما لم أفحص المخطوطات بعناية ودقة أكثر، لا يمكنني تقييمها بالضبط.

قال المصري عابساً:

- سأقبل عرضك، أنا متأكد أنه عادل، بل وكريم أيضاً. ما يزعجني هو أنني جعلت من نفسي أضحوكة.
- كيف ذلك؟!
- اشتريث فتاةً بالأمس، ودفعت ثلاثة أضعاف قيمتها.

ابتسم «ونستون بك»، قال وهو يضحك:

- لا تدع ذلك يزعجك، قلّة فقط من النساء تستحق الاهتمام، صدقني، وعندما يتعلق الأمر بجنس النساء، غالبًا ما يكون الرجال حمقى!

رد «كا - رع» برزانة:

• كلامك حكيم يا أخي. سأخفي ضيقي من الأمر؛ حتى أنال التعويض يوماً ما.

سأل «ونستون بك» بعد لحظة:

«هل بقيت من «حتاتشا» أي عملات معدنية؟»

قال الآخر:

• ها هي، فقط سبعة!

ابتهج الإنجليزي بشدة عندما رآها وقال:

• سأدفع لك خمسة جنيهاً لكل واحدة منها.

• إذن هي لك.

ثم عرض على الإنجليزي المزهرية ذات الغطاء المعدني، وباعها أيضاً بثمنٍ غالٍ.

سأل «ونستون بك»:

• هل هذا كل شيء؟

• نعم، كل شيء!

• ستكون غنياً يا أخي. هذه عشرة جنيهاً إنجليزية من الذهب، عربوناً لإتمام الصفقة.

بعد وصولنا إلى القاهرة، سأصطحبك إلى المصرف وأقوم بتحويل كامل المبلغ

المستحق إلى حسابك. يمكنك حينئذٍ، أن تسحب من البنك عندما تطلب أموالك بأي

مبالغ تناسبك.

• أشكرك.

أثناء إبحارهم في النهر، لاحظ «كا - رع» ملابس العرب وسراويلهم النظيفة، وقد كانوا ينظرون إلى «القبطي» القذر باحتقار صريح. كما تفحص أيضاً باهتمام، ملابس الرجل الإنجليزي. وعندما رست المركب في «أسيوط»؛ ليتمكن «ونستون بك» من زيارة صديق كان في فترة نقاهة في مستشفى فخم هناك، نزل «كا - رع» إلى الأسواق، وعاد إلى «الدهبية» حاملاً بضائع كثيرة.

في تلك الليلة، استحمَّ في النهر بينما كان الآخرون نائمين، بعد ذلك، أخفى محتويات عمامته خلسةً في كيس من القטיפئة، وربطه حول رقبته. ثم ألقى عباءته القديمة الرثة والعمامة البالية في النهر.

في الصباح، وجدوا «المصري» وقد تغيرت هيئته تمامًا. كان يرتدي قميصًا إنجليزيًا، له ياقة ورابطة عنق، وسروالًا من الكتان الأبيض الفضفاض، مربوطًا عند الكاحلين بتصميم عربي جميل، وفوق هذه الثياب يرتدي عباءة جديدة بيضاء ناصعة، وعلى رأسه طربوش أحمر، وفي قدميه نعال حمراء من «المغرب»، وعلق سلسلة الملوك الضخمة حول رقبته. ووضع بإصبعه خاتم جدته المرصع بجعران «أخت - كا - رع».

اندهش «ونستون بك» ونظر إلى «المصري» بإعجاب، ثم أخذت عينه السلسلة، فأمسك بها لفحص إحدى حلقاتها المصوغة بشكل رائع، وسأل في اندهاش:
من أين حصلت عليها؟

• إنها أيضًا جزء من ميراثي، لكنه إرث لا أجرؤ على التنازل عنه. لأنه سجل الملوك،
• أجدادي، من «ميناء» إلى «أخت - كا - رع»، وشرح معنى المكتوب على السلسلة لـ «ونستون بك»، وساعده في فك رموز بعض النقوش الموجودة على حلقاتها الثقيلة.

صاح العالم، بدهشة كبيرة من روعة ما رآه:

• لكن هذا كنز لا يُقدَّر بثمن!

أجاب الآخر بفخر:

• إنه دليل على صدق كلامي بأنني من دم ملكي، لن أخلعها عن رقبتني ما حييت!

وافقه «ونستون بك» على الفور:

• أنت على حق.

ومنذ تلك اللحظة، تمتع باحترام كبير، بسبب أصله الملكي، وانتسابه لنسل ملوك مصر القدامى.

لم تذكر أي من المخطوطات شيئًا عن «أخت - كا - رع»، لكن الحلقة الأخيرة من السلسلة، نُقش عليها اسم «أخت - كا - رع» تحت لقب «القائد الماهر بين الرجال»، وهكذا أثبت «كا - رع» هويته وأصله بما لا يدع مجالًا للشك. وكذلك كان الجعران، لا خلاف عليه أنه من العصور القديمة، وهذا أيضًا دليل على أن سلفه كان من نسل الملوك. على الفور أصبح الشاب «المصري» شخصًا ذا اعتبار بناءً على هذه الإثباتات.

أصبح «كا - رع» يدخل الآن السجائر الفاخرة، بعد أن اشترى عدة علب من «أسيوط». بالنسبة إليه، هذه هي الرفاهية الأكثر إمتاعًا له في وضعه الجديد.

وصلت «الدهبية» إلى «القاهرة» في صباح اليوم الرابع. أخذ «ونستون بك» عربة حنطور في الحال، واصطحب «كا - رع» إلى البنك، حيث وضع المبلغ المتفق عليه في رصيد الشاب «المصري». حصل «كا - رع» - الذي يكتب اللغة الإنجليزية بخط واضح ودقيق - على دفتر شيكات، وسجّل توقيعه على النحو التالي: الأمير «كا - رع».

استفسر المصرفي:
• ما محل الإقامة؟

كان الجواب:

• لقد وصلت للتو، ولم أجد مكاناً بعد، غداً سأرسل لك عنواني.

قال «ونستون بك»:

• اسمح لي أيضاً أن أعرف عنوانك؛ لأنني يجب أن أقدمك إلى علماء المصريات هنا.

ثم ترك صديقه الجديد؛ ليتجه سريعاً إلى المُتَحَف، هناك سيعرض كنوزه الجديدة على العديد من أصدقائه.

(23) من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، زوجته هي الملكة «تي»، وابنه هو الملك الشهير «أخناتون»، الذي يرى الكثير من علماء المصريات أنه أول من نادى بالتوحيد.

الفصل السابع خطوة نحو الهدف

نزل «كا - رع» إلى القاهرة، يتجول في الشوارع. «القاهرة» هي أعجوبة الرحالة الأكثر روعة. لا يمكن أن تفشل «القاهرة» في إبهار مواطن محدود المعرفة والخبرة. لكن هذا «المصري» يخفي دهشته وانبهاره وإعجابه بـ «القاهرة» تحت قناع التحفظ والرصانة. لا يجب أن يشك أحد أنه بدوي أتى حديثاً من الصحراء! جذبت متاجر الصاغة انتباهه بشكل خاص، وتوقف عدة مرات لتفقد الأحجار الكريمة المعروضة في منافذ المتاجر. بعضها كان عليه السعر، وسأل عن قيمة البعض الآخر. يُقال أنه لا يوجد عاصمة في العالم تحتوي على الكثير من الأحجار الكريمة النادرة والتمينة مثل «القاهرة».

في المساء، عبر جسر إسماعيل باشا العظيم (24). إلى «الجزيرة»، محدقاً في جحافل عربات الحنطور والجمال والسيارات والخيول التي تسير خلف بعضها البعض كالسرب وقت الغروب. في العربات والسيارات كان الركاب سوريون وأتراك وأقباط وعرب، يرتدون الزي الأوروبي التقليدي، باستثناء الطربوش الأحمر السائد في كل مكان. كل هؤلاء الأرستقراطيون تخلوا عن ارتداء العباءة، وقد لاقى ذلك استحسان «كا - رع» الكامل. لم يكن لديه مشكلة في الخروج على العادات القديمة التي نشأ فيها. طالما أن الشعب المهيم في بلده وعصره هم الإنجليز، فيجب تبني عادات الإنجليز وسلوكياتهم من قبل أولئك الذين يرغبون في التنافس معهم في الأهمية.

بعد الكثير من التجول سيراً على أقدامه، وجد أن الركوب أفضل من المشي، أشار لعربة حنطور وعاد فيها عبر الجسر؛ ليتحاشى الغبار والحرارة، وأيضاً الاختلاط بموكب النساء اللواتي يرتدين أزياء جميلة، والرجال الذين يرتدون ملابس أنيقة. حتى يتجنب مقارنة ملابسه الأقل أناقة مع هؤلاء، لكن بالرغم من ذلك، لفتت السلسلة الرائعة على صدره، أنظار بعض الفضوليين.

عند المساء، كانت «القاهرة» مضاءة بالأنوار، والكثير من سكانها متجمعين على الأرصفة أمام المقاهي والمطاعم. اكتشف «كا - رع» فجأة أنه جائع. صرف العربة وجلس على إحدى الطاومات في الهواء الطلق، وطلب المرطبات اللذيذة.

إلى الطاولة التي في مقابله، جلست شابة إنجليزية، في صحبة رجل يبدو على وجهه البلاهة. أثناء تناول الطعام، تفرس «كا - رع» في الفتاة. تلك هي المرة الأولى التي يري فيها فتاة إنجليزية عن قرب. كان ثوبها أنيقاً وجميلاً. لكنها لم تكن سميئة على الإطلاق، مرحة، وتتحدث وتضحك بحرية مطلقة. تتصرف وكأنها على قدم المساواة مع الرجل الذي بجانبها - الذي على الرغم من بلاهته - لا يزال رجلاً! إجمالاً، لم يُعجب «كا - رع» بهذه

الفتاة، على الرغم من كلام جدته، التي أخبرته أن تنشئة وتربية النساء الأوروبيات تغرس بداخلهن أفكارًا غريبة، يجب أن يراعيها في تعامله معهن.

بينما كان يراقب الفتاة الإنجليزية، ارتفع قدر «نفثيس» في نظره كثيرًا! فهي سميحة وغمضة الجسد ولا تثرثر كثيرًا. امتلاك مثل هذه المرأة أمر مرغوب فيه تمامًا، وربما ليس هناك حاجة لدفع ثمن باهظ لها. ومع ذلك، يجب التساهل مع هؤلاء النساء الغربيات المتحدرات الثرثرات، إلى أن ينجز الرجل مهمته. لذلك سيكون من الجيد، البدء على الفور في دراسة أساليبهن.

فجأة، لمس شخص ما كتفه بشكلٍ ودود؛ فزع «كا - رع» وأوماً بغضب. وقف «تادرس» المترجمان إلى جواره مبتسمًا، مهندمًا بشكلٍ رائعٍ أكثر من أي وقت مضى. يتمتع «تادرس» بذكاء كبير. لم يكن مضطرًا لأخذ لفافة البردي الخاصة به إلى المتحف من أجل عرضها للبيع؛ لأنه باعها بالفعل إلى شخصٍ يجمع مثل هذه الآثار، مقابل سعر يتجاوز توقعاته - التي لم تكن بسيطة أبدًا - إجمالًا، حقق صفقة ممتازة، وقد تكون هناك مصالح مادية أخرى سيجنيها من العمل مع مواطنه الريفي البدائي، الذي يؤكد وجوده في «القاهرة» أن لديه أموالاً سيبدوها.

لاحظ «الترجمان» التغيير الواضح في مظهره وسلوكه. لم يعد البدوي السابق، قذرًا بشكلٍ مثير للاشمئزاز، لكنه بدا نظيفًا في مظهره ويرتدي ثوبًا ناصعًا مهندمًا. استبدل بالعمامة القديمة طربوش أحمر جميل، أيضًا النعال الحمراء كانت من نوع مغربي ممتاز. أفضل ما في الأمر، هو هذه السلسلة على صدره، كانت غالية وثقيلة وذات صنعة رائعة. لم يكن «كا - رع» حسن المظهر فحسب، بل حتى أسلوبه بدا محترمًا ومهذبًا.

كل هذا يشير إلى أن الثروة المكتسبة فجأة، التي تركتها «حتاتشا» العجوز الغامضة لحفيدها، أكثر بكثير من لفائف البردي. وعلى الرغم من محاولات «كا - رع» أن يكون كئومًا ومقلًا في حديثه مع الآخرين، فإن تصرفاته تفضحه.

الأجواء في «القاهرة» هذه الأيام راكدة بعض الشيء، فلا يوجد موسم سياحي الآن. لذلك؛ ما زال أمام «الترجمان» وقت فراغ كبير حتى يفك لغز هذه الغنيمة، قبل بدء الموسم السياحي.

أعقب إماعة «كا - رع» الغاضبة ترحيب شديد. كان سعيدًا لرؤية «تادرس»؛ لأنه لم يجد حتى الآن مكانًا للإقامة، وقد أذهلته وأربكته ضخامة المدينة وعظمتها، على الرغم من تظاهره بعكس ذلك.

وافق «الترجمان» على اصطحابه إلى لوكاندة يرتادها الكثير من الأقباط من الطبقة الميسورة إلى حد ما. عندما وصلوا هناك، أوماً مرشد «كا - رع» لصاحب اللوكاندة بطريقة

خاصة، وعلى الفور طالب الرجل زبونه الجديد بضعف السعر المعتاد، وحصل عليه دون جدال؛ لأن «المصري» لم يفهم أنه يتعرض للنصب. كانت الغرفة المخصصة له عبارة عن حجرة تشبه الصندوق، بها أثاث بسيط. لكنها بدت بالنسبة إلى «كا - رع» فاخرة ومريحة. قام بفحص الباب بعناية، وكان سعيدًا أنه مزود بمزلاج قوي بالإضافة إلى قفل ومفتاح.

قال الترجمان:

- الوقت ما زال مبكرًا، نحن بالكاد في أول المساء. سأخذك إلى المسرح لمشاهدة الفتيات الراقصات، وبعد ذلك إلى مكان المراهنات بالمال على لعبة فريدة مثيرة باللونين: الأحمر والأسود. يمكننا بعد ذلك تناول العشاء في مطعم والاستماع إلى فرقة موسيقية رائعة من من العجر المجريين. ما رأيك في ذلك؟

أجاب «كا - رع» ببرود:

- لا أريد شيئًا من كل هذا، أنا ذاهب لأنام. كُنْ هنا تحت طلبي في الساعة السابعة صباحًا!

اندهش «تادرس» من جوابه، قال متجهماً:

- الساعة السابعة باكر جدًا، المدينة كلها نائمة في تلك الساعة!
- متى يستيقظون؟
- حسنًا، المحال التجارية تفتح في نحو الساعة التاسعة.
- إذن، تعال إلي الساعة التاسعة. طابت ليلتك.

كان هذا الطرد المُقنَّع بمثابة خيبة أمل شديدة لك «ترجمان»، ومع ذلك، لم يكن لديه بديل سوى القبول. غريبٌ أن يرفض «كا - رع» الفتيات الراقصات وطاولة اللعب... وما إلى ذلك! لكن ربما كان متعبًا حقًا. يجب ألا يتوقع «تادرس» أنه رجل بريء، هو فقط ما زال في البداية.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، وجد «المصري» قد انتهى من تناول الإفطار وينتظره بفارغ الصبر. قال «كا - رع»:

- خذني إلى أكبر صانع مجوهرات في المدينة.

عقد «الترجمان» حاجبيه، لكنه ابتهج مرةً أخرى، وأخذه إلى متجر من الدرجة الثانية، حيث يضمن عمولته. قال «كا - رع»:

- ليس هنا، لقد رأيت متاجر أفضل بكثير من هذا بالأمس.
- حاول تادرس مرةً أخرى، لكن دون تحقيق نتيجة أفضل؛ لذلك قام بتغيير خُططه، وأخذَه مباشرةً إلى أكبر تاجر مجوهرات، أملاً في أن يحالفه الحظ هذه المرة ويحصل على عمولة مجزية. بعد أن وصلا المتجر، قال:
- الآن، ما الذي تريد أن تفحصه أولاً؟
- لكن «كا - رع» تجاهله، وطلب مقابلة صاحب المتجر على انفراد. وافق الرجل بلطفٍ على المقابلة، وعندما دخل «المصري» غرفة الصائغ الخاصة الفخمة، ترك «تادرس» بالخارج.
- وضع «كا - رع» ياقوتةً رائعةً على طاولة التاجر، رمقها الأخير بكثيرٍ من الإعجاب! قال «المصري»:
- إنها قديمة جداً. أخبرني يا سيدي، هل يوجد صائغ في «القاهرة» يمكنه إعادة تشكيلها على طرازٍ حديث؟
- اعترض الرجل:
- ولكن شيءٌ مُخزٍ جداً العبث بهذه الجوهرة الرائعة، إنها من القَطْع المُرَبَّع المُسَطَّح الذي يصنعه القدماء، والحجر يبدو نقيًا تمامًا ولا تشوبه شائبة. هذه العيّنات نادرة في هذه الأيام. أنصحك ألاّ تعبث بها.
- هز «كا - رع» رأسه ثم قال:
- يجب أن أعيد تشكيلها، وبواسطة أفضل صانع ماهر.
- إذاً ليس غير «فان دير فين» الهولندي يستطيع ذلك، هو يقوم بكل عملي المهم. لكن «فان دير فين» نفسه سوف يجادلك لتتراجع عن العبث بهذه الجوهرة، هو صانع حاذق ويعرف قيمتها جيداً.
- سأل الأمير:
- أين يمكنني أن أجده؟
- إذا كنت مُصرّاً على إعادة تشكيل الحجر، سأعطيك خطاباً لـ «فان دير فين». لا أريد أحد غيره أن يفعل ذلك. هو لديه ثلاثة أبناء جميعهم عمال مهرة، لكن لا أحد يستطيع أن يتفوق على مهارة الأب بالتأكيد!

- كتب خطابه وأعطاه لـ «كا - رع»، ثم التقط الياقوتة مرةً أخرى وفحصها، واقترح عليه بتردُّد:
- إذا كنت تنوي بيعها، يمكنني أن أضمن لك سعرًا مُجزئيًا. لقد أوصاني «الخدوي» (25).
بصنع عقد من الأحجار الكريمة المصرية القديمة، لكن مضى عامان ولم أتمكن من الحصول على أكثر من ثلاثة أحجار، لا يُقارَن أيُّ منها بهذا الحجم أو الجمال. اسمح لي أن أريك.
- فتح أحد الأدرج وعرض الأحجار الثلاثة العتيقة (زمردتان وحجر چمشت واحد).
ابتسم «كا - رع»، ووضع يده في جيبه تحت عباءته، وأخرج خمس ياقوتات أخرى، لكن حجمها أقل قليلًا من تلك التي عرضها عليه التاجر قبلاً. قال:
- قل لي، ما الثمن الذي ستدفعه مقابل هذه الياقوتات؛ لإضافتها في عقد «الخدوي»؟
حاول التاجر إخفاء فرحته واهتمامه قدر المستطاع. ثم قام بفحص الأحجار الكريمة بعناية تحت المجهر، ووزن كل جوهرة على حدة وقال:
- سأعطيك أربعمئة جنية للخمسة.
- هز «كا - رع» كتفيه معترضًا والتقط الياقوتات، وقال:
- هذا قد يكون ثمن الأحجار العادية، لكن عمر هذه الأحجار وقطعها الممتاز، يمنحها قيمةً إضافية. سأبيعها لك بثمانمئة جنية!
- ابتسم التاجر وقال بأدب:
- من السهل تفهّم أنك خبير في الأحجار الكريمة، ولكن ولعك بالآثار، يدفعك إلى المبالغة في تقدير قيمة الياقوت الخاص بك. هيّا! دعنا نُقل ستمائة.
- همَّ «المصري» في جمعها، وقال بحسم:
- لن أتفاوض! ولن أحثك على الشراء. إذا كنت لا تستطيع دفع الثمن المطلوب، فسأحتفظ بالياقوت لنفسِي.
- صاح الجواهرجي:
- انتظر! لا يهم، «الخدوي» يتمنى شيئًا كهذا، ولا بد أن أضحى لأجل إسعاد جلالته!

وبعد أن حاول عبثًا التفاوض معه، كتب شيكًا بالمبلغ المطلوب، فأخذه «كا - رع» ومضى. لقد حقق الجواهرجي صفقة ممتازة. أما «المصري» بكل ذكائه، فلم يكن يعلم أنه مضحوك عليه!

في منزل صائغ الماس، في شارعٍ جانبيٍّ هادئٍ في حي «الموسكي»، أُجرى «كا - رع» مقابلةً طويلةً مع «فان دير فين» وأبنائه الثلاثة. ونتيجة هذه المقابلة هي أن اتفقوا، بعد فحص الماس المعروض عليهم، على تكريس خدماتهم الحصرية للأمير «كا - رع» لمدة عام كامل، يعملون فيه على إعادة تشكيل مجموعته الخاصة من الأحجار الكريمة القديمة.

بعد ذلك أرسل «تادرس» بخطاب إلى «جيرالد ونستون» والمصرفي؛ لإبلاغهم بعنوانه المؤقت، كما وعد. ثم تناول غداءً مفتخرًا ودخن سيجارًا كوبيًا. وفي فترة ما بعد الظهر، ذهب بعد إلحاح «الترجمان»؛ للتسوق في العديد من المتاجر، اشترى بعض الأشياء البسيطة، وعاد مبكرًا إلى الفندق ليجد «ونستون بك» ينتظره بفارغ الصبر!

- يجب أن ترافقني في الحال لرؤية صديقي البروفيسور «دارسي»، الذي أتجادل معه بشأن البرديات الجديدة. هو مهتم جدًا بطريقتك في تفسير المخطوطات، لكنه يطلب دليلًا أفضل على دقتها من الدليل الذي قدمته أنا. هل ستأتي معي؟
- سوف يُسعدني ذلك!

انطلقت بهما العربة إلى منزل أمين المُتَحَف. كانت معرفته بالهيروغليفية ممتازة، ولم يكن يرفض المشاركة في النقاش مع العلماء. في الحقيقة، كانت تفسيراته واضحة ومختصرة؛ لدرجة أنهم كانوا مندهشين وسعداء جدًا.

تناول «المصري» العشاء معهم في غرفة خاصة، حيث لم يستطيعوا التوقف عن النقاش، وكان الوقت متأخرًا في المساء عندما عاد إلى مسكنه المتواضع. قال:

- ابحت لي يا «تادرس» عن منزلٍ مريح، في مكانٍ جيدٍ في المدينة. منزل يشبه مسكن البروفيسور «دارسي».

اعترض «الترجمان»:

- لكن ذلك سيكلفك الكثير من المال!

جاوبه الأمير بغطرسة:

- لا يهّم، سأدفع.

في اليوم التالي، استأجر «تادرس» منزلاً مفروشاً بالقرب من حدائق «الأزبكية»، في مقابل ألف ومائتي قرش شهرياً، وأخذ من «كا - رع» ألفي قرش. انتقل الأمير إلى هناك، وكَرَس نفسه لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع لمتابعة العمل مع «فان دير فين»، وللمحادثات الطويلة مع علماء المصريين، الذين كانوا يقضون فصل الصيف الحار في «القاهرة»، وهم يدرسون مجموعة الآثار القديمة في المتحف الكبير، الذي أسسه «ماسبيرو» في عهد «سعيد باشا».

بانخراطه في الحياة الاجتماعية، وملاحظته لسلوكيات أولئك الذين كان على اتصال بهم، اكتسب «كا - رع» تلميحاً ومكانةً في مجتمع «القاهرة» خلال فترة قصيرة!

في نهاية الشهر، عاد إلى «الفدا»، أخذاً معه «الترجمان». رافقه «تادرس» دون اعتراض؛ لأنه كان يجني أرباحاً كبيرة من صديقه القديم، وقد تفنن في سرقة بمضاعفة المطلوب على نفقات الأمير «كا - رع»!

سافراً معاً بالقطار وعبرا النهر في قارب، ووصلاً في المساء إلى القرية الصغيرة. حمل «تادرس» حقيبة سفر «كا - رع» الكبيرة وسار خلفه كخادم له، بحسب الاتفاق.

وهكذا دخلاً إلى الشارع الضيق في القرية، حيث وقف السكان أمام مداخل منازلهم، يُحدِّقون ويومئنون بذهول عندما رأوا مواطنيهم العائدين.

طلب «كا - رع» من «الترجمان» ترك الأمتعة في مسكنه والبحث عن مكان لنفسه في كوخ «نفرت» العجوز أو كوخ «أمون - كا». ثم مشى إلى حيث كانت «سارة» وأبنتها تنتظرانه. قرص خدي «نفتيس» السمينة، وحسّس على ذراعيها الممتلئتين العاريتين، وقبّل شفتيها، وهو يشعر أنها تتحسن باستمرار وستُخرج الكثير من نساء «القاهرة» بسبب جمالها الفاتن!

استسلمت «نفتيس» لمداعبته بفتور، ولم تلمع عيناها إلا قليلاً عندما اقترب منها «الترجمان»، الذي يرتدي ملابس مبهجة، ووقف يراقب ما يحدث. كان يرتدي سترّة خضراء مطرزة بالذهب، ويبدو أن الفتاة أعجبت بملابسه!

قال «الترجمان» وهو يبرم شاربه:

- لقد بعته لك بثمان بخس يا «كا - رع».
- أنا لا أتفق معك في ذلك!
- سأدفع ضعف الثمن لأستردها.

قال «كا - رع» محذراً:

- الفتاة ليست للبيع. وانظر هنا يا رجل، ابعِد يديك عنها أثناء تواجدك في «الفدا» وإلا سأضطر لقتلك!

أجاب «الترجمان» وهو يدير وجهه:

- لا تحف مطلقًا، أنا أعرف واجباتي، لن يكون من الحكمة الإساءة إلى «كا - رع» الآن!

ارتدت «نفتيس» رداءها اللامع وجلست على ركبتي «كا - رع»، بينما أحضرت والدتها الكعك والحليب. وضع «كا - رع» سلسلة من الخرز على رأس الفتاة، ابتسمت وفرحت بالهدية كثيرًا. أمسكت «سارة» بالسلسلة وأحصت عدد الخرز. كانت زرقاء اللون، وتساوي خمسة قروش، لكن المرأتين فرحتا بها لعدة أيام!

كان الوقت متأخرًا عندما غادر «كا - رع» كوخ «سارة»، قال وهو يغادر:

- في الشتاء، سأتي للفتاة وأخذها إلى «القاهرة»، ثم أعطيك الباقي من أموالك. حتى ذلك الوقت، هذا البقشيش لك.

أعطاهما في يدها قطعة من الذهب - وهي أول قطعة تمتلكها على الإطلاق - وذهب إلى مسكنه.

قالت الأم:

- أنا فخورة بك يا «نفتيس»، لقد جعلتِ كلتيينا ثريتين!

(24). هو حفيد «محمد علي باشا الكبير»، خامس حاكم لمصر من الأسرة العلوية، وقد قام بالعديد من الإصلاحات والتطوير، ليجعل مصر دولة متحضرة على النسق الأوروبي.

(25). خديو، أو خديوي، هو لقب اختص به حكام مصر فقط، عندما كانت تحت الحكم العثماني، حتى عام 1914.

الفصل الثامن مومياء الجَدَّة

عندما غَطَّ كل سكان قرية «الفدا» في نومٍ عميق، أخذ «كا - رع» المصباح والخنجر البرُنْزي من مخبئهما، وزحزح الحجر الموجود في الجدار الخلفي. دلف إلى الكهف، ثم أغلق الحجر خلفه، تقدم في طريقه على طول النفق في باطن الجبل، ثم عبَّر الباب الصخري الدائري إلى المَمَرِ المُقَبَّب، ونزل إلى غرفة المومياوات.

أزال غطاء تابوت مومياء «حتاتشا»، ونفض الغبار بعناية من داخل التابوت. لقد انتهت الأربعاءون يوماً، وقد يستقبل التابوت صاحبه هذه الليلة قبل الصباح.

داخل التابوت المنحوت الرائع، عثر «كا - رع» على حجر أخضر مستطيل، جانباها مستويان ومصقولان، على أحد جانبيه يوجد خرطوش مكتوب بداخله اسم «أخت - كا - رع على



النحو التالي:

إنه حجر الزمرد الذي وعدت «حتاتشا» به القزم «ثابت» مقابل تحنيط جسدها. فحصه بعناية ووضعه في جيبه.. ثرى ماذا سيفعل الجواهرجي إذا رأى هذه القطعة الساحرة!

لكن هذه الفكرة ذكَّرت «كا - رع» بأنه يتسكَّع. على الفور حمل المصباح الخاص به، وذهب إلى تابوت مومياء «أخت - كا - رع»، حيث أزاح قرص الملائخيت إلى الورا، ونزل من خلال الفتحة إلى غرفة الكنز المُخبَّأة أسفلها.

كان أول شيء عمله، هو إجراء جرد دقيق لمحتويات المزهريات الاثنتي عشرة الكبيرة، التي تقف على قواعدها المرمرية. من هذه المزهريات، أخذ عينات مختارة من الزمرد والياقوت الأزرق والماس، وملاً بها عدة أكياس صغيرة من الجلد، كان قد أحضرها مُخبَّأة أسفل ملابسه. ويبدو أنه أخذ ثروةً كبيرةً بهذه الطريقة العشوائية، لكن الكنز كان ضخماً جداً؛ لدرجة أن محتويات المزهريات تبدو كأنها لم تنقص.

في واحدةٍ من الجِرار الكثيرة الموضوعة على أرضية الجرانيت، والتي أُضيفت بلا شك، إلى الكنز في فترة متأخرة جداً، عن تلك التي في زمن «أخت - كا - رع»، وجد «المصري» كمية من اللآلئ بحجم ونوعية تجعلها منقطة النظير، تقريباً بين كنوز العالم. لقد احتوت الجِرة على ربع جالون كامل، وأخذها «كا - رع» كلها. إلا أنه في الوقت الحالي لا يدرك قيمتها، على الرغم من أن «حتاتشا» أخبرته، أن واحدةً من هذه اللآلئ ستكون كافية لفدية مملكة بأكملها!

كانت كمية الأحجار الكريمة التي أخذها بالفعل كبيرة جدًا، لكن «كا - رع» كان جشعًا، قام بفحص محتويات العديد من الجرار والمزهريات، واختار من هنا وهناك كل جوهرة تروق له، بالإضافة إلى اختياره عددًا من المشغولات الذهبية الرائعة. لكنه أجبر أخيرًا، على الاعتراف بأنه أخذ ما يكفي من غرفة الكنز لتلبية أغراضه في الوقت الحالي؛ ولذلك عاد على مَضِي إلى غرفة المومياوات أعلى غرفة الكنز.

عندما أغلق قرص الملاخيت، وقعت عينه على جوهرة غريبة مثبتة في غطاء تابوت مومياء «أخت - كا - رع». كانت الجوهرة محاطة بإطار من الذهب، وتتألأ تحت شعاع ضوء المصباح، بطريقة تميزها من بين آلاف الأحجار الكريمة الأخرى، التي استُخدمت في توابيت مومياوات الملوك الآخرين! هذه الجوهرة الغريبة في البداية كان لها بريق فولاذيٍّ أدكن، والذي تغير بينما كانت عين «كا - رع» تركز عليها إلى البرتقالي الشفاف، ثم إلى خلفية من الأوبال تتخللها أسنة لهب، بعد لحظة تلاشي اللون وتحول إلى الرمادي الباهت، الذي أخذ تدريجيًا مسحة خضراء.

وضع «كا - رع» المصباح جانبًا، ونزع الجوهرة من موضعها بسِنِّ الخِنَجَر الذي في يده، ووضعها بعد ذلك في جيب داخلي مُحَكَم في رداؤه. أثناء قيامه بذلك، انقلب تمثال نصفي ذهبي لـ «إيزيس» كان موضوعًا على تابوت المومياء، وسقط على الأرض. من فتحة أسفل التمثال النصفي، تدرجت مخطوطة صغيرة من ورق البردي. أخذ «كا - رع» هذه أيضًا، وأعاد التمثال النصفي إلى وضعه السابق.

لا بد أن أعصابه كانت من حديد؛ لأن هذا الحادث الغريب لم يروِّعه!

عاد الآن إلى الممر المقبَّب ثم الممر غير الممهَّد، وخرج أخيرًا مع الكنز الذي أخذه معه، إلى الغرفة المتواضعة التي كانت مسكنه السابق. كان الصمت والظلام يسودان في المكان. فقط من حين لآخر، يُسمع نهيق خفيف من حِمَار الأعمى «نيكاو»، وفي بعض الأحيان يُسمع نعيق بعيد لبوم الصحراء. أما أولئك الذين داخل القرية فكانوا غارقين في النوم.

قسَّم «كا - رع» غنيمته بوضع الجزء الأكبر منها في حقيبة سفره، التي أقفلها بأمان. ثم اتَّكأ على الأريكة، وكان على وشك أن يهَيِّئ نفسه للنوم، عندما دُفعت الحصيرة بشدة إلى جانب المدخل، ودخل القَزَم «ثابت».

• أنا هنا، يا أعظم أفراد العائلة المالكة!

جلس «كا - رع» وسأله:

• وجدتي؟

- هنا أيضًا، يا أميري. كم تبدو طبيعية وجميلة «حتاتشا»! سوف تكون مسرورًا، إنه عمل بارع ومثالي، على الرغم من أنني أمتدح صنعة يدي بقول ذلك!
- قاد القزَمُ الجَمَارَ إلى الداخل بينما يتكلم. كانت المومياء على ظهر الحمار، مُدَثَّرَةٌ وموضوعة على لوح مسطح لتثبيتها بشكلٍ مستقيم. تابع «ثابت» بحماس وهو يرفع المومياء ويضعها على الأرض:
- سأريك فقط الوجه.
- قال «كا - رع» على عَجَلٍ:
- لا تُتعب نفسك، سوف أرى جدتي على راحتني لاحقًا. الليل يتناهى. خذ أجرتك واذهب في طريقك.
- سلّم القزَمَ حجر الزمرد، وأعاد إشعال المصباح، بينما كان «ثابت» يفحص الزمردة بعناية شديدة. قال بصوت منخفض:
- نعم، إنه حجر الزمرد الثمين، منقوش عليه خرطوش «آخت - كا - رع»، المجد لـ «أوزوريس»، لقد صار لي أخيرًا! كانت «حتاتشا» امرأة حكيمة، وقد أوفت بوعداها!
- أطفأ «كا - رع» المصباح، لكن القمر كان مضيئًا في تلك الليلة، وقد أرسل بعض أشعته عبر المدخل لتخفيف كآبة الظلام. قال له:
- طابت ليلتك!
- وقف القزم ساكنًا، يفكر بعمق، قال وهو يلقي نظرة سريعة على المومياء:
- أين ستستريح صديقتي العجوز؟
- رد الأمير بفضافة:
- هذا سرّها، وهي وثقت في أنك لا تطرح أسئلة!
- وماذا عنك؟ ألا ترغب في أن تكون مُحَنِّطًا عندما تنتهي حياتك؟
- ضحك «كا - رع» وسأل:
- آه، هل أنت خالد يا «ثابت»؟! هل تتوقع أن تعيش لثحنط كل الأجيال؟ لقد قمت بتحنيط جدتي وجدتي الكبرى. شَعْرُكَ الآن أبيض. اسعد بحياتك وفكر في مستقبلك.

أجاب القزم بهدوء:

• لقد شغل هذا ذهني بالفعل، وداعًا إنن يا أمير السلالة الملكية. لقد فكر أسلافك أولاً في القبر، ثم في الحياة الدنيا. أما أنت، فتنغمس في الحياة بلا تفكير في القبر ولا البعث. هذه هي الموضة الجديدة، نزعة الحضارة الحديثة التي تنسى الموتى وتدفن الراحلين في الأرض، فتتعفن أجسادهم وتتحلل وتتحوّل إلى مجرد تراب. على أيّة حال، هي حياتك وليس حياتي. أتمنى أن يرشدك «أوزوريس» يا أميري!

التفت إلى حماره، وقاد هذا الحيوان الذي يشبه الأشباح إلى الخارج. وقف «كا - رع» ساكنًا، وفي لحظات لم يُعد يسمع صوت خطواتهم. أنزل الحصيرة من أعلى عتبة المدخل، وللمرة الثانية قام بزحزة الحجر في الجدار الخلفي. تحسّس مومياء «حتاتشا»، ورفعها بين ذراعيه، وحملها من خلال الفتحة وأغلق الحجر خلفه. كانت المومياء ثقيلة، وكان يلهث وهو يحملها، توقف لإضاءة مصباحه وواصل طريقه نحو حجرة المومياءات.

لقد مر ما يقرب من ساعة، قبل أن يضع «كا - رع» مومياء جدته - بعد جهْدٍ وعرق - بجانب تابوتها المصمم بعناية. فك الأربطة التي تثبت المومياء باللوح، وبحذرٍ شديدٍ نجح في وضع المومياء داخل التابوت، دون كسر أو خدش. بعد ذلك أزال شرائط الكتّان الخارجية التي غطت الرأس حتى ظهر وجه «حتاتشا» بوضوح، أسفل القناع المُكوّن من ضمادات مشدودة بإحكام. ثم وقف جانبها، ورفع المصباح محددًا طويلًا في ملامح جدته.

تمتم أمام المومياء، لقد وعدتك، وها أنا أكرر قَسَمي لك، لن أظهر أي رحمة لأي فرد من عائلة «اللورد رون»، سألاحق كل فرد منهم، كما يصطاد النمر فريسته ويسحقها، ويذللها أمام أعين كل الناس، أقسم أنه لن يُفَلِت أحدٌ من ثأري، وأن يعلم الجميع في النهاية، أن «حتاتشا» هي مَنْ أهلكتهم. ليكُنْ كذلك باسم «أمون - رع»، إله الشمس الذي أعطاني الوجود، وباسم «أخت - كا - رع»، الذي يجري دمه الآن في عروقي. ليكُنْ السلام على الأرض وفي الحياة الآخرة، أقسم أن مشيئة «حتاتشا» ستُنْفِذ!

كان صوته باردًا ووجهه جامدًا. وضع يده على صدر المومياء وكرر نفس الإشارة التي فعلها عندما كانت «حتاتشا» على فراش الموت. بعد ذلك، رفع غطاء التابوت الثقيل ووضعه في مكانه.

في صباح اليوم التالي، قبّل «كا - رع» الفتاة «نفتيس» وعاد عبر النهر في طريقه إلى «القاهرة». حمل «الترجمان» حقيبة السفر وتذمّر من وزنها. كان مزاجه سيئًا. صحيح أن كسب المال أمر جيد، و«كا - رع» هذا يُعد منجمًا حقيقيًا، لكن لو أدرك «تادرس» أن «نفتيس» ستكون سميئة ومثيرة للغاية هكذا، لكان ليطلب أكثر من

مجرد لفافة بردي حتى يتنازل عنها. صحيح أنه تمكّن - بينما كان سيدها نائمًا - من مقابلة الفتاة خلسةً واحتضانها، لكنه لم يشعر بلذة الامتلاك! علّمه ذلك، أنه يجب على المرء أن يكون حذرًا بشأن بيع الفتيات. هن مثل الإبل التي لم تتم تجربتها، قد تتغير الفتاة وتصير أجمل بشكل غير متوقع!

استحوذت هذه الأفكار على عقل «الترجمان» طوال الطريق إلى «القاهرة». ولكن كانت هناك أشياء أخرى تتطلّب اهتمامه. لقد أعلن الأمير «كا - رع» عزمه على اللحاق بالباخرة التالية، الذاهبة إلى «نابولي»، ثم السفر إلى «باريس» و«لندن». وقد طلب من «تادرس» مرافقته!

وكان جوابه:

- هذا مستحيل! أنا أعمل ترجمانًا في مصر، سيد في مهنتي، مرشد لا نظير له في المعرفة والذكاء والإخلاص في كل الأرض! لكن تأخذني بعيدًا عن بلدي فماذا أكون؟ تأخذني من السائحين المساكين، فماذا سيحلّ بهم؟

قال الأمير ببرود:

- أحتاجك في أوروبا للقيام ببعض الأمور لخدمتي، وهذه الأمور، لن أجرؤ على طلبها من أي شخص آخر؛ لأنك وغد بلا مبادئ، تكذب بسهولة ومن دون تردد. أنت تسرقني بكل سرور، كل يوم تسرقني وأنت في خدمتي، ليس لديك ضمير ولا أخلاق سوى أنك تخاف القانون. لقد درست شخصيتك جيدًا، وأعرف أن تقديري صحيح.

صار «تادرس» في البداية خَجَلًا، ثم متواضعًا، ثم ساخطًا. صرخ بحنق:

- وحقّ كل آلهة مصر، أنا رجل أمين!

أجاب «كا - رع» غير متأثرٍ بكلامه:

- هذا دليل لإصراري على عكس ذلك! الآن، أنا بحاجة إلى وغدٍ لمساعدتي، وأنت الرجل الذي اخترته. استمرّ في ابتزازي إذا أردت، أنا لا أمانع! لكن إذا خدمتني بأمانة في بعض الأمور الدقيقة والحساسة التي سأحتاجها قريبًا، سأجعلك أغني ترجمان في قيد الحياة، حتى يحسدك كل المنافسين في مجالك. لكن من ناحيةٍ أخرى، إذا اخترت أن تخونني، فلن تحتاج إلى ثروة؛ لأن العالم السفلي ليس به تجارة!

فكر «تادرس» في الأمر كثيرًا، ثم قال أخيرًا:

- نحن مصريان، أعداؤك هم أعدائي. الأمر لك وعليّ الطاعة. ألسنت أمير شعبي؟ لماذا أرغب في خيانتك؟
- لأن الحكماء أحياناً يصبحون حمقى. لكن في حالتك أنت، التخلّي عن الحكمة يعني الموت. قد يحاول الآخرون رشوتك بمبالغ تساوي ما أقدمه لك، لكنني وحدي سأفرض وأطبق عقوبة الخيانة. أعتقد أنك ستبقى حكيماً!
- آه، هذا مُؤكّد يا أميري!

هكذا أبحر «كا - رع» من «الإسكندرية»، آخذاً معه الماسات الثمينة، التي أعاد «فان دير فين» تشكيها، واللؤلؤ الرائع الذي لم تره عين إلا عينه، وكنوز «أخت - كا - رع» الثمينة. وتبعه «الترجمان» متواضعا ومطيعا.

الفصل التاسع أنيت

كان «تشارلز كونسينور» - التاسع بين نبلاء عائلة «رُون» - مُحَبَّبًا للغاية، عندما أتى خادمه «لوك»، ووضع ظرفًا أزرق كبيرًا من الحكومة على مكتبه، وتركه أعلى كومة الرسائل اليومية، المرسلة من الدائنين الذين نَفِدَ صبرُهم.

ثروة كبيرة تركها له والده، تبددت مع الزمن في حياة المُجُون والفسق، حتى صار الآن، وهو في سن الشيخوخة، يجد صعوبةً في الحصول على أموال كافية، ثمكَّنه من الحفاظ على مكانة محترمة بين الناس. وقد ساعده باقتدار في تبديدها، ابنه الوحيد، النبيل «روجر كونسينور»، الذي لعب طوال عشرين عامًا ماضية، دوره الكامل في إهدار ثروات الأسرة.

بصرف النظر عن اشتراكهما في التبذير، لم يكن هناك سوى القليل من القواسم المشتركة بين الرجلين. كان الأب متهورًا ومسرّفًا، ولا يفكر في العواقب، ينغمس علنًا في مثل هذه الخلافات التي يحرص معظم الرجال على إخفائها. أما الابن، فكان مُحَفِّظًا ومُتَجَهِّمًا، يتظاهر بأنه رجل محترم، وحصر كل مشاكله بشكلٍ أساسي على طاولة القمار.

لقد رهنا العقارات وباعا كل ما يمكن بيعه. وفي النهاية حدث ما لا مفرَّ منه. وواجه الخراب!

ويبدو في هذه الظروف العصبية، أنه لا يوجد مخرَج من تلك الصعوبات المالية التي يواجهانها. لقد تزوج الابن، للأسف، من زوجة ليس لها أي موارد مادية، على الرغم من أن علاقات عائلتها لا تشوبها شائبة. وأصيبت الزوجة بالمرض منذ ولادة طفلتها، قبل نحو ثمانية عشر عامًا. كل ما فعله لأجلها، هو فقط السماح لها أن تعيش في قصر «لندن» الذي كان نصفه مهدمًا. وقد أهملها زوجها وحماها على حدٍ سواء. كان كلاهما ينظر إليها على أنها عبء وعديمة الجدوى. أكثر من ذلك، لقد استاءا من وجود فتاة صغيرة بريئة في المنزل؛ ولهذا السبب أرسلوا «أنيت» في الثانية عشرة من عمرها؛ لتعيش في مدرسة للبنات، حيث بقيت هناك منسيةً تقريبًا، حتى عامها الثامن عشر. ثم أرسلتها مديرة المدرسة إلى منزلها؛ لأن الرسوم الدراسية لم يتم سدادها.

خرجت «أنيت» لتجد والدتها مُعْتَلَّة ومريضة دائمًا؛ لدرجة أن أسلوب الفتاة المرححة المبهجة، كان يزعج أعصابها. أما والدها الكئيب، فوجدته غير مبال تمامًا، وغير متجاوب معها، لا يهتم بأن يُشعرها بأنها محبوبة ومقبولة في رفقته. لكن العجوز، «اللورد رون» جدّها، كان لا يزال يضعف أمام الوجه الجميل، وكانت «أنيت» جميلة جدًا. علاوة على ذلك، كانت عذراء عفيفة ونقية، وليس هناك من يستطيع الإعجاب بهذه الصفات وتقديرها، أفضل من رجل قضى معظم حياته في مجتمع النساء غير الشريفات مثله! فقرب الفتاة إلى

قلبه، وأحبها، وحاول أن يخفي عنها اكتشاف مدى عدم استحقاقه لمحبتها. أصبح حب حفيدته، هو الحب الوحيد الصادق وغير الأناني في حياته، وساعده بشكل رائع في استعادة جزء من احترامه لنفسه بعد أن فقدته منذ فترة طويلة.

لم تجد «آنيت» صديقًا آخر لها غيره في هذا المكان الكئيب، الذي أصبح الآن منزلها، سرعان ما كرسَتْ نفسها للاهتمام به، وقد كانت ماهرةً بما يكفي - على الرغم من قِلَّة خبرتها في الحياة - لتدرك أن حياته كانت وما زالت. قاسية وفوضوية، وتخيَّلت أن حبَّه الكبير لها، سيكون له تأثير سوف يستعيده من هذه الحياة. وهو ما حدث بالفعل فيما بعد، ولكن بدرجةٍ محدودة.

كان هناك محاولات في دائرة الأسرة؛ لإخفاء الأمور التي تتعلق بحالة مواردهم المالية. لكن شجار الأب وابنه علنًا حول اقتسام الأموال القليلة، التي يمكن جمعها من العقارات المرهونة بالديون، جعل الفتاة لا تستغرق وقتًا طويلًا في إدراك الصعوبات التي يواجهانها. فإذا لم يكن للنبييل «روجر» مال يقامر به، يصبح لا يُطاق ويتصرف بصورة وحشية. وإذا لم يستطع «اللورد رون» تناول العشاء في ملهى فاخر وتسلية نفسه بعد ذلك، يصبح عصبياً ومُسيئًا لكل من يتعامل معه - باستثناء حفيدته فقط - كانت نفقات المنزل تُضاف على حساب الديون، وأجور الخدم متأخرة جدًا.

وهكذا، عندما كانت أحوال الأسرة على حافة الانهيار، وصل ذاك الظرف الأزرق الكبير، الذي يحمل طابع الحكومة، وتلاشت بسببه جميع صعوباتهم المادية مثل السحرا!

هذا، لأنه تم حديثًا تعيين وزير جديد في مجلس الوزراء - وهو رجل كان «اللورد رون» لديه بعض الأسباب لاعتباره عدوًا وليس صديقًا -، هذا الرجل، اهتمَّ لسببٍ مفاجئ وغير معروف بعائلة «رون»! وكانت النتيجة منصبًا دبلوماسيًا له في مصر تحت إشراف «اللورد كرومر»⁽²⁶⁾، ومنصبًا آخر لابنه «روجر» في دائرة المالية المصرية. كانت التعيينات مُجزية ماديًا ومُشرِّفة في المكانة الاجتماعية، وتدل على ثقة الحكومة الكاملة في الأب والابن على حدِّ سواء.

اندهش «اللورد رون» إذ لم يكن يجرؤ أبدًا على مطالبة صديقه الوزير بمثل هذه الوظيفة، وكان من الصعب تصديق هذا التكريم المفاجيء، الذي أتى في وقته، لينقذ اسمه وثروته من الخراب والعار!

قَبْل التعيين بسرور، وفرح باحتمالية وصوله «القاهرة» في فصل الشتاء. شاركه «روجر» ابنه هذه الفرحة العارمة؛ لأنه توقع أن تكون المقامرة في المدينة الشرقية، أكثر روعةً من تلك الموجودة في «لندن»، حيث بدأ الناس يتضايقون عندما يدخل صالة القمار. أما زوجته، فكانت تأمل أن يفيد الطقس في مصر صحتها المعتلة. رحبت «آنيت» أيضًا بأي تغيير ينتشلهم من هذه الحالة الرهيبة التي عاشوا فيها مؤخرًا. قالت بجديّة:

• جَدِّي، لقد منحت ملكتنا الكريمة مناصب مهمّة لك ولوالدي، وهذا دليل على ثقّتها الكبيرة. أنا متأكّدة من أنك ستؤدّي واجبك بإخلاص، وستشرّف اسم العائلة النبيلة. لكنني أخاف على أبي. هل تعدّني بمنعه من لعب القمار، وأن تحثّه على أن يعيش حياة شريفة؟

• لا تقولي هذا الهراء يا صغيرتي! أنا متأكّد من أن «روجر» سيُحسن التصرف، سيكون لديه مسؤوليات مهمة تشغله. وزير المالية سيُبقيه مشغولاً. لا تخافي مطلقاً، لن يكون لديه وقت ولا ميل للحماقة. لا تقلقي يا صغيرتي. سيتغير وضعنا المادي. سنكون الآن قادرين على دفع أجر الجرّار والخبّاز وصانع الشمعدان، وليس هناك شك في أن عائلة «كونسينور» سوف تصبح فخر الأمة سريعاً. قولي لـ «لوك» أن يحضر البراندي والصودا عند خروجك يا صغيرتي. وتذكّري أننا سنغادر «لندن» في الرابع من أكتوبر، ويجب أن تكوني أنت ووالدتك على استعداد للمغادرة على الفور. أنا أعتد عليك يا «أنيت».

قبّلته وذهبت دون تعليق آخر، وهي تشعر بإحباط؛ لأن لا أحد يلتفت إلى مخاوفها وتحذيراتها.

بعد أن اختلى «اللورد رون» بنفسه، عاد يتساءل من جديد عن سبب هذه الفرصة التي يدين بها لحسن الحظ. ولم يكن هناك جواب على تساؤله حتى الآن!

لقد كانت مسألة معقدة بالفعل. لذلك؛ فلا عجب أن اللورد العجوز فشل في فهمها.

منذ سنين عديدة، كان الوزير و«اللورد رون» صديقين حميمين. حتى وقع الأول في حب أميرة مصرية شابة بجنون، وسعى لطلب يدها للزواج. كان «اللورد رون» أيضاً مغرماً بـ «حتاتشا» الجميلة، وذهب إلى حدّ طلب الطلاق من زوجته، حتى يتزوجها. اختارته الأميرة المصرية الجميلة، التي لم تكن على دراية بالعادات والتقاليد الأوروبية. انخدعت بحماسة «رون» الجارفة، واختارته من بين جميع المعجبين، ولم تأبه للحب الصادق الذي يُكثّنه لها صديق «رون». سقطت دون وعي في الفخ الذي نُصب لها، وأصبحت عشيقة الرجل الذي وعدّها بالزواج. ومع ذلك، سئم «رون» من فريسته السهلة وتركها بلا مبالاة، على الرغم من السماح له بالطلاق، الذي طلبه بناءً على مزاعم كاذبة، وكان له الحرية في الزواج من منها إذا رغب في ذلك!

عندئذ، هربت «حتاتشا» من «لندن» لإخفاء عارها وعادت إلى مصر. كانت كل «لندن» ساخطة على تصرف «رون» في ذلك الوقت، ولم يكن هناك أحد أكثر غضباً من صديق «رون» السابق. لقد بحث في كل مكان عن الأميرة المصرية، وعند عودته، بعدما فشل في العثور عليها، تشاجر مع «رون» وكاد يقتله لولا تدخل الأصدقاء.

لقد داوى الوقت كل هذه الجراح القديمة، على الرغم من أن الكراهية بين الرجلين ستستمر حتى القبر. كان الخائن «رون» غير مبالٍ بانتقاد المجتمع، ولديه من المال ما يكفي لتحدي الجميع. أما الرجل الذي أحب بصدق حقًا، فتحطم قلبه، ومنذ ذلك الوقت تجنّب كل المجتمع وخاصةً جنس النساء. وبدلاً من ذلك، انغمس في السياسة، وحقق في هذا المجال مجداً وشهرةً واسعة، حتى أصبح عضواً في حكومة جلالة الملكة، واحتلّ المرتبة الثانية في السلطة بعد رئيس الوزراء نفسه.

ولكي يصل إليه الأمير «كا - رع»، كان عليه فقط استخدام الاسم السحري «حتاتشا»؛ لترتيب مقابلة سرّية مع الرجل العظيم في الدولة. وبالفعل استمع بهدوء لـ «كا - رع» بينما كان يطالب بالانتقام لخيانة جدته.

قال الوزير:

- في إنجلترا لا يوجد ثأر. والغضب الذي راعيته بداخلي منذ ثلاثين عامًا، عندما كان قلبي يُعْتَصِر من الألم، أنهى نفسه بنفسه منذ فترة طويلة. الوقت يعالج هذه الجراح القديمة دون تدخل بشري. «رون» اليوم على وشك الانهيار، ابنه الوحيد مدمن على المقامرة. نسلهم أوشك على الزوال، وسيذهب عشيق «حتاتشا» المُخادِع إلى القبر يتبعه الخزي والعار. ألا يكفي كل ذلك؟

أجابه الأمير «كا - رع» برباطة جأش:

- لا مساومة على الأمر بأي حال من الأحوال! يجب أن يُجبروا على المعاناة كما عانت جدتي، ولكن بمزيدٍ من الألم، مقابل السنوات التي انقضت دون عقاب. هذه كانت إرادتها، رغبتها طوال حياتها البائسة. هل ستحرم صديقتك القديمة من حقها في الانتقام؟

اجتاح الاستياء قلب الرجل. السنوات قد تداوى الجراح. ولكن إذا كان الجرح عميقًا، تبقى نُذْبُته للأبد.

سأله:

- وما المطلوب مني؟

فكر «كا - رع» لبعض الوقت وعيناه مثبتتان نحو الأرض. ثم سأله أخيرًا:

- ألا توجد نساء في عائلة «اللورد رون»؟
- هناك اثنتان على ما أعتقد، زوجة ابنه، وهي مريضة، وحفيده.

- بدا على «كا - رع» تعجّب يبعث على الرضا والانتصار! مرةً أخرى عاد «المصري» يفكر، ونفدَ صبر الوزير عندما تحدث زائره الغريب أخيرًا:
- سيدي، أنت تسألني عما يمكنك فعله لمساعدتي. سأخبرك. توفير منصب دبلوماسي «للورد رون» في «القاهرة» تحت إشراف «اللورد كرومر»، وأيضًا وظيفة لائقة لابنه. هكذا ستنتقل العائلة بأكملها إلى مصر (بلدي).
 - حسنًا، ثم؟
 - لا يوجد ثأر في «لندن». والجرائم التي لم يُطبق القانون فيها تمرُّ دون عقاب. لكن في مصر نحن أبناء الطبيعة. لا يوجد تحضُّر زائف يخفي أخطاءنا أو ينكر حقنا في حماية شرفنا. أناشدك يا سيدي، إذا كنت حقًا تحترم وتقدر ذكرى «حتاتشا» المسكينة، أن ترسل «اللورد رون» وعائلته إلى مصر.

قال الوزير باقتضاب:

- حسنًا، سأفعل!

وهكذا تذكّرت الحكومة «اللورد رون» العجوز، وكذلك ابنه المُدلل «روجر كونسينور»، وأرسلتهما إلى مصر في مهمّة ثقة.

(26). عمل أول مرة في مصر مندوبًا لصندوق الدين المصري، ثم مندوبًا ساميًا، ومعتمدًا لبريطانيا، بعد احتلالها لمصر.

الفصل العاشر حفل استقبال «اللوزد كرومر»

كان من الطبيعي أن يسعى «اللورد كرومر»، مع ولائه الشديد لحكومة بلاده، إلى إظهار كل التكريم لمن حصلوا على ثقة جلاله الملكة. لذا؛ أقام مأدبة عشاء فاخرة لـ «اللورد رون» وعائلته، تبعها حفل استقبال، حضره تقريباً كل الشخصيات المهمة في «القاهرة» في ذلك الوقت.

في العشاء، تم تقديم «جيرالد ونستون» إلى «آنيت كونسينور»، وكان من حُسن حظها، أن يتم اختياره لمرافقتها إلى الطاولة. لقد فازت بإعجاب الرجل الإنجليزي من النظرة الأولى، بسبب عينيها الصافية البريئة، وكان سعيداً عندما وجد أنها تتحدث بتلقائية وذكاء حول الموضوعات التي تهتمها!

يعرف «جيرالد ونستون» بعض الأمور المثارة حول سمعة «اللورد رون» في «لندن»، لا يتذكر مغامراته مع الأميرة المصرية في شبابه فحسب، لكن أيضاً شائعات عن العديد من المغامرات الأخيرة، التي كانت بغيضة بشكل واضح. لقد سمع أيضاً همساً بشأن ابنه، الذي أدت تصرفاته إلى تشويه سمعة العائلة أكثر مما هي عليه. لكن لا أحد يستطيع أن ينظر في عيون «آنيت» البريئة دون أن يقتنع بأنها بريئة من خطايا آبائها.

برأها «ونستون» على الفور من أي تلوث محتمل من هذه العائلة، سعيداً بفكرة أن الفتاة الإنجليزية غير واعية بسمعة عائلتها. ومع ذلك، بينما كان يستمع بشغفٍ إلى ثرثرتها البريئة، صدمته فكرةً متناقضة، خطرت على باله فجأة، جعلته يعبس بشكلٍ لا إرادي! لقد تذكر أنها ابنة خال ذلك «المصري» القذر، الذي اكتشفه مؤخراً تحت نخيل جبل «أبو الفدا»، والذي اكتشف بعد ذلك، أنه منذ ذلك الحين، يتقدم في تطور غريب، حتى أصبح الأمير «كا - رع»!

تذكر أن، «اللورد رون» جدهما هما الاثنان! يا إلهي! لكن ذلك لم يكن خطأ «آنيت»، ربما لن تعرف أبداً بأمر العلاقة غير الشرعية لجدها في الماضي. لكن معرفته هو بالحقيقة، جعلته قليلاً من أجلها، وبدأ يتمنى لو لم يُسمح لها أبداً أن تطأ قدمها مصر.

لكنها ها هنا الآن، وعلى ما يبدو كانت سعيدة للغاية!

بدأت حديثها معه:

- ربما أكون مخطئةً في تقديري لـ «كليوباترا» (27)، ولكن يبدو أن النقوش على معبد «ندرة»، تُثبت أنها كانت متدينة وراقية إلى حدٍّ ما. ربما تكون رواية «شكسبير» الرومانسية لـ «أنطونيوس» (28). و«كليوباترا»، هي التي سمّمت عقولنا فيما يتعلق بشخصية المرأة النبيلة!
- هل زرتِ «ندرة» من قبل؟ وهل يمكنك قراءة النقوش؟

أجابت ضاحكة:

- لم أذهب في مصر أبعد من «القاهرة» يا سيد «ونستون». لذلك فإن معرفتي بالمعابد تقتصر على ما قرأته. لكن في مدرستي كانت هناك معلمة مولعة بعلم المِصْرِيَّات، وكانت تجمع حولها مجموعةً من الفتيات، اللواتي لديهن شغف مماثل للموضوع. لقد قرأنا كل ما يمكننا الحصول عليه كي يساعدنا في دراستنا. ولا تسخر مني يا سيدي! يمكنني حتى كتابة الهيروغليفية قليلاً!

قال مبتسماً:

- هذا بسيط للغاية، ولكن هل يمكنك فكُّ رموز وعلامات اللغة المصرية القديمة وترجمتها؟
- بالطبع لا، الكثير من العلامات قد تعني أشياء كثيرة مختلفة، ومن المستحيل تحديد ما إذا كان النقش يبدأ في القراءة من اليمين إلى اليسار، أو في المنتصف، أو لأعلى أو لأسفل!
- قد يُحير هذا باحثين أكثر خبرةً منك، يا آنسة «كونسينور»، في الواقع، أنا أعرف رجلاً واحداً، ما زال في قيد الحياة، يقرأ الخط الهيروغليفي بطلاقة.

سألت باهتمام شديد:

- ومن هذا؟

عَضَّ شَفِيته، وراح يلوم نفسه على زَلَّة لسانه الطائشة. لم يكن مُضطراً لذكر «كا - رع» بالاسم أمام الفتاة!

أجاب مراوغةً:

- مواطن التقيته مؤخرًا. لكن أخبريني، ألن تقومي برحلة في النيل؟
- أَمَلُ ذلك عندما يكون جدي لديه الوقت ليصطحبني، لكنه يقول إن واجباته الجديدة ستتطلب كل اهتمامه الحالي، وللأسف كلها مرتبطة بالأعمال الجديدة في «الدلتا» وليس «صعيد» مصر.

- أقلت نظرةً خاطفةً على «اللورد رون»، الذي كان يتحدث مع اثنين من الشخصيات المرموقة، وكانت عيناه تتابعانها. ثم أردفت:
- لكن ألا تخبرني شيئًا عن تجاربك الخاصة في بلاد النيل؟ قيل لي أنك مكتشف عظيم للغاية، وقد اكتشفت مؤخرًا عددًا من البرديات القديمة التي لا تُقدر بثمن!

ردّ «ونستون» بتواضع:

- إنها مثيرة للاهتمام حقًا، لكنها ليست استثنائية لدرجة أنها تستحق اهتمامك. في الواقع «آنسة كونسينور»، على الرغم من أنني أمضيت سنوات عديدة في مصر، وانخرطت في استكشافات مهمة، لا يمكنني الادّعاء بأنني أضفت الكثير إلى الكنوز الهائلة المُكتشفة.

أجابته بإصرار:

- لكن جلالة «الخدّيو» منحك لقب بك!

ضحك على سجيّته وتكلم من دون تكلف:

- هذه الطريقة يستخدمها «الخدّيو» لمكافأة أولئك، الذين ينفقون أموالهم لجعل تاريخ بلاده القديم مشهورًا، البكوات موجودون بوفرة في مصر كما هو الحال في فرنسا.
- أنا متأكدة من أنك قمت ببعض الاكتشافات المهمة. البرديات الرائعة، على سبيل المثال، أين وجدتها؟
- اشتريتها بالمال يا «آنسة كونسينور».

بدت مُحبّطة، لكنها أردفت بحماس بعد لحظة:

- على الأقل أنت من اكتشف حجرة الولادة في «كوم أمبو». لقد قرأت مقالتك بخصوص ذلك في مجلة «Saturday Review».
- إذن أنت تعرفين كل شيء عن الأمر، ولكن اسمعي، تقريبيًا «ماسبيرو» العظيم نفسه، الرجل الذي قدم لمصر أكثر مما فعلنا نحن علماء المصريين مجتمعين. أليس هو العالم العظيم؟ اسمحي لي أن أخبرك بشيء من أهم أعماله...

كان هذا موضوعًا يمكنه التحدّث فيه بطلاقةٍ وحماسة، وكانت هي تستمع إليه بانتباهٍ شديد.

بعد العشاء ذهبوا إلى القاعة الكبرى بالقصر؛ للمشاركة في حفل الاستقبال. سرعان ما رحب «اللورد كرومر» بضيوفه وقدمهم إلى «اللورد رون» وابنه والآنسة «آنييت

كونسينور».

أصيب «جيرالد ونستون» - الذي كان يقف على مسافة من الجمع - بقشعريرة لا إرادية عندما رأى الأمير «كا - رع» يتقدم.

حيًا «اللورد رون» الشاب المصري «كا - رع» بنفس القدر من الود، الذي منحه بشكل متساو لضيوف مُضيفه الآخرين. ولم لا؟ فقط «ونستون» الذي كان ملتزمًا الصمت في الخلفية، يعرف علاقتهما، باستثناء «كا - رع».

نعم، هو أيضًا يعرف «اللورد رون» لقد أخبره بهذا في ذلك اليوم، تحت نخيل جبل «أبو الفدا». ولكن الآن سلوكه حذر ومهذب، ووجهه جامد وغامض!

ابتسمت «آنيت» للمصري الوسيم وهو يمرُّ من أمامها ببطءٍ ليعطي مكانًا للآخرين الذين بعده.

ارتدى «كا - رع» - الذي أصبح الآن يختار ملابسه حسب الموضة الأوروبية - ملابس تقليدية مناسبة للحفل. لكنه تميز بالسلسلة الضخمة التي تتدلى من رقبتة، بالإضافة إلى جوهرة فريدة كان يضعها في إصبع يده اليسرى. لم يكن لها لون واحد واضح، لكنها جذبت كل العيون، كما لو كانت تمتلك قوة مغناطيسية لا تُقاوم. لم يرها أحد كما يراها الآخر، فقد يراها أحدهم باللون الأزرق، والآخر باللون الرمادي، والثالث باللون البني، وغيره باللون الأخضر. لكن الجميع اتفقوا على أن لها بريقًا غريبًا ورائعًا، وأكدوا أنها تشعُّ ألسنة صغيرة تشبه اللهب. كانت هذه، هي الجوهرة التي التقطها «كا - رع» من تابوت «أخت - كا - رع».

في وقتٍ لاحقٍ من المساء، وجد «المصري» فرصةً لتبادلٍ حديثٍ قصيرٍ مع «آنيت»، التي من الواضح أنها انجذبت إلى مظهر هذا المواطن المتميز. رأى فضولها نحو سلسلة الملوك، فشرح لها بفخر، وقرأ بعض النقوش على الحلقات. ثم قال:

- يُسعدني عندما تُتاح الفرصة، أن أشرح لك نقوش كل الحلقات؛ لأن تاريخ الملوك العظماء، منذ الأسرات الأولى منقوش عليها بشكل مكثف. لا يوجد مثل هذا السجل التاريخي في الوجود!
- يسعدني ذلك، يجب أن تشرفني بمكالمة يا أمير «كا - رع»؛ لأنني عالمةٌ مصريات متحمسة، رغم أنني جاهلة للغاية!

قال «كا - رع» وهو ينحني لها احترامًا:

- أشكرك! سأقدّر امتياز شرح هذا التاريخ العظيم لك. بلدي لديها تاريخ رائع، والكثير منه لم تتم طباعته بعد في الكتب!

بعد ذلك بوقتٍ قصير، غادر حفل الاستقبال، على الرغم من، أن العديد من النساء كُنَّ يتمنَّين أن يبقى ليحتفين به. لقد اشتهر في العاصمة بأنه «المصري الأخير» من نسل ملوك مصر القدماء. ورغم تشكُّك البعض في صدق هذا الادِّعاء، فإن سكان موطنه الأصليين، الذين يعرفون نسبه، كانوا يؤيدون ذلك، بجانب الدعاية الكبيرة من قِبل «تادرس» المترجمان، علاوة على ذلك، الثروة الهائلة التي اشتهر الأمير بامتلاكها؛ كل هذه الأمور أسهمت في جعله الشخصية الأكثر إثارةً للاهتمام في المجتمع القاهري. ومن المؤكد أنه لو كان يود البقاء في حفل استقبال «اللورد كرومر»، لبقِيَ دون أي انتقاص في الحفاوة به، لكن هدفه من حضور الحفل قد اكتمل.

غادر الجمع، ووجد عربته تنتظره في الممرّ. قال بالقبطية:
• إلى المنزل.

أوماً «الترجمان» بسرورٍ وقفز إلى العربة. لقد تمت المهمة في صمتٍ بنجاح كبيراً!

أثناء ذلك، انضم «ونستون» مجدداً للحديث مع «أنيت»، ووجد لها مقعداً في زاوية هادئة، حيث يمكنهما الحديث دون إزعاج. لقد راقب «كا - رع» بقلق بينما كان يخاطب الفتاة الإنجليزية، وهو الآن ينوي في داخله مقاومة أي انطباع إيجابي، قد يتركه هذا الأمير في عقلها البسيط.

لكن لماذا يهتمُّ بهذه الشابة بشكلٍ غريبٍ لا يجد له تفسيراً؟! لقد ابتسمت العديد من النساء اللطيفات لـ «جيرالد ونستون» دون أن يخفق قلبه لواحدة منهن. بل إن بعضهن حاولن إغواءه والفوز بحبه؛ لأن الشاب الإنجليزي كان حسن المظهر وثريراً بما يكفي لاعتباره صيداً ثميناً. لكنه كان على يقين أنه سيسأم هؤلاء النساء العصريات مع الوقت، وهنا في مصر لم يلتق إلا بنساء إنجلترا وأمريكا، اللواتي ليس لهن اهتمام سوى بالجمال والموضة، أو النساء المصريات اللواتي لا يتمتعن بالجمال، ولا بأي نقاط قوة لإثارة اهتمام أي أوروبي!

لكن «أنيت كونسينور» بدت مختلفةً عن الأخريات. ليس لأنها كانت عذبة وصغيرة ورقيقة؛ لأنه رأى فتياتٍ لطيفاتٍ من قبل، ليس لأنها كانت جميلة؛ لأن العديد من النساء لديهن نعمة الجمال التي يُحسدن عليها، ليس لأنها كانت كريمة وذكية، وذات سحر رائع، على الرغم من أن ذلك مهم للغاية للفوز بقلب الرجل. ربما، أهم من كل شيء، كان صدقها، والبريق الذي يسطع من أعماق عينيها الرائعة، هذه هي التي شكَّلت جاذبيتها الأساسية. العيون الجميلة، هي التي أثارت إعجابه في البداية، ويبدو أنها ستحتفظ بسلطانها عليه حتى النهاية!

وأغرب ما شغل تفكيره وهو جالس يتحدث معها بسرور، هي حقيقة أنها حفيدة «اللورد رون» وابنة «الكونسينور». لكنه تذكَّرَ حكمةً قالها له «كا - رع» ذات مرة:

«الأب لا يورث ابنه إلا القليل؛ ولهذا، ليس هناك فرصة لتلويث النسب، مهما كانت الظروف سانحةً لحدوث ذلك».

ربما صار هذا الكلام أكثر منطقيةً الآن بالنسبة إليه، عندما اهتم هو بتصديقه.

ثم أتى الحديث على ذكر الأمير «كا - رع» وسألته «آيت» هل يعرفه أم لا؟

أجاب:

• نعم. أنا من اكتشفه. «كا - رع» هو أحد اكتشافاتي النادرة!

سألت بحماس:

• وأين اكتشفته؟

- في قرية طينية على ضفة النيل، كان يرتدي خرقًا باليةً ومغطى بالتراب. لكنه ذكي جدًا، فقد تلقى تعليمه على يد قرية ماهرة عاشت في العالم يومًا ما. وبطريقة ما، تمكن هو وعائلته، من الوصول إلى كنز قديم، وهكذا أصبح الرجل ثريًا دون أن يعرف كيف يستفيد من ثروته. لقد اشترت أنا كنزه - أو جزءًا منه على الأقل - وأتيت به معي على الباخرة إلى «القاهرة». كان ذكيًا وسريع التكيف مع مجتمعه الجديد. لقد باع المزيد من الكنوز، كما علمت بعد ذلك، وزار «باريس» و«لندن». فقط في غضون ستة أشهر، أصبح ساكن النيل القذر رجلًا عالميًا، وقبلة المجتمع لأنه غني وموهوب. يا لها من قصة مثيرة! وهل حقًا هو من نسل الملوك القدماء؟
- أعتقد ذلك - من جهة والدته - المصريون يتبعون أصولهم فقط من أمهاتهم. ومع ذلك يناقضون أنفسهم، ويتفاخرون بانتمائهم لأبائهم. المرأة المصرية عادةً مسكينة وغير ذكية. وتختلف عن النساء في أي بلد في المنطقة نفسها.
- لا بد أنهن كنَّ مختلفات في الماضي؛ لأنه من غير المنطقي أن تكون أول حضارة حقيقية في العالم قد نشأت من جنس غبي. فكّر في عدد القرون التي تم فيها استعباد هذه النساء المسكينة، أو دفنهنَّ في التراب. أنا أميل إلى الاعتقاد بأن ازدراء بعض المسلمين للمرأة، هو المسئول عن وضعهن الحالي في مصر. هل تجد أيًا منهم ذكيًا أو يقدر المرأة، كما نرى في حضارتنا حاليًا؟

تذكر «ونستون» حثاشا وأجاب:

- لا شك أن هناك استثناءات قليلة، حتى في هذه الأيام، وأنت مُحققة بشأن مكانة المرأة في التاريخ المصري. بجانب «كليوباترا» المسكينة، التي دافعت عنها بشجاعة أثناء العشاء، كانت هناك الملكة «حاتشيسوت» كما تعلمين، والملكة «نيتوكريس» (29). وغيرهن خلدن أنفسهن في التاريخ، هل زرت المتحف أم ليس بعد؟

- فقط جولة سريعة، لكنها كانت كافية لتملأني بالرهبة والاندهاش. وتجعلني أكرّس أيامًا كثيرة لدراسة كنوز هذه الحضارة.
- دعيني أذهب معك، يُسعدني أن أشاهد استمتاعك وشغفك بالأشياء التي أعرفها جيدًا. ويمكنني مساعدتك قليلًا!

قالت الفتاة وهي سعيدة بالاقترح:

- أنت رائع حقًا! سنذهب بعد ظهر الغد، إذا كان وقتك يسمح بذلك.
- هل يمكنني الاتصال بك؟
- إذا سمحت. سأكون جاهزة في تمام الساعة الواحدة، لا بُدَّ أن أحصل على الاستفادة الكاملة من هذه الفرصة.

عاد «جيرالد ونستون» إلى المنزل، مفعمًا بالسعادة بسبب موعد الغد. لم يسبق له أن يفكر في امرأة بعد أن انتهى من الحديث معها. أما اليوم، ففوضى ليلته يحلم، وكان الحلم عن «أنيت».

(27). هي آخر ملوك البطالمة في مصر، وماتت منتحرة بسم الأفعى، بانتهاء حكمها أصبحت مصر ولاية رومانية.

(28). قائد عسكري، ولد في روما، هُزم هو وحليفته «كليوبترا السابعة» في موقعة «أكتيوم». بسقوطهما، انتهت الجمهورية الرومانية، وتحولت لإمبراطورية.

(29). هي ملكة مصرية، يقابل اسمها، باللغة المصرية القديمة، «نيت إقرت» ويُقال إنها آخر ملوك الأسرة السادسة في الدولة القديمة.

الفصل الحادي عشر الوقوع في الفخ!

قضى «كا - رع» أيضًا ليلته يحلم بـ «أنيت»! كانت عيون الفتاة تطارده. لم تفارقه نظرتها المشرقة الشَّعُوفَة، وابتسامتها الجذابة، ورأسها الجميل الذي يتمايل برشاقة أمامه أينما نظر إليها. لعن خيالها العنيد الذي علّق بذهنه، وحاول طرده من رأسه؛ لأنه يعلم جيدًا أن ذلك قد يؤدي إلى نهايته والقضاء عليه.

يعيش «المصري» الآن في قبلاً جميلة على طريق «شبرا»، كانت مملوكة سابقًا لمسئول تركي رفيع المستوى. وكانت القبلاً مؤثثة بأثاث فاخر وأنيق، بها العديد من وسائل الراحة الحديثة، وتحتوي على حديقة جميلة، في الفناء الذي يؤدي إلى بيت الحریم. يشعر «تادرس» الترجمان بالفخر؛ لأن الأمير لا يجرؤ على الوثوق بأحدٍ آخر غيره. وقد مكَّنه تأييد هذه القبلاً من تجميع ثروة كبيرة؛ إذ سمح له «كا - رع» أن ينفق بحرية وبذخ، ولم تمرّ قطع الذهب، التي أنفقت على رفاهية الأمير، من بين يديه دون استفادة!

لقد توقف الآن عن التحسُّر على فقدان سائحيه الأعداء، فحتى عشرات الأمريكيين المسرفين، لن يقدموا له مثل هذه الثروة التي يجنيها من وراء الأمير، ابن بلدته، ولم تأتِ النهاية بعد.

بعد أيام قليلة من حفل الاستقبال، ذهب «كا - رع» لتناول الغداء في نادي «اللوتس»، تقدم الأمير بعد ذلك لمباراة العقيد «قارين» من الجيش الخديوي، في لعب الورق، وخسر مبلغًا كبيرًا. كان «كونسينور» يتابع اللعب باهتمام، وبعد خروج العقيد من اللعبة، اقترح أن ينضمَّ للعب ويتنافس مع «المصري».

وافق «كا - رع» بأدب. لقد كان لاعبًا مهملاً، ولم يُظهر سوى القليل من الحنكة والتركيز، وكانت النتيجة هي خسارته مرةً أخرى، ووجد «كونسينور» نفسه فائزًا بمائة جنيه.

ضحك الأمير بهدوء واعتذر عن مستوى لعبه السيئ. قال:

• في المرة القادمة التي تشرفني فيها باللعب معي، سأحاول اللعب أفضل من ذلك!

ابتسم «كونسينور» وهو يفكر في نفسه، أن عثوره على ضحية من الأثرياء المسرفين، هو في الواقع حظ سعيد ونادر. لقد مَنَى نفسه بتجريد «المصري» عديم الخبرة من أمواله وهو يستمتع أشد استمتاع!

كان نادي «اللوتس» آنذاك، هو المنتجع اليومي للشخصيات المهمة والشهيرة في «القاهرة». لذا انضم «اللورد رون» وال «كونسينور» لعضويته. رغم أن الأول نادرًا ما

يذهب للمكان قبل منتصف الليل، ويشرب زجاجة من النبيذ فقط، عندما لا يكون هناك شيء ممتع للقيام به. يبدو أن «اللورد رون» كان يتصرف بحذر غير عادي منذ وصوله إلى «القاهرة»!

ومهام عمله الرسمية بسيطة. قضى معظم أيامه في «القاهرة» في غرف فندق «الساقوي»، حيث الموقع المؤقت له هو وعائلته، إلى حين يتم تجهيز منزل مناسب لهم.

ثرت «أنيت» وحيدة أغلب الوقت، واضطرت الفتاة إلى الاكتفاء بشعور الرفاهية في هذه الحياة الفندقية العصرية، ورفقة أولئك المعارف القلائل الذين يتواصلون معها. أما بالنسبة إلى الـ «روجر» فهو الآن، كما هو الحال دائماً، خارج دائرة الأسرة تماماً، كان يبدو منتبهاً ومنضبطاً في مكتبه في وزارة المالية، طوال ساعات العمل التي تنتهي في منتصف النهار، بعدها يكون له الحرية في قضاء فترة ما بعد الظهر والمساء في النادي. الزوجة أيضاً ظلت على حالها، لا حول لها ولا قوة، قابضة في غرفتها الخاصة بالفندق، حيث كانت تشغل اثنين من الخدم العرب في خدمتها طوال الوقت.

وعد «كونسينور» ابنته «أنيت» بأنه لن يلمس أوراق اللعب طوال إقامته في مصر، ولكن لأن ليس لديه فكرة عن الالتزام بكلمته، سرعان ما تلاشى وعده! لقد وجد «كا - رع» فريسة لا تقاوم. وكان «كا - رع» يحقق الفوز في بعض الأحيان، لكي يطمئن «كونسينور» حول جديته في اللعب، وفي هذه الحالة، كان «كا - رع» يضاعف الرهان، ويكتسح خُصمه ويجرده من كل مكاسبه.

هذه السياسة المتهورة، أزعجت «كونسينور» في البداية؛ لأنه اعتاد اللعب بحذر، كما كان يمارسه في أندية «لندن». لكنه لاحظ أن «كا - رع» لا ينهض عن الطاولة فائزاً. فبغض النظر عن الشخص الذي يلعب معه، كان خصمه يفوز في النهاية. لهذا السبب؛ لم يكن هناك رجل أكثر شهرة في النادي، أو شخص يسعى الجميع إليه بشغف ليشاركهم اللعب، أكثر من الأمير «كا - رع»، الذي بدت ثروته هائلة لا تنضب، وكان كرمه يُضرب به المثل!

لكن «المصري» الغني، كان يفضل اللعب مع «كونسينور» أكثر من كل الآخرين، وسرعان ما أصبح معروفاً من قبل مرتادي النادي، أن الرجلين يفضلان اللعب معاً، وصار النبيل «روجر» محسوداً في كل مكان، باعتباره الشخص الأكثر حظاً.

ومع ذلك، كان «كا - رع» يشغل نفسه بأمور أخرى غير لعب الورق، خلال الأسابيع التي أعقبت حفل استقبال «اللورد رون». لقد تم تسليم ضحايا كراهية «حتاتشا» إلى شبكته، وأصبح من الضروري الآن أن ينسج خيوطه بإحكام حولهم، بحيث لا يكون

هناك مجال للفكاك. في الحقيقة، العقل الشرقي معقد جدًا. نادرًا ما يؤدي الهدف المطلوب مباشرةً، يفضل التخطيط بمكر وتعقيد مطلق من أجل الوصول للهدف!

واحدة من المسؤوليات القليلة التي يقوم بها «اللورد رون»، هي التحقيق في الدعاوى المرفوعة ضد الحكومة المصرية، من قبل بعض المقاولين البريطانيين، الذين شاركوا في إصلاح قناطر رشيد والقنوات المؤدية إليها. لقد تم بناء هذه القناطر عام 1842، ولكن تم تنفيذها بشكل سيئ؛ لدرجة أنه كانت هناك حاجة لإجراء إصلاحات مهمة وضرورية منذ فترة طويلة. في أحد المواقع، تعاقد مقاول يُدعى «مكفارلاند»، على بناء جسر حجري لمسافة ميلين، على طول حافة القناة؛ لحماية البلاد عند فتح بوابات القناطر.

وجد هذا الرجل، عندما بدأ الحفر، أنه في وقت سابق، تم بالفعل بناء جسر حجري في المكان نفسه، ولكنه لم يكن مرتفعًا بما يكفي ليعمل بكفاءة؛ ولهذا السبب تراكم فوقه طمي النيل واختفى. بعد أن اكتشف «مكفارلاند» أن أكثر من نصف العمل الذي تعاقد عليه قد تم إنجازه بالفعل، أبقى اكتشافه هذا سرًا وشرع في البناء فوق الجسر القديم. ثم قدم فاتورته عن كامل العمل لتتم مراجعتها والموافقة عليها من قبل «رون»، وكان ينوي تحصيلها من الحكومة. وهو الأمر الذي يعني سرقة ثمانية عشر ألف جنيه إسترليني.

علم «كا - رع»، من جواسيسه الذين يتقاضون أجرًا جيدة لمراقبة كل تحركات وأعمال «اللورد رون»، بمؤامرة المقاول، من خلال خيانة أحد رجال «مكفارلاند» نفسه، عندما أفشى سره لصديقه العزيز، وهو تحت تأثير الشراب. لكن كان من الواضح أن «رون» نفسه لم تكن لديه أي شكوك بشأن هذا التلاعب، ومن المرجح أنه سيوافق على صرف الفاتورة دون تردد.

كانت هذه هي الفرصة التي يبحث عنها «المصري». في صباح أحد الأيام، بعد أن تلقى «تادرس» التعليمات جيدًا، حصل على مقابلة خاصة مع «اللورد رون»، وأخبره باكتشافه للخطة الذكية لسرقة الحكومة، التي كان «مكفارلاند» يدبر لها. فوجئ «رون» بالأمر وشكر الرجل، ووعد بفضح عملية النصب.

عندها، أعلن «الترجمان» صراحة:

• يا سيدي، سيكون من الغباء عدم الاستفادة من هذا الموقف! في الحقيقة، الحكومة المصرية تزداد ثراءً، ولديها أموال كثيرة لدفع فاتورة هذا العقد وعشرات مثله. أؤكد لك، أنه لا أحد يعلم بهذا السر إلا أنت وأنا! فهل نحن أغبياء يا سيدي؟ ألا توجد أي عمولات يجب دفعها لك مقابل العيش في بلد الأتراك هذا، أو لي لأبقي أذني

مفتوحتين؟ لا أريد شكرًا، أريد مالًا. سألتزم الصمت إلى الأبد مقابل ألف جنيه.
بالنسبة إلى الباقي، يمكنك ترتيب قسمتك الخاصة مع المقاول!

غضب «رون» وسخط في الحال، عند سماعه هذا الاقتراح الخبيث، مؤكدًا شرف منصبه الرفيع! وهدد «الترجمان» لأنه تجرأ على مثل هذه الإهانة. لكن «تادرس» لم يتأثر.

ثم اقترح، عندما سُمح له بمتابعة حديثه:
• إنها مجرد مسألة عمل، أنا نفسي مصري، لكن المصريين لا يحكمون مصر. ولا أعتقد أن الإنجليز موجودون هنا بدوافع غير أنانية تمامًا! لأكون صريحًا معك، لماذا يجب علينا أنت أو أنا، أن نسعى لحماية الأتراك الحمقى، الذين يتعرضون للسرقة يمينًا ويسارًا؟ في هذه القضية، لا يوجد مخاطرة على الإطلاق؛ لأنه إذا تم اكتشاف سرقة «مكفارلاند»، فلا يمكن لأحد أن يتهمك بشكل صريح بمعرفة الحقيقة حول أمر الجسر القديم. المفتش ذهب الآن إلى هناك للمعاينة. وعند عودته سيقول، إن العمل قد اكتمل حسب العقد. ستوافق أنت علي الفاتورة، وسيدفع «مكفارلاند»، وسأطلب منك بعد ذلك مبلغ ألف جنيه إسترليني. أما اتفاقك مع المقاول، فلا أريد أن أعرف شيئًا عنه ولا شأن لي به. إذًا، المسألة محسومة. يمكنك أن تثق في تقديري، يا سيدي!

ثم ذهب وترك «رون» يدرس اقتراحه.

كان التاريخ المهني للنبييل العجوز يشوبه الكثير من مثل هذه المخالفات؛ لدرجة أن التفكير في هذه القضية التي تبدو بريئة في مظهرها، لم تكن بأي حال من الأحوال مؤذية لحسه الأخلاقي. لقد فكر فقط في ضمان تنفيذها بأمان، وقرر أن خطر التعرض لها كان ضئيلًا.

المعيشة في «القاهرة» مكلفة، وكان يرى أن راتبه أقل من أن يسمح له بالانغماس في جميع الملاهي التي يتوق إليها. ولم تكن فرصة الحصول على مبلغ مُجزٍ محل احتقار، في نهاية الأمر، كان «الترجمان» مُحققًا في قوله، إنه سيكون من حماقة عدم الاستفادة من هذه القضية.

في اليوم التالي، أجرى «كا - رع» مقابلةً شخصية مع المقاول، وأخبره صراحةً، أنه على علم بجميع تفاصيل عملية السرقة. كان «مكفارلاند» خائفًا واحتج بأنه لا ينوي تحصيل الفاتورة التي قدمها.

لكن الأمير طمأنه بسرعة. قال:

- يجب عليك متابعة خططك. لقد فات الأوان لتنسحب الآن. عندما تذهب إلى «رون» سيخبرك أنه اكتشف الحقيقة. سوف تساومه بعد ذلك، وتعرض عليه نصف المبلغ الكامل الذي تنوي سرقة، أو ما يعادل تسعة آلاف جنيه إسترليني. أعطه المزيد، إذا لزم الأمر. وتذكر أن كل قرش ستدفعه له، سأرده لك ثانية، إذا تمكنت من إقناع «اللورد» بتوقيع إيصال لتضعه في يدي!

قال «مكفارلاند» وهو يوميء برأسه:

- لقد فهمت، أنت تريد أن تجعله في قبضة يدك!
- تمامًا، وأنا على استعداد لدفع مبالغ كبيرة لفعل ذلك.
- ولكن عندما تكشفه فإنك تورطني أنا أيضًا!
- لن أفضحه. سيكون مجرد سلاح بالنسبة إليّ لأمسك به، لكن لن أستخدمه أبدًا.
- يمكنك الاعتماد على ذلك. خذ ثمانية عشر ألف جنيهًا واذهب إلى إنجلترا، حيث يمكنك العيش في سلامٍ ورخاء.
- سأفعل. سأغتنم الفرصة!
- لا تفوتها.

وهكذا تفاوض «اللورد رون» بنجاح مع المقاتل، وفاز لنفسه باثني عشر من أصل ثمانية عشر ألف جنيه، مقابل الموافقة على الفاتورة. ودفعت الحكومة الأموال على الفور، وتبع ذلك تقسيم الغنائم؛ طالب «تادرس» بألف جنيه، وكتب إيصالًا يدين به نفسه، إذا تجرأ يومًا على إفشاء السر، وأعطى «رون» أيضًا إيصالًا لـ «مكفارلاند»، على مَض، فقط عندما وجد أن الأمر، لا يمكن ترتيبه بأي طريقة أخرى.

وصل هذا الإيصال ليد «كا - رع». وعاد المقاتل على الفور إلى إنجلترا، وهنأ «اللورد» نفسه سرًا على حظه السعيد، وبدأ يستمتع بأمواله!

أثناء استمرار هذه الكوميديا، وجد «كا - رع» فرصةً للتواصل أكثر من مرة مع «أنيت كونسينور»، التي افتتنت بحديثه اللطيف ومعرفته الاستثنائية بالتاريخ المصري. حتى «ونستون»، الذي التقى بـ «كا - رع» أحيانًا في غرفة استقبال السيدة الشابة، لم يستطع إنكار معرفة الأمير الفائقة والاستثنائية عن تاريخ القدماء، واستمع بشغف، تمامًا مثل «أنيت»، لأحاديث الرجل الممتعة، بينما كان في الوقت ذاته، مستاءً من اهتمام «المصري» بالفتاة.

لم يكن هناك أي سبب يمنع «أنيت» من الإعجاب بالمواطن «المصري» الوسيم، الذي لم تكن جاذبية شخصيته قليلةً بأي حال من الأحوال! كانت تحب أن تجذبه إلى المناقشات حول موضوعاته المفضلة، ومشاهدة عينيه الدُّكاء المتوهجة تلمع وهو يشرح ألغاز الطقوس الكهنوتية من عصر الأسرات المبكرة. مهما كانت تنشئة الرجل

الخشنة، فقد كان يعامل الفتاة الإنجليزية دائمًا بلطفٍ ودمائةٍ نادرة، على الرغم من أن خشونة حديثه، وبعض تلميحاته، كانت تخونه من حين لآخر.

أما «ونستون»، فلم يعد يكره «كا - رع» وحسب، بل ويخاف منه! لم يكن لديه شيء مملوسٌ يدين به «المصري»، إلا أن تجربته مع شخصيته القديمة، دفعته إلى عدم الثقة في الرجل بشكلٍ حديسيّ.

لقد شعر «كا - رع» بلا شك بعدم الثقة هذا، بسبب فتور العلاقة الذي نشأ بين الرجلين، والذي سرعان ما دمر صداقتهما السابقة، وأدركا أنهما أصبحا متنافسين حول مصلحة «أنيت» وربما عواطفها.

ومع ذلك، لم يكن لدى أيٍّ منهما استعداد للانسحاب من المنافسة، ووزعت «أنيت» استحسانها بالتساوي بينهما؛ لأنها لم تكن تفكر في ما هو أبعد من استمتاعها بصحبة الرجلين، لتميّز الصحبة مع كل منهما. لم يكن للفتاة صديقات سوى السيدة الإنجليزية الشابة، التي تقيم في الغرفة الملاصقة لغرفتها، وقد أبدت السيدة «إيقرينجهام» اهتمامًا شديدًا بالفتاة الوحيدة، وكانت سعيدة بمرافقتها في العديد من الرحلات التي كانت «أنيت» محرومةً منها.

كانت الزيارات إلى المُتَحَف مع «ونستون» متكررةً ومثيرة، فقد كان عالم المصريين الشاب الوسيم مرشدًا رائعًا. وفي فترة ما بعد الظهر كان يصطحبها لزيارة الآثار الشهيرة، ثم يجلسان في تراس مطعم «شبرد» لتناول الشاي في الساعة الخامسة، وفي هذا المطعم، كثيرًا ما انضم إليهما «كا - رع».

وكان الأمير قد أحضر سيارةً من «باريس» مع سائق فرنسي ماهر، وفي هذه الآلة الحديثة، قام بالعديد من الرحلات الممتعة إلى «الأهرام» و«مصر الجديدة» و«سقارة» و«حلوان»، وكانت الطرق المصرية شبه مثالية. وانضم «ونستون» والسيدة «إيقرينجهام» دائمًا إلى هذه الرحلات، ولم ينكر أيٌّ منهما أن «كا - رع» كان مُضِيْفًا رائعًا وكريمًا.

الفصل الثاني عشر نفتيس

سارت خطط «كا - رع» حتى الآن بشكل ممتاز، باستثناء واحدة بعينها. لم يكن يرغب في الوقوع في غرام الفتاة، التي من المفترض أن تكون ضحيته، لكنها ألقت تعويذة سحرية قوية عليه منذ البداية، وقد فشلت كل صراعاته السرية في الإفلات منها. مستيقظًا أو نائمًا، كان وجهها دائمًا أمامه، لا يستطيع إبعاده، حتى عندما يقامر مع والدها في النادي.

كان «المصري» ذكيًا بما يكفي لإدراك الخطر في هذه الحالة الاستثنائية؛ مما سبب له الكثير من القلق.

أخيرًا، أثناء يقظته في إحدى الليالي، فكّر في وسيلة للهروب!

في الصباح طلب «الترجمان» وأمره:

- اذهب إلى «الفدا» وأحضِر «نفتيس» هنا. لدي بيت حريم ما زال فارغًا، ستكون هي أول امرأة تشغله.

فوجئ «الترجمان» بهذا الطلب، لقد بدأ يظن أن سيده، أصبح متأثرًا بعادات الأوروبيين وتقاليدهم وثقافتهم، وليس كمسلمي «القاهرة» الذين يُسيئون معاملة النساء! لكن في الوقت ذاته، بدا على وجهه السرور بتلقّي الأمر.

قال بحماسة:

- بكل تأكيد، يا أميري، سأركب أول قطار إلى «الفدا»، وستكون المرأة الجميلة ضمن حريمك في غضون ثلاثة أيام!

فهم «كا - رع» نيات «الترجمان» من كلامه ونبرة صوته. قال بحزم:

- لقد فكرت في الأمر ثانيةً، «تادرس»، سأرسل «عبّادي» بدلًا منك. قد أحتاج إلى خدماتك هنا في «القاهرة».

صرخ «الترجمان» محتجًا:

- عبّادي! هذا العربي العجوز المراوغ! لا، لن يفعل ذلك أبدًا. أنا وحدي أعرف «الفدا»، وأنا وحدي أعرف كيف أتعامل مع «سارة»، وكيف أحضر ابنتها السمينة إليك بأمان. أنا من سيذهب!

- أرسل «عبادي».
 - لا، سأذهب بنفسى إلى «الفدا»!
 - أأست أنا السيد هنا؟!
 - تظن ذلك لأنك غنى. لكن لو أعلم مكان المقابر التي تنهبها، فأنا من سيكون السيد!
 - أنت في خطر كبير أيها «الترجمان» المسكين!
- حدّق «تادرس» على الآخر بتحدّ، لكن عندما وقعت عيناه على نظرة «كا - رع» الباردة، تمتم، مرتبگًا:
- علاوة على ذلك، يجب على الشخص الذي يحضرها أن يدفع لـ «سارة» العجوز مائتين وخمسين قرشًا، باقى مستحققاتها. كان هذا هو العقد، ولن تسمح للفتاة بالمجيء ما لم تأخذ المال.
 - قلت لك أرسل «عبادي»!
- أطاع «الترجمان» مضطرًا. لم يُعجبه أسلوب «كا - رع». لكنه فى الحقيقة، قد يكون فى خطر إذا أصرّ على الاحتجاج. لم يكن أحد متعمقًا فى أسرار سيده الأمير كما كان هو. لكن من يعرف؟ قد يكفي هذا فقط لإخافته!

قام «عبادي» بالمهمة على أكمل وجه. لم يدفع لـ «سارة» مستحققاتها وحسب، بل أعطاها خمس قطع ذهبية فوق الاتفاق، بناءً على تعليمات سيده، وأحضر الفتاة مُحجَّبةً إلى «القاهرة»، وسلّمها إلى مُدبِّرة منزل «كا - رع».

تم تنظيف بيت الحریم وتجهيزه. كان فاخرًا للغاية - حتى بالنسبة إلى سكان «القاهرة» - وكانت «نفتيس» تشعر بالذهول من روعة الغرف المخصصة لاستخدامها. كانت عينها الدكناوان، اللتان تشبهان عيون الحور العين، تتجولان فى الغرفة وهي مستلقية على الأريكة، عاجزة من الدهول عن التفكير أو الكلام!

لم تكن «نفتيس» تتمتع بأي نقاط قوة فى شخصيتها على الإطلاق. لقد أطاعت بخنوع استدعاء سيدها الذي اشتراها. لم تحاول التفكير فيما قد يعنيه ذلك الاستدعاء لها. ما الفائدة؟ هذا هو مصيرها. ربما فى بعض الأحيان كانت تتوقع أن يحدث لها مثل هذا التغيير. عندما ذكر «كا - رع» لوالدتها ذات مرة، إمكانية إرساله لطلبها، لم تفكر فى الأمر على الإطلاق.

وبنفس الطريقة الخائفة التي كانت تحضر بها المياه من النيل، وتعمل على النّول، تبعت «عبادي» العجوز إلى «القاهرة»، تاركةً والدتها لتتها بكز الذهب الذي تمتلكه الآن.

كانت الرحلة عبر النهر تجربة جديدة بالنسبة إليها، والرحلة بالسكك الحديد رائعة وعجيبة، لكنها لم تُظهر أي اهتمام. رأت عيونها الجميلة كل شيء بهدوء، لكن العقل لم يكن نشطًا بما يكفي للتساؤل. لقد سمعت بمثل هذه الأشياء من قبل، وتعرف أنها موجودة. لكن الآن رأتها. رأت «القاهرة» الساحرة، التي تحوي آلاف القباب والمآذن، ورأت شوارعها المختلفة، وأزياءها البراقة، وصخبها الغريب. لكن رؤيتها لكل ذلك أربك حواسها.

كانت مستمتعة حقًا. لكن متعتها كانت حسيّة فقط. فقد لاحظت أن هذا الزيّ مثلاً، أكثر روعةً من زيّ «الترجمان»، وهذا المنزل أفضل من المنزل الذي عاشت فيه «حتاتشا». ولكن بعيدًا عن هذه المقارنات السطحية الملموسة، كان المشهد كله خارج إدراكها وفهمها للأمور.

الجزء الوحيد الذي كانت تلعبه بنفسها على مسرح الأحداث، هو عدم اليقين بشأن مستقبلها القريب، والسبب الذي لأجله اصطحبها الرجل العربي ذو اللحية الرمادية الطويلة إلى «القاهرة»، لقد أخفقت في فهم كل هذه الأمور.

لذلك؛ لم تستطع الفتاة في البداية أن تفهم، عند دخولها إلى بيت حريم «كا - رع» الرائع، أن الرفاهية المحيطة بها، قد تم إعدادها لاستخدامها الخاص. حتى لو كانت قد فهمت هذه الحقيقة، كانت ستظل غير قادرة على تخيل السبب!

استلقت على الوسائد وحدقت بغباء، بطريقة طفولية إلى الستائر والبسط الفاخرة، والطاولات والكراسي المذهبة، والتمائيل الرخامية والنافورة المعطرة في الزاوية، وكأنها تخشى أن يختفي كل ذلك وتستيقظ من الحلم.

كانت قد أحضرت معها حُزمة تحت عباءتها السوداء الدكناء، حُزمة تحتوي على سُترة قطنية وعباءة أخرى لامعة، وإكليل الأزهار الاصطناعية. ووضعت سلسلة الخرزات الزرقاء، التي قدمها لها «كا - رع» ذات مرة حول عنقها، - جميع حبّات الخرز موجودة ما عدا واحدة، نزعته بحرص وأعطتها لأمها في مقابل الحصول على تميمة.

أخذت مُدبرة المنزل، «تيلجا» العجوز، حُزمتها الثمينة بازدراء، وطوّحت بها في إحدى الزاويا، ثم بدأت في نزع ملابسها قطعةً تلو الأخرى؛ خلعت عنها العباءة، واللباس القطني الأسود، والملابس الداخلية الخشنة، ثم حذاء القماش المصنوع في المنزل.

عندما أصبحت عارية تمامًا، قادتها «تيلجا» إلى غرفة مجاورة، حيث تم تجهيز الحمام. استغربت «نفتيس» الأمر لكنها لم تتكلم. وكذلك لم تفعل «تيلجا» العجوز،

مدبرة المنزل. لقد رأت أن الفتاة بحاجة إلى حَكِّ جسمها من الأوساخ، وليس مجرد الاستحمام! لذا حمَّمتها كما لو كانت تُحمَّم طفلًا.

بعدما جففت جسدها الغَضَّ الناعم، دهنته، وعطرتة، ثم قادت «تيلجا» الفتاة إلى غرفة الملابس، وألبستها ملابس داخلية من التبول الحريري، وثوبًا رائعًا تم تثبيته بحزام من القماش الذهبي. وجوارب وردية مريحة على ساقيها السمينتين، وشبشبًا من الساتان الوردي، مشغولًا بخرزٍ فضيٍّ، زَيْنَ قدميها.

ثم مشَّطت الحاجَّة «تيلجا» شعر الفتاة الرائع، ووضعت فراشة مُرَّصَّة بالجواهر على ضفائرها اللامعة.

عندما وقفت «نفتيس» أمام المرآة، بالكاد كانت تصدق أن الصورة المنعكسة فيها هي صورتها. لكن المرأة التي بداخلها ظهرت أخيرًا!

ابتسمت وهي تنظر لنفسها في المرآة، ضحكت بخجلٍ في البداية، ثم غمرتها فرحةٌ عارمة! كان من الممكن أن تبقى لساعات أمام المرآة معجبةً بمنظرها الجميل. لكن «تيلجا» جذبتها من يدها بعيدًا، وأخذتها إلى المخدع (30)، بأثاثه المذهَّب ونافورتها رائعة الجمال.

وبينما كانت تتنعم بين الوسائد، وقعت عيناها على منضدة صغيرة إلى جانبها، كان فوقها مصباح مضيء من البُرُنْز، وعلبة سجائر. سحبت منها واحدةً بلهفة، ونظرت إلى «تيلجا» العجوز تترقب رد فعلها، ثم أشعلت السيجارة من المصباح الصغير، واتكأت على الوسائد وهي تستمتع باستنشاق الدُّخان.

أومات «تيلجا» بالموافقة، وراحت تفحص البضاعة الجديدة - فهي لديها خبرة كبيرة في سوق الحرير - وتعجبت أين استطاع الأمير «كا - رع» أن يجد هذا المخلوق الرائع! بالنسبة إلى الشرقيين، كانت «نفتيس» فائقة الجمال، وحتى بالنسبة إلى الرجال الأوروبيين، لا يمكن أن يروا ملامحها الفريدة، وعينيها المخملية الرائعة دون إعجاب!

الثياب الفاخرة غيَّرت مظهر فتاة النيل تمامًا. وفخامة المكان أبرزت جمالها. بدت كما لو أنها وُلدت لتعيش في بيت الحرير، وقد أعدَّها القدر لهذه التجربة.

بعد ظُهر اليوم الذي وصلت فيه «نفتيس»، كان «كا - رع» في النادي يلعب الورق مع «اللورد كونسينور». كان يفوز طوال الوقت، ووفقًا لطريقته المعتادة، أعلن أنه سيستمر في مضاعفة الرهان حتى يخسر الدور، قال بلا مبالاة:

• أنا لست حريصًا على الفوز بأموالك، يا «كونسينور»، سيتغير الحظ قريبًا بلا شك.

كان «اللورد كونسينور» مضطربًا بشكل واضح. مع كل خبرته السابقة، لم يرَ رجلًا يواصل الفوز بهذه الطريقة! كانت المخاطرة هائلة بالفعل، بسبب طريقة «كا - رع» في مضاعفة الرهانات، وجذب ذلك مجموعة من المتفرجين، الذين كانوا متحمسين مثل المتنافسين تمامًا.

تخطى الوقت العصر، وما زال الأمير يواصل اللعب - والفوز أيضًا - ثم أعلن مضاعفة الرهان لعشرة آلاف جنيه! ارتجف «كونسينور» وبينما ينظر بتركيز إلى جوهرة خاتم الأمير المضاعفة باللهب، قطع الأوراق، ولعب بتركيز قدر المستطاع. لكن حتى هذه المرة فاز «كا - رع» أيضًا!

ألقى «كونسينور» البطاقات على الوجه الأبيض. لأن احتمال وصول الرهان لمبلغ عشرين ألف جنيه، مدمر حقًا، وهذا أكثر مما يمكن أن تتحمله أعصابه. قال بصوت أجش:

• أنا انتهيت يا أمير، لا أريد اللعب!

أجاب «كا - رع» باستخفاف:

• أباه! هذا لا شيء! سنقوم فقط بتأجيل اللعب حتى وقت ملائم أكثر، عندما ينكسر خط الحظ اللعين - الذي يؤسفني أكثر منك - سنعاود من جديد، وستكون لديك فرصة لاستعادة أموالك. وقع لي إيصالًا وسوف أذهب.

سحب «اللورد كونسينور» ورقة، ووقع إيصالًا بيده بقيمة عشرة آلاف جنيه. ووفقًا لقواعد النادي، كان يجب أن يشهد على ذلك عضوان؛ لذا قام العقيد «قارين» و«إرينج فان رودن» بالتوقيع عليه.

قام «كا - رع» بوضع ورقة الإيصال بلا مبالاة في جيبه، لكن بعد لحظات، خطرت على باله فكرة، أخرج ورقة من جيبه ولفّها، أشعلها من لهيب المصباح، ثم أشعل بها سيجاره، وظل يمسك بالورقة بين أصابعه حتى صارت رمادًا. لم يتفوه أحد بكلمة، فقط راقبه الجميع بذهول وهم صامتون! ولم يشك أحد على الإطلاق، أنه استبدل ورقة أخرى بورقة الإيصال. أما «الكونسينور» فقد استرد أنفاسه مرة أخرى وهو يرى الرماد يتطاير على الأرض. قال الأمير:

• يجب أن تكون متعة الفوز كافية لأي رجل! ثم قام عن الطاولة وخرج من الغرفة.

قال الكولونيل «قارين»:

- رغم أن هذا دَيْنٌ شرفي (31)، فإن من حُسن الحظ يا «كونسينور»، أنك كنت تلعب مع الأمير «كا - رع»، وهو صديق ثري جدًا؛ لدرجة أن المال لا يعني شيئًا بالنسبة إليه، ولن يأخذ مكاسبه إلا إذا أجبرته على قبولها!

أجابه «الكونسينور» بتحسّر:

- أعلم ذلك، لكن كان يجب عليّ ألاّ أسمح لأحد بمضاعفة المراهنات. ربما لم يكن عليّ السماح للأمير القيام بذلك!

ثم غادر النادي أيضًا، لأنه على الرغم من كرم «كا - رع» الظاهر في إتلاف الإيصال، دفعت طبيعة «كونسينور» الخبيثة إلى الشك في كل رجل كان يتعامل معه، وكان المبلغ المتورط فيه ضخماً؛ لدرجة أنه سيبتلع ضعف قيمة عقارات والده المرهونة. ومن جهته هو، لم يكن لديه أي شيء على الإطلاق، بخلاف الراتب الذي يتقاضاه من وزارة المالية؛ لذلك أدرك خطورة موقفه، ولم يستطع مقاومة الشعور بأنه قد وقع في فخّ.

أثناء وقت اللعب، لم ينس «تادرس» - كما نسي سيده - أمر وصول «نفتيس» في قطار العصر. كان المفترض أن يبقى في غرفة الانتظار بالنادي، حتى يقرر «كا - رع» الانصراف، لكنه عوضاً عن ذلك، عاد إلى المنزل ووجد أن الفتاة وصلت هناك بالفعل قبل نحو ساعة.

تمتم، سوف أراها! متجاهلاً «عبادي» العجوز، الذي كان سيوقفه لو رآه!

دخل «تادرس» بيت الحرير، أزاح الستائر جانباً، وتلصص خلسة على الفتاة في مخدعها، وقف في ذهول، غير مصدق ما تراه عيناه! «نفتيس» متكئة على الأريكة، تدخن السيجار، ومتألقة في الحرير الناعم، وشعرها به جديلة ذهبية ومجوهرات متألئة.

ابتسمت وأومات برأسها عندما رأت صديقها القديم، «الترجمان»! لكن «تيلجا» العجوز، اندفعت بغضب في سيل من الشتائم، وتوجهت نحو المتسلل، حاولت طرده من الغرفة وهي تدفعه للخارج بيديها النحيفتين.

قاومها «تادرس»، وعندما بدأت في الصراخ، أغلق فمها بيده، ممسكاً بها في نفس الوقت.

- اسمعي أيتها العجوز الحمقاء كلامي المهم. هل تودين أن تفقدي عملك مع الأمير «كا - رع»؟ تعقّلي، أنتِ هنا تحت أوامري، أوامر «تادرس» الترجمان، ويجب أن

تطيعيني.

أجابت «تيلجا» بازدراء:

- أنا أطيع الأمير فقط، وأنت لن تكون الترجمان بعد اليوم، عندما يسمع الأمير أنك انتهكت حريره.
- نعم، لكنه لن يسمع! سيكون ذلك سرًا بيننا يا «تيلجا»، ستكونين في خدمتي، وسأجعلك ثريّةً في غضون بضعة أشهر. انظري! هذه خمسمائة قرش لك، أي خمسة جنيهات ذهبية. إنه مجرد عربون بالمزيد في المستقبل. خذيها يا «تيلجا».

أخذتها «تيلجا» وهي مترددة. قالت:

- لكن إذا اكتشف الأمير..

قاطعها «تادرس» على الفور:

- لن يحدث، لن يكتشف شيئًا. لقد تركته في النادي يلعب الورق مع رجلٍ إنجليزي. هيا اخرجي وراقبي الفناء.

ذهبت بعيدًا، وهي تتمتم معترضة، وجلس «الترجمان» على الأريكة بجانب «نفتيس»!

(30). حجرة نوم، أو بيت صغير أو جناح مخصص للنساء، داخل منزل كبير.

(31). هو دين ليس له مستند قانوني، لكنه مبني فقط على وعد برد الدين، مثل الديون بين المقامرین.

الفصل الثالث عشر تَمِيمَة «أخت - كا - رع»

لم يكن لدى «كا - رع» سوى بعض الوقت لتغيير ملبسه، حتى يذهب لتناول العشاء مع السيدة «إيقرينجهام». من المفترض أيضًا، أن «أنيت» ستكون هناك، ويجب عليه ألا يتجاهل الخطة التي يدبرها للوقوع بالفتاة، هذا هو سبب حرصه الشديد على الذهاب.

كانت خطته تتقدم بشكل جيد حتى هذا الوقت. العنصر السلبي الوحيد، هو افتتاحان «چيرالد ونستون» الواضح بالآنسة «كونسينور». لكن «المصري» كان خبيرًا بسمات وأعماق شخصية الفتاة الصغيرة. هي فقط مهتمة بالآثار؛ ولذلك شجعت «ونستون»، لأنه عالم بارز، وليس هناك تهديد في ذلك. لأن «كا - رع» يعرف في علم المصريات أكثر من جميع هؤلاء العلماء الذين في «القاهرة»، وكثيرًا ما يرى السعادة على وجه «أنيت»، عندما يخبرها بعض الأمور الغريبة والمثيرة من التاريخ غير المدون في الكتب. لكن «ونستون» كان مواطنها، وهذا يُعد ميزة. ومع ذلك، يتذكّر «كا - رع» أن السيدة «إيقرينجهام»، قالت ذات مرة: «إن الأجنبي الوسيم، دائمًا يبدو ساحرًا في نظر المرأة الإنجليزية»، وقد تذكّر هذه الملاحظة، وفكّر في مدى صحتها، حتى استنتج ضرورة تصديقها.

بعض النظر عن كل ذلك، كان لديه قناعة أخرى يأخذها في الحسبان؛ هي أنه، إذا نجح الرجل الإنجليزي، في الفوز بحب «أنيت» في النهاية، حينها سيعرف كيف يجبر الفتاة على طاعته!

عندما خرج من غرفته، وجد «الترجمان» متكئًا على عمود في الفناء. سأله:

• هل «نفتيس» هنا؟

أجاب «الترجمان» وهو يتثاءب ويغالبه الثعاس:

• أفترض ذلك، كان من المقرر أن تصل هذا المساء، أليس كذلك؟

نظر إليه «كا - رع» بشكٍّ وسأله:

• هل رأيتها؟

رد «تادرس» بسخط:

• هل أنا حارس لحريمك؟ «تيلجا» العجوز ظلت مختفية لساعات في بيت الحريم، من المحتمل أنها تعتنني «بنفتيس» جاريتك. ثم نظر إلى سيّده بازدراء!

أسرع «كا - رع» ودخل العربة. كان الوقت يداهمه، لأبد أن يُسرع للانضمام للعشاء، أما «نفتيس» فيمكن أن تنتظر.

لم يحضر «ونستون» هذا المساء، وشعر الأمير أن «أنيت» كانت كريمة معه بشكل غير عادي! تتجاذب أطراف الحديث بشكل ممتع للغاية، وأسلوبها ودود جداً، وعيناها الصافيتان جميلتان وذكيتان؛ لدرجة أن «كا - رع» أفصح المجال لسحر هذه اللحظة، ونسي كل شيء آخر في بهجة صحبتها.

يبدو أنه لن يتعافى بسهولة من تأثير هذه التعويذة! بعد عودته إلى المنزل، ظل يروح ويجيء لمدة ساعة، متذكراً وجه الفتاة الإنجليزية اللطيف وكل تعابيرها المختلفة. ثم بدأ يشعر بالذنب عندما اجتاحتته ذكرى «حتاتشا»، والقسم المخيف، الذي أقسمه لها.

وعلى الرغم من مظهره الخارجي العادي، كان «كا - رع» متوتراً في أعماقه لأقصى الحدود. لقد أقسم على كراهية هذه الفتاة، وها هو يحبها بشدة حتى هذه الليلة. لكن تربية «حتاتشا» لم تفشل تماماً. هدأ نفسه، وبدأ يحلّل الخطر المحيط به بشكل عقلائي.

فكّر في أن الخضوع لحبّه قد يعني استعباده للعدوّ، وهي حالة يرفضها ويثور ضدها بشكل غريزي. لكن من جهة أخرى، سيكون من الصعب تقوية قلبه ضد انجذابه لها، لكن في ذلك ضرورة واضحة لا يمكن تجاهلها. لذا عقد العزم على مواصلة مؤامراته بكراهية لا تهاون فيها، وأن يضع بينه وبين الفتاة كل حواجز ممكنة. لقد احتقر ضعفه؛ ولأنه علم بوجوده، عقد العزم على التغلب عليه!

ذات مرة قالت له «حتاتشا»: «أنت جامد المشاعر وقاسي القلب وأنا، أنا جعلتك هكذا!»، وهذا حقيقي، هذه الصفات قد عُرسَت في طبيعته. وكان فخوراً بامتلاكه لها؛ لأن لديه مهمة عليه أن ينجزها. وإذا كان يرغب أن يعيش حياته المستقبلية بسلام، فيجب أن تتم هذه المهمة بالكامل.

ذهب في الصباح لرؤية «نفتيس»، وأشرق وجهه عندما رأى كمّ هي جميلة بشكل ملحوظ. الشرقيون عموماً لا يُعجبون إلا بجسد المرأة، غير مباليين بجمال وجهها، لكن «كا - رع» كان عصرياً بما يكفي ليقدّر جمال الملامح، مع التمسك إلى حدّ ما، بتحيزه الشرقي للجسم السمين اللين، الذي يُعدّ عامل الجذب الرئيس للجنس الأنثوي. لذلك كانت «نفتيس» في عينيه، رائعة في كل شيء، حتى إذا أزعجته لامبالاتها وخضوعها التام لإرادته بأي شكل من الأشكال. لقد تمنى أن تحلّ هذه الفتاة محل «أنيت» وتنال محبته واحترامه، وسوف يتسامح كثيراً مع غباؤها إذا أمتعتته!

لذلك؛ كَرَس الكثير من اهتمامه ووقته لفتاة النيل، والتصق بها مؤجلاً كل اهتمامته الخارجية. قام بشراء ثياب فاخرة لها، واستأجر عِدْرَاتين عربيتين للعناية بتجميلها وتزيينها. صنع خصيصةً لأجلها العديد من التيجان والدبابيس والأساور المُرصعة بأحجار الماس والياقوت الرائعة، ومن اللآلئ الثمينة التي أحضرها من المقبرة السرية، صنعت قلادة خصيصةً لعنق الفتاة المصرية البدينة.

كانت «نفتيس» سعيدةً بهذه الممتلكات. لقد جذبتها من الفتور واللامبالاة التي كانت تعيش فيها، وأثارت في صدرها ابتهاجاً أنثويًا لم تكن حتى والدتها تتخيل وجوده. قد تكون الفتاة بدأت تفكر وتحلم، ومع ذلك، فليس هناك سوى القليل من المؤشرات الخارجية على هذه الحقيقة.

من الصعب فهم إمكانات أي امرأة، فكَم ستكون محاولة فهم «نفتيس» مستحيلة! كانت بطبيعتها تحب الرفاهية، مثلها مثل جميع الشرقيين، وفرحت بوسائل الراحة في حياتها الجديدة دون أن تسأل عن سبب منحها لها. مهما كانت المشاعر التي تتملّكها، فقد أتت بعد سُببات طويلة. ربما ستستيقظ الآن، قد تكون سعادتها بالرفاهية هي الخطوة الأولى في هذا الاتجاه!

بقي «كا - رع» متعمدًا الابتعاد عن النادي لعدة أمسيات، بعد تلك الأمسية التي فاز فيها بعشرة آلاف جنيه إسترليني. ربما تمنى لعدوه أن يشعر بالقلق والضيق من التأخير في التخلص من الديون، وإذا كان الأمر كذلك، فمن دواعي سروره، أن يعرف بأمر القلق المحموم الذي يطارد الرجل في النادي، وهو يراقب كل الوافدين الجدد على أمل أن يظهر «كا - رع»!

أخيرًا، فكر «المصري» أنه انتظر طويلًا، واستعدّ لمواصلة نسج شبابه حول ضحيته.

في غرفته في ذلك المساء، أخذ من درج سرّي بخزنته، لفافة البردي الصغيرة، المكتوبة بالخط الهيروغليفي. قرأ المخطوطة بعناية، على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي يفحصها؛ لأنها سقطت عند قدميه عندما انقلب التمثال النصفي لـ «إيزيس» في مقبرة «أخت - كا - رع».

كانت ترجمتها على النحو التالي:

بعد أن استعددتُ أخيرًا للانضمام إلى «أنوبيس» في العالم السفلي، قمت أنا «أخت - كا - رع»، ابن الشمس، وكبير كهنة «أمون»، بإضافة تميمة الحظ الثمينة - التي منحني إياها ملك «كوش» (32) - إلى غطاء التابوت الخاص بي. لقد منحني إياها مقابل حمايتي له هو وشعبه من غضب «رمسيس». وأنا على يقين أن هذه التميمة العجيبة ستحرس مقبرتي بعد أن تفارقني روحي، وبقاءها سيحافظ على جسدي

وكنزي من النهب، إلى ذلك الوقت الذي سأعود فيه، لأحيا مرةً أخرى في «كِمْت» (33).

ألتمس من أهل بيتي، ألا ينزع أحد هذه التميمة من مكانها؛ لأن تميمة الحظ هي لي أنا وحدي، ولن أهبها لأحد من نسلي الذين يأتون بعدي. فقط في وقت الحاجة، لياخذ أولادي من الكنز ما يحتاجون، ولكن انتزاع تميمة الحظ الخاصة بي، سيجلب على المذنب أسوأ لعنة من روعي. جوهرة التميمة ستكون معروفة للجميع من لونها المتغير، حيث لا يستمر نفس اللون لفترة طويلة، ولونها ليس ساطعاً مثل الياقوت أو العقيق أو الچمشت، لكنه لون غامض. وحتى لا يخطئ أحد في التعرف إلى مكانها، قمت بوضعها في إطارٍ من الذهب، ووضعتها على مقدمة التابوت الخاص بي؛ لتبقى في مكانها دائماً.

منذ أن أصبحت في حوزتي، علقتها في صدري، وبسحرها تمكّنت من السيطرة على «رمسيس بن سِتِي»، وحكمت مملكته كما لو كانت مملكتي، وأزعجت كل أعدائي وكل هؤلاء الذين يتهمونني ظلماً، وجمعت ثروات لم يمتلكها رجل في «كِمْت» من قبل. وقد جلبت لي الصحة، ووهبتني سنين عديدة لتحقيق الغرض من وجودي.

لهذا السبب أرفض التخلّي عنها طوال السنين القادمة، التي أنتظر خلالها الحياة الآخرة. أيّاً كان ما قد يحدث لمقبرتي، أناشد أولئك الذين يأتون بعدي، أن يتركوا لي هذا الكنز الوحيد.

تم توقيعها من قِبَل «أخت - كا - رع» وختمها بختمه، وهو بلا شك عمل يده.

أعاد «كا - رع» لفّ البردية ووضعها جانباً، توقف لبرهة، وابتسم وهو ينظر للخاتم الغريب الذي كان يرتديه في إصبعه.

تمتم قائلاً، كان جدي الأكبر أنانياً، ويرغب في منع أي أحد من نسله من أن يصبح مشهوراً مثله. ومع ذلك، لو قرأت النص قبل أن أنزع جوهرة التميمة من التابوت، لكنت احترمت رغبة «أخت - كا - رع». لكنني لم أعرف سرّ الكنز الذي حصلت عليه إلا بعد الخروج من المقبرة، بعدما فات الأوان لإعادتها دون زيارة أخرى لمقبرة جدي!

اللعنة أمر مخيف؛ خاصةً من الأجداد، ولتجنب لعنة «حتاتشا»، فإنني الآن أحقق انتقامها. لكن ليستريح «أخت - كا - رع»؛ لأنني فقط استعرت تمييمته، وسأردها إليه عندما يتم الانتقام الكامل من أعداء جدتي. أثناء ذلك، سوف تحميني التميمة من الحظ السيئ، وعندما أردّها لمكانها، سأجنب اللعنة.

فكّر «كا - رع» ملياً بعمق، وعقد حاجبيه ثم قال:

• لن أخدع نفسي. ماذا لو كانت لعنة جدي قد نجحت بالفعل، وبسببها حوّلت الفتاة الإنجليزية قوتي إلى ضعف؟! لكن هذا لا يمكن أن يحدث. لأنني كلما ارتديت هذا الخاتم تغلبت على كل الصعوبات وانتصرت كما أردت. وسأنتصر في مهمتي هذه الليلة، على الرغم من التأنيب الذي أراه بالفعل في عيون «آنيت»!

مازلت أنا المتحكم في مصيري ومصير الآخرين. لأن هذه التميمة، إذا فعلت الكثير من أجل «أخت - كا - رع» كما يدّعي، ستكون حمايتها لي بالتأكيد أقوى من أي لعنة.

ضحك، وتخلص من الشعور الغريب الذي كان يضايقه في الوقت الحالي، وذهب إلى الملهى.

(32). إثيوبيا حاليًا.

(33). اسم «مصر» في اللغة المصرية القديمة.

الفصل الرابع عشر مقامرة القدماء والمعاصرين

وصل «كونسينور» مبكرًا إلى نادي «اللوتس»، وجلس على طاولة صغيرة في مواجهة المدخل، يمضي وقته في لعب «سوليتير».

دخل «كا - رع» وحيّاه بحرارة، وكان في حالة مزاجية جيدة جدًا.

قال وهو يجلس على الجانب الآخر من الطاولة:

• حسنًا، هل نجرب حظنا؟

أوما «كونسينور» بالموافقة، جمع الأوراق وخلطها. تجمع حول الطاولة، العديد من المتفرجين، الذين كانوا على علم بالمباراة السابقة، ومتلهفين لمعرفة عن ماذا ستسفر المباراة التالية بين الرجلين!

فاز «كا - رع» بقسمة الورق وبدأ اللعب. كان يلعب بلا مبالاة. وبدأ المراهنة بجنيه إسترليني واحد، ثم هتف ضاحكًا:

• لئضاعف الرهان!

أوما «كونسينور» بالموافقة مرةً أخرى. لكن يبدو أن الحظ قد تغير اليوم! لقد خسر الأمير مرارًا وتكرارًا. في البداية، تجاذب أطراف الحديث بمرح مع الحاضرين، واستمر في مضاعفة الرهان، متجاهلاً نجاح خصمه. لكن بمرور الوقت انتبه، ونظر إلى أوراق اللعب باهتمام، بدأ يراقب بذكاء ما الذي يفعله خصمه. وصلت الرهانات إلى أربعمئة جنيه، وزادت الإثارة بين مجموعة المتفرجين الصغيرة. ثرى، هل سيستعيد «كونسينور» رهانه الخاسر، البالغ عشرة آلاف جنيه في جلسة واحدة؟!

فجأة، ارتبك «كا - رع» أثناء اللعب، وسقطت ورقة من يده. وعندما حاول التقاطها، انزلقت تحت قدمه وتمزقت إلى نصفين. كانت ورقة «الملكة».

ضحك وهو يعرض الورقة أمام المتفرجين قائلاً:

• «يا له من غباء!»

ثم خاطب أحد العاملين:

- يا فتى، أحضر لنا حزمة بطاقات جديدة لو سمحت!
- عبس «كونسينور» وهو يمسك بيده بطاقات اللعبة بعد أن أصبحت عديمة الفائدة.
دس «كا - رع» بعض البطاقات في جيبه، بما في ذلك البطاقة التي مزقها.
قال «كونسينور»:
- هذه البطاقات لي يا أمير، أستخدمها في لعبة السوليتير الخاصة بي.
ردّ «كا - رع»:
- عفواً، لكني دمرت قيمتها، بعد أن مزقت بطاقة «الملكة»، وأنا مُصرٌّ على تقديم حزمة بطاقات جديدة لك، يؤسفني أنني جعلتها عديمة الفائدة!
عصّ «كونسينور» شفتيه ولم يردّ، ظل يراقب الأمير بصمت، بينما كان يمزق غلاف حزمة البطاقات الجديدة، ثم قام بخلط الأوراق.
في هذه الجولة خسر «روجر» توزيع الورق، وتعادلت النتيجة. ثم خسر مرةً ثانية، ثم ثالثة. قال:
- لقد تغير الحظ مع البطاقات الجديدة! دعنا نُوجّل اللعب حتى أمسية أخرى، إلا إذا كنت تفضل الاستمرار!
قال «كا - رع» على الفور:
- «حسنًا!»
- ثم ألقى البطاقات على الطاولة، ورجع إلى الخلف واتكأ على كرسيه، اختار سيجارًا جديدة من علته وأشعلها.
- دفع «كونسينور» أيضًا كرسيه إلى الوراء، لكنه لم ينهض. بعد مراقبته لحركات «كا - رع» اللامبالية لبعض الوقت، سحب من جيبه ثلاث نردات غريبة، وبعد لحظة من التردد، ألقى بها على الطاولة. قال:
- قيل لي، إن هذه المكعبات وُجدت في مقبرة مصرية في «طيبة». وأنها تبلغ من العمر ثلاثة آلاف سنة!

فحص الرجال الحاضرون، بمن فيهم «كا - رع» النرد بفضول. كانت نقاط اللعب مرسومة بحسب ترتيب اللعب في الوقت الحاضر، وكانت أصلية، وهو دليل على أن هذا النمط من المقامرة، قد تعرض لتحسن طفيف منذ أن اخترعه المصريون الأوائل للمرة الأولى.

قال «فان رودن»:

- لقد تم الحفاظ عليها بشكل ممتاز، من أين أتيت بها، يا «روجر»؟
- اشتريتها ذات يوم من بائع عربي متجول؛ لأنني وجدتها جميلة وأصلية.

قال «بينش»، وهو ألماني مسئول عن الحفائر في «دهشور»:

- هناك عدة مجموعات مثلها في المتحف، إنه لأمر رائع جداً مدى معرفة هؤلاء القدماء!

قرب «اللورد كونسينور» النرد نحوه. قال:

- انظر هنا، يا أمير، دعنا نجرب حطنا مع هذه النردات الأثرية. إنها أسرع وأسهل من لعبة الأوراق.

وافق «كا - رع» وقال:

- حسنًا جدًا، كم سيكون الرهان؟
- دعنا نقول مائة جنيه للرمية!

أذهل هذا الاقتراح مجموعة المتفرجين. لكن «كا - رع» قال على الفور:

- سأوافق على ذلك يا سيدي.

خسر «كا - رع» مرة، ثم مرتين، ثم ثلاث مرات. ثم أخيرًا، عندما دفع «كونسينور» النرد نحوه على الطاولة، دس «كا - رع» يديه في جيوبه، وقال بصوت هادي للمتفرجين:

- أيها السادة، أشهدكم أنني أعب مع شخص مارق. هناك تزييف في هذا النرد!

بعد لحظة من الصمت والذهول، نهض «اللورد كونسينور» وهتف به:

- أقسم أن هذا ليس صحيحًا! هذه إهانة يا أمير!

قال الكولونيل «قارين» بحزم:

• اجلس يا سيدي، لا يمكن إدانتك بمجرد كلام. دعونا نفحص النرد.

وافق الآخرون، وقد بدا على وجوههم الفزع والقلق. لم يحدث مثل هذا الفعل المُشِين من قبل داخل جدران نادي «اللوتس» المحترم. لقد شعروا أن سمعة النادي على المَحْك، قاموا بفحص المكعبات بعناية. ووجدوا أنها مُزيِّفة كما أكد «كا - رع»!

سأل أحد رجال الإدارة في النادي:

• هل يمكنك شرح هذا يا سيد «كونسينور»؟

كان جوابه: لا أستطيع أن أفهم، لماذا تطلبون مني أن أشرح ذلك! عند شراء النرد، كنت أجهل تمامًا حالتها. لكن حظي السيئ قادني لاقتراح اللعب بها!

قاطعه «بينش»، كما لو أرد أن يقدم حلًا للمشكلة:

• من المعروف أن هذه النردات القديمة يتم تزيفها كثيرًا، توجد مجموعتان منها، معروضتان في المتحف، تم تزيفهما بنفس الطريقة الذكية!

وافقه «قارين» وأوما برأسه بجديّة:

• هذا صحيح تمامًا.

قال «كونسينور»:

• في هذه الحالة، أنا متأكد من أنكم أيها السادة ستبرئون ذمّتي من أي خطأ مُتعمّد. لأنه ببساطة، كان من سوء حظي أنني اقترحت اللعب بهذه النرد.

رد «كا - رع» بهدوء:

• هل كان من سوء حظك أيضًا، يا سيدي، أنك كنت تلعب طوال المساء ببطاقات بها علامات؟ سأطلب منك أن تشرح لهؤلاء السادة، لماذا تحمل مجموعة البطاقات الأولى، التي قلت في وجودهم قبل قليل، إنها ملكك الخاص، علامات سرية، لا توجد إلا لغرض واحد فقط، هو خداع منافس مطمئن لك أثناء اللعب!

قام بسحب البطاقات من جيبه وهو يتحدث، وسلمها إلى العقيد «قارين» الذي قام بفحصها وهو منزعج، ثم سلمها إلى جاره لفحصها.

أثناء مرور البطاقات، جلس «كونسينور» يحدق بصمتٍ في مجموعة البطاقات الأولى الخاصة به. كانت الأدلة ضده لا جدال فيها؛ لدرجة أنه لم يرَ أي وسيلة للهروب من العار الذي لحق به بشكل مؤكد!

• قال «كا - رع» بينما فحص آخر رجل البطاقات ووضعها على الطاولة مرةً أخرى: أيها السادة، أثق في أنكم جميعاً تعرفون أنه ليس من عادتي أن أسعى لكسب المال ممّن أَلعب معهم. بل أفضل الخسارة؛ لأنني بهذه الطريقة أحصل على التسلية من خلال اللعب، لكن عندما يتآمر شخص محتال ويغش لسرقتي، فإن مزاجي حتماً يكون مختلفاً! «اللورد كونسينور» مدين لي بعشرة آلاف جنيه، وأنا أطلبه في حضوركم بالسداد العاجل للدين. كما أنني أعتمد عليكم في حمايتي وحماية أصدقائي - أعضاء النادي - من أساليب غش وتزييف بطاقات اللعب في المستقبل، وأنا متأكد من أنكم ستفعلون ذلك بكل سرور. بالنسبة إلى الباقي، الأمر أصبح بين أيديكم. طابت ليلتكم أيها السادة!

انحنى احتراماً وانسحب. تبعه الآخرون بصمتٍ وانتشروا في غرف النادي الأخرى. أما «قارين»، بصفته مسئولاً في النادي، فأخذ معه حجر النرد والبطاقات ذات العلامات.

بعد أن علم «اللورد كونسينور» أن سمعته دُمرت تماماً، جلس يتمتم بالشتائم على «كا - رع» وعلى حظّه العاثر، حتى لاحظ أن الغرفة خلّت من أي إنسان، وقرر العودة إلى المنزل. لقد أصابته الكارثة بالدُّوار؛ لدرجة أنه فقد تركيزه، وعندما ذهب إلى الرُدْهة ليأخذ قبّعته ومعطفه، توقف كل من مرّ بهم عن الحديث، وأداروا ظهورهم له.

لم يسمع «اللورد كونسينور» عن «حتاتشا» قط، ومع ذلك تحقق انتقامها فيه للتمام!

الفصل الخامس عشر غضب «ونستون بك»

تشاجر «اللورد رون» وابنه بشدة في مقرهما المؤقت بفندق «ساقوي»، صباح اليوم التالي. كان ذلك، بعد أن تضمّنت صحيفة اليوم سردًا كاملًا للقصة التي وقعت في نادي «اللوتس»، ورغم عدم ذكر أي أسماء، لم يكن خفيًا على أحد من هم الأشخاص المقصودون. فقد نُشر الخبر على النحو التالي:

«نبيل إنجليزي وصل مؤخرًا ليشغل منصبًا مهمًا في وزارة المالية، تم اكتشافه وهو يلعب بأوراق مزيفة ونرد مغشوشة، من قبل رجل مصري ثري وذي مكانة مرموقة، وقد كشف عن الاحتيال في وجود العديد من الأشخاص، من أعضاء النادي ذوي السمعة الطيبة. لحسن الحظ، لم ينشر اسم الرجل الإنجليزي، وتم رفضه من عضوية النادي فقط؛ لذا فإن عمله المُشين وما يترتب عليه من سمعة سيئة، لا ينعكس بأي حال من الأحوال على تلك المؤسسة الراقية، التي تُدار بنزاهة...».

كان «اللورد رون» مستاءً للغاية وغاضبًا عندما قرأ هذه الرواية. زمجر في وجه ابنه:

- أيها الوغد البائس! كيف تجرؤ على تلويث اسم عائلتك في الوحل! لقد حدث تمامًا كما توقعنا، بعد أن حصلت على موقع مرموق في «القاهرة»، أصبحت مُقامرًا حقيقياً، ليس هذا فقط، بل أصبحت غشاشًا ومحتالًا مشهورًا، وهذا لا يُغتفر على الإطلاق. ماذا تقول الآن لتدافع عن نفسك؟

قال «كونسينور» بتجاهل:

- لا شيء، أنا بريء. لقد كانت هناك مؤامرة لتحطيمي وتشويه سمعتي.
- أه! بل مؤامرة منك للاحتيال على الآخرين. تكلم يا رجل! أليس لديك ما تقوله لتبرير أو تخفيف شعورك بالخزي والعار!

قال «كونسينور» بلا مبالاة:

ما الفائدة من الكلام؟ لن تصدقني بأي حال!

التفت الرجل العجوز إلى وجه الفتاة المرتعدة وسأل:

- هل تصدقينه يا «أنيت»؟ هل تصدقين أن هذا اللعين - الذي هو ابني ووالدك - بريء؟

أجابت وهي تنكمش وتعود للوراء، بينما ينظر «كونسينور» نحوها بفضول لسماع ردها:

- لا، لقد خدعني وحطمني بقسوة. لقد وعدني أنه لن يلمس ورق اللعب مرةً أخرى، أو يلعب من أجل المال، وقد نقض وعده! لا أستطيع أن أصدقك بعد الآن!

أجاب والدها وقد احمرَّ وجهه للمرة الأولى:

- بالطبع لا، عائلتي العزيزة، بغیضة للغاية طوال الوقت، حتى أصغر أعضائها لا يمكنهم الوثوق بأن «كونسينور» صادق أو أمين!
- اسمع يا «روجر»، لا أقبل بإهانة «أنيت» حتى منك. أنا لست قديسًا، وأعترف بذلك، لكنني لم أرتكب أبدًا، ولو جريمة نصب بسيطة، وابنتك شريفةً بما يكفي لتخزي من كلينا! أما بالنسبة إليك، فقد انتهى الأمر. عليك منذ الآن، أن تعمل على إنقاذ نفسك بطريقتك الخاصة. لقد بددت أي ميراث لك، لكنني سأمنحك ألف جنيه نقدًا، إذا خرجت بوجهك القبيح من «القاهرة» ووعدت بعدم الاقتراب منّا مرةً أخرى. سأعطني بزوجتك وابنتك، وأنا واثق بأنه لا كلاتهما أو حتى أنا، سنشتاق إليك ولو لمدة ساعة واحدة.

قال «كونسينور» بسرعة:

- إنه عرض جيد وسأقبله. فقط أخبرني من أين أتيت بآلاف الجنيهات؟!

قال «اللورد رون» بعصبية:

- هذا ليس من شأنك أيها الملعون! اذهب الآن. اترك استقالتك مع وزير المالية ثم اختفِ تمامًا. سأكتب لك شيكًا الآن.

تناول «كونسينور» الشيك، وقال بهدوء:

- إذا كان الأمر على ما يُرام، وسيقوم البنك بصرفه! سأفعل ما اتفقنا عليه، ولن أزعجك مرةً أخرى. وداعًا «أنيت»، لكن احذري من هذا «المصري» الخبيث الذي يلاحقك. هو وحده المسئول عن هذه الفضيحة، لا تثقي به! وودّعي والدتك العزيزة لأجلي. لن يضايقها إذا لم أقم بتوديعها شخصيًا حتى لا أثير أعصابها!

سأله «اللورد رون»:

- أين ستذهب؟
- هذا يا سيدي، كما تقول أنت، ليس من شأنك!

بعد هذه الإجابة، غادر «روجر» الغرفة! وانفجرت «أنيت» في سيل من الدموع. لم تشعر أبدًا بالمهانة والإذلال كما حدث عند اكتشاف عار والدها، وعلى الرغم، من محاولة «رون» مواساة حفيدته، بالحديث عن حقيقة أن «روجر» كان مُقَامِرًا منذ فترة طويلة دون شك، كانت الفتاة تأمل بشدة في تغيير والدها؛ لذا كانت خيبة أملها بالفعل مريرة.

تأيع النبيل العجوز حديثه وهو يُرَبِّت على رأسها بهدوء:
• لن يؤذينا كثيرًا ما حدث يا صغيرتي، سيعرف الناس أننا نبذنا «روجر» لفعلته، وسوف يتعاطفون معنا في محنتنا. في غضون أشهر قليلة ستُنسى الفضيحة، ونرفع رؤوسنا مرةً أخرى. سامحيني لأنني أنا أيضًا عشت حياةً شريرةً يا عزيزتي! ولكن لأجلك، أود أن أستعيد سمعتي الطيبة، وأن أموت وأنا أتمتع باحترام جميع الرجال. وهذا، على ما أعتقد، يمكنني تحقيقه. لا تقلقي أيها الصغيرة! كوني شجاعة، وستمر هذه الضربة سريعًا.

كان يحاول مواساتها والدموع في عينيه، استمر في تشجيعها حتى استطاعت الفتاة الصغيرة التوقف عن البكاء، وتلاشت الصدمة الأولى من محنتها المفجعة، ثم قبَّلها بحنان وذهب إلى مكتبه.

بعد أن تسبَّب خبر الصحيفة الصباحية، في دهشة وفزع كبيرين لدى «چيرالد ونستون»، كان أول ما شغل تفكيره هي «أنيت» والمأساة التي ألمت بها، تملكه شعورٌ عارمٌ بالاستياء تجاه «كا - رع». بعد أن ظل يسير ذهابًا إيابًا بلا كلل لمدة ساعة، طلب السَّرَج، وركب حصانه ذاهبًا في طريق «شبرا» لمقابلة «المصري» في قِيَلَاتِهِ الخاصة.

استقبل «كا - رع» ضيفه بفتور، وتجاهل «ونستون» ذلك، لأنه لم يكن في حالة مزاجية تستدعي التأثير بمثل هذه التفاهات.

بدأ حديثه بغضبٍ وانفعال:

• لقد عرفت أنك اتهمت «كونسينور» بالغش في النادي الليلة الماضية.

رفع «كا - رع» حاجبيه باستخفافٍ مُستفسرًا:

- حسنًا، ماذا تريد؟
- لماذا قمت بهذا الفعل الخبيث؟
- لأن هذا ما حدث. كان يسرقني.

- أنت تعرف ما أعنيه يا سيدي! أنت تتظاهر بأنك صديق الأنسة «كونسينور»، في حين تعرض والدها للفضيحة والعار أمام الجميع، وهذا تصرف جبان وخسيس.
- وماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟
- أنا؟ كنت سأخفي ذلك، وأترك الرجل يمضي في سلام، وأرفض اللعب معه مرةً أخرى.
- وهكذا تسمح له بسرقة الآخرين؟!
- إذا لزم الأمر، نعم؛ من أجل حماية سُمعة ابنته. لكن في الوقت ذاته، تحذيره على انفراد، كان سيجعله يتخلى عن المزيد من الخداع.

قال «كا - رع» وهو متكئًا على كرسيه:

- إنه مجرم قديم، وعلى ما أعتقد، قد يفيدك التفكير في أن سمعة الأنسة «كونسينور»، لم يتم تشويهها بسبب عدم احترام والدها، أكثر من سمعة جدها، الذي أصبح عجوزًا بما يكفي، ليكون فوق المساءلة عما ارتكبه من ظلم في الماضي. لذلك؛ لا أصدق أنني جرحتها بأي شكلٍ من الأشكال!

أثارت مسحة الكراهية في صوت الرجل وهو يتحدث عن «اللورد رون» انتباه «ونستون»، فقال بصرامة:

- هل تؤذي هؤلاء الناس وتدبر لهم المؤامرات؛ لأجل الخطأ القديم الذي ارتكبه «رون» بحق جدتك «حتاتشا»؟
- أنا لا أؤذيهم ولا أدبر لهم المؤامرات، لقد دمر «كونسينور» نفسه دون مساعدةٍ من أحد. أما بالنسبة إلى ابنته، فباستطاعتي حمايتها من الفضيحة.
- ماذا تقصد بذلك يا سيدي؟
- أنوي الزواج منها!

عند هذا التصريح، حدّق «ونستون» في ذهول. ثم ضحك بمرارة.

قال:

- هذا سخيفٌ ومستحيل!
- ولماذا؟
- أنتما أبناء عمومة.

قال «كا - رع» باستهزاء:

- هي لا تعرف ذلك، وأنت لن تخبرها بذلك لأنك تُبدي الكثير من الاحترام لسمعة جدّها الشريفة!

- أرى إنها مؤامرة جديدة منك لتدميرها. لكنها ستفشل؛ لأنها لن توافق أبدًا على الزواج منك.
- وكيف عرفت ذلك؟
- ليس هناك أي احتمالية في أن تحب إنسانًا مثلك.
- في ذلك يا سيدي، أنا أميل إلى الاختلاف معك. حتى لو اكتشف «آني» قرابتنا، فلن يهم. قديمًا تزوج ملوكنا المصريون أخواتهم. وأفترض أن «اللورد رون» سينكر بشكل قاطع الاعتراف بأنني حفيده - وهذا ما أود بنفسني أن أنكره أيضًا - وبالأخير، ليس لديك دليل بأنك تقول الحقيقة!
- لكنك أخبرتني القصة بفمك!
- هذا صحيح، وكانت القصة حقيقية بالفعل. لا مشكلة في الاعتراف بذلك في هذه اللحظة؛ لأنه لا يوجد شهود حاضرون. لكن إذا كررت هذا الكلام علانيةً، فسأنفيه تمامًا!

ظل «ونستون» صامتًا للحظة. ثم قال:

- أنت تخطط لارتكاب جريمة بشعة يا «كا - رع»، لكن لن يفيدك تحدي الأخلاق بهذه الطريقة. ثم هناك سبب آخر لرفض الأنسة «كونسينور» الزواج منك، وهو مختلف تمامًا عن موضوع صلة الدم.
- إلى ماذا تشير؟
- إلى المرأة التي تحتفظ بها، حتى الآن، في حريمك. إنها فضيحة عامة، وأنا مندهش من أن المجتمع لم ينبذك بالفعل لتحديك الجريء للياقة وعدم السلوك بتحضر! أنت لست عربيًا ولا مسلمًا. بكل تأكيد، هذه الجريمة لم تصل إلى مسامع الأنسة «كونسينور» حتى الآن. ولكن إذا عرفت ذلك، فهل تظن أنها ستضع سعادتها في يد رجل مثلك؟

عبس «كا - رع»، بعد أن اكتشف وجود سلاح ضده لم يعرفه من قبل. قال ساخرًا:

- أفترض أنك ستجتهد كثيرًا لإخبار الأنسة «كونسينور» بأن لديّ جارية بين خدمي!
- سأطلب من السيدة «إيفرينجهام» أن تخبرها بالحقيقة فيما يتعلق بعلاقتكما الأسرية.

نهض «المصري» وقال بغضب:

- أعتقد أنه سيكون من الأفضل كذلك إنهاء هذه المقابلة يا «ونستون بك». أنت نفسك تتظاهر فقط للفوز بزواجتي المستقبلية، ولا جدوى من محاولة التظاهر بمناقشة الأمور بشكل عادل، أنت تهتمُّ لأن لك دوافعك الأثانية.
- هل اخترت أن تتحدى تحذيري؟

- أنا فقط أتجاهل تهديداتك. لأنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تعوق خُططي.
- قال «ونستون» وهو يحاول السيطرة على سخطه:
- أعتقد أن هذه الخطط كلها بدافع من الكراهية وليس الحب. وسأبذل قُصاري جهدي لإفسادها.
- هذا بطبيعة الحال. إنه حقك يا سيدي!
- استدار «ونستون» ليذهب، قال بمرارة، كأنه يطلق رصاصة:
- سأظل أشعر بالندم ما حييت! لقد كنت في غاية حماقة؛ لأنني أحضرت فلاحًا قذرًا، من بيئة قروية طينية إلى «القاهرة».
- عاد «كا - رع» ليردّ بابتسامة صفراء:
- كان الفلاح القذر سيجد وسائل أخرى للفرار لو لم تأت به. لكن التفاهات التي ذكرتها لا ينبغي أن تكون هي سبب ندمك العميق، أيها الإنجليزي الغبي!
- وهل فعلت أي شيء أكثر حماقةً من ذلك؟
- نعم، بالتأكيد.
- وما هو؟!
- لقد ركلتني مرتين في بستان النخيل بجبل «أبو الفدا».
- آه! ما كان يجب أن أكبح نفسي في ركلتين فقط!
- بل احمد الله لأنهما كانتا ركلتين فقط يا سيدي! وإلا سبب لك الأمر الكثير من التعاسة. كنت أفكر مع نفسي، لو أنك ركلتني مرةً أخرى، لقتلتك!
- غادر «ونستون» القبيلاً أكثر انزعاجًا مما كان عليه عند وصوله. يبدو أن الأمر ينطوي على ما هو أكثر بكثير من مجرد فقدان سُمعة «اللورد كونسينور». نبرة «كا - رع» الواثقة نجحت في زعزعة ثقة منافسه، وأصبح الرجل الإنجليزي أكثر قلقًا مما كان يعترف به حتى لنفسه. كان حبه لـ «أنيت» صادقًا وغير أناني، ولم يكن يتخيل أن هناك كارثة أكبر قد تحدث للفتاة، من أن يكسب هذا الرجل الخائن ثقتها وحبها!
- لم يخطر بباله هذا الاحتمال من قبل؛ ولهذا كانت مزاعم «كا - رع» بالنسبة إليه مُروعة ومثيرة للاشمئزاز. كان يتوق أن يذهب إلى الفتاة في الحال ويحاول مواساتها في مثل هذا الوقت العصيب، في ساعة الحزن هذه، لكن حسه الأخلاقي منعه من ذلك. لا بُدَّ أنها تودُّ أن تكون بمفردها؛ لذا فكر في البداية، بإرسال باقة من أجمل الورود الموجودة في «القاهرة» لـ «أنيت»، إلى أن تتعافى من الشعور بالخزي

بسبب تصرف والدها الشائن، الذي من المؤكد أنها ستعاني منه عند التعامل مع الناس. وبذلك يؤكد لها ثقته و صداقته، إلى أن يحين الوقت المناسب، ويؤكد لها حبه.

أما «كا - رع»، فعلى العكس، لم يتأثر بهذه المشاعر المرهفة. لذلك؛ ذهب بعد الظهر إلى فندق «ساقوي» وطلب مقابلة «أنيت».

كانت حينئذٍ بمفردها، لقد تركتها السيدة «إيقرينجهام» لتذهب في جولة بالسيارة. وكادت أن تستقبل الفتاة الأمير «المصري» بلهفة.

سألت على سبيل التحية، وهي تقف أمامه بخدود قرمزية وعيون منكسرة:

- هل يمكنك مسامحتي أيها الأمير؟

أجاب بلطف:

- أسامحك لأجل ماذا آنسة «أنيت»؟

تلعثمت:

- لأن والدي فعل بك هذا الخطأ!

ابتسم «كا - رع»، ونظرت هي بخجل لتعرف تعبير ملامحه.

قال وهو يمسك بيدها ويقودها إلى كرسي:

- دعينا نجلس ونناقش الأمر. لكنني متأكد من أنه لن يكون من الضروري بالنسبة إليّ، أن أقول ليس لديّ ما أسامحك عنه، لأنك لم تهينيني بأي حال من الأحوال.

عادت لتقول بخجل مرةً أخرى:

- لكن والدي..

- نعم، أعرف يا آنسة «أنيت»، لقد فعل والدك شيئاً أحمق، وسوف يدينه الناس عليه. أنا أسف جداً لأن اكتشاف الأمر حدث من خلالي، لكنني أؤكد لك أنني لم أستطع منع ذلك. وقد رأى الآخرون البطاقات المعلمة ووجهوا إليه الاتهام. صدقيني، كنت سأنقذه إذا أمكن، لكنني لم أستطع!

- أنا أصدقك أيها الأمير، الأمر كله خطأ والدي، وقد استحق العقوبة.

- أنا حزين جداً من أجلك!

لقد حرك وجهها الغاضب من الألم مشاعره؛ لدرجة أن حديثه كان صريحًا تقريبًا، ثم أردف:

- أعلم ما الذي ستعنيه لك هذه الفضيحة يا «آنيت»، تجنّب زملائك السابقين، وربما سخرية من يحسدونك. العالم قاسٍ دائمًا، وخطايا الآباء يحصد عاقبتها الأبناء، حتى أصدقاؤك المخلصون قد يرون براءتك منقوصة.

توقف عن الحديث لأنها كانت تبكي وهي بائسة، وأثرت دموعها فيه بطريقة غريبة!

ثم تابع بجديّة:

- لهذا أتيت لأؤكد لك ثقتي بك وصدقتي الثابتة لك. كلاً، بل أكثر من ذلك، أعرض عليك حمايتك من إهانة العالم بأسره، إذا أعطيتني الحق لذلك.

بدأت الفتاة تنظر إلى وجهه وهي مضطربة.

تمتمت:

- أنا.. أنا لا أفهمك يا أمير!

أردف قائلاً:

- إذًا يجب أن أتحدث بشكل أكثر وضوحًا.

وسرعان ما وقف أمامها بعيون لامعة ويد ممدودة:

- «آنيت»، أنا أحبك! أنتِ بالنسبة إليّ سعادة الأرض ونعيم الجنة. فقط في حضورك أجد السعادة والرضا. كوني زوجتي. هَبّي لي نفسك، وسأحميك جيدًا، وأضعك في مكانة عالية، تجعل العالم كله ينحني عند قدميك.

لقد صدمها هذا الطلب! فلم يكن هناك أدنى شك في جدية الرجل. كما أنها لم تعرف كيف ترد! لأن هذا العرض كان غير متوقع بقدر ما كان غير مناسب. ربما كانت لدى «آنيت» أحلامٌ مبهمّةٌ وعشوائية عن الحب، كما تحلم كل العذارى المراهقات. لكنها كانت سعيدة للغاية في «القاهرة»؛ لدرجة أنها لم تكن تعتقد أن اهتمام «كا - رع» يعني أكثر من الصحبة الطيبة كمثل الرجال الآخرين الذين قابلتهم. في الواقع، لم تفكر في مثل هذا الموضوع على الإطلاق، وفي هذا التوقيت، عندما كان قلبها حزينًا ومكسورًا، لم تجد فيه أي استجابة لنداءات هذا العاشق الولهان.

قالت بتردد:

- لا يمكنني الرد عليك الآن يا أمير، كل شيء جديد بالنسبة إليّ، وغير متوقع تمامًا، ولا أرغب في الزواج من أحد!

تصلّب وجهه وهو يحدّق في وجهها الخجول، لكن الشوق في عينيه ظل باقياً.

مع كل ما اكتسبه من تلميع وشهرة مؤخراً، فشل «المصري» في فهم أن الفتاة الإنجليزية لا تستسلم لمطالب أي رجل ما لم يدفعها قلبها وميولها إلى الاعتراف بذلك. لكنه كان حكيماً بما يكفي لإدراك أن صعوبات الموقف الحالي، تتطلب براعةً إذا كان يرغب في النجاح.

قال بهدوء:

- «آنيث»، هذا ليس وقت المراوغات أو سوء التفاهم بيننا. لقد أخبرتك أنني أحبك، وأن رغبتني الصادقة هي أن أجعلك زوجتي. أنت بحاجة إلى من يحميك في هذا الوقت، والتأخير في ذلك، هو حماقة بقدر ما هو خطير على مصلحتك. إذا كنت تحبينني، يمكنك إخباري بذلك اليوم أو لاحقاً.

أجابت الفتاة:

- آه، هذا كل شيء أيها الأمير! أخشى أنني لا أحبك بالطريقة التي تفكر بها أو تريدها. أنا مُمتنة جداً لك، وأقدّر هذا الشرف الكبير، لكن ليس لديّ ما أقدمه لك أكثر من صداقتي المخلصة.

لقد أثار إصرارها نزعة الكرامة بداخله أكثر. قال:

- إذًا، سأقبل بذلك على أنه كافٍ في الوقت الحالي. سأتزوج منك كصديقة، وربما سيتبع ذلك الحب مع الوقت.

بكت حزينة:

- أوه، لا يمكنني السماح بذلك! آسفة لإيذائك وأنت لطيف معي، لكن ألا ترى أنني متوترة وغير سعيدة اليوم، وأنت إذا أجبرتني على الرد عليك يمكنني فقط أن أقول «لا»؟

فكّر في كلامها، وتفحص ملامحها جيداً. ثم قال بعد لحظة:

- لن ألحّ في الطلب أكثر الآن، لكنني سأمنحك يومين للتفكير في الأمر. فهل ستجيبيني في نهاية ذلك الوقت؟

تردّدت، وهي تعلم بالفعل ماذا سيكون جوابها، وأنه من الأفضل أن يقبل ردها في الحال. لكن بالنسبة إلى عدم خبرتها، بدا أنه من الأسهل تأجيل الأمر، حتى يتوافر لها الوقت لاستجماع أفكارها والرد عليه بلطفٍ وحسبٍ أكبر. قالت له: نعم، بعد يومين من فضلك.

لدهشته انحنى بشدة وغادر الغرفة على الفور، لكن الارتياح الذي شعرت به، جعلها سعيدة لأنها وجدت هذه الطريقة البسيطة للتهرب من هذا الموقف الحرج. في غضون يومين ستعرف أكثر ماذا تقول له.

كان «كا - رع» مندهشًا من صبره. حيث كان من الممكن أن يهددها دون أن يضطر إلى التوسّل إليها، ولم يستطع على الأقل فهم هذه الحالة المزاجية التي أثرت في أفعاله. لكن بينما كان في حضور الفتاة بدا أنه لم يكن هو نفسه، أو حتى أنه يعرف نفسه!

إذا كانت «أنيت» فقط تحبه، فكّم سيكون سعيدًا بحمايتها من ميراث الانتقام الخبيث لجدته! حتى لو لم تستطع أن تحبه، فقد كان مصممًا على الفوز بها زوجة له؛ لأن شوق قلبه كان في هذا الوقت أكبر من أن يُنكره.

لقد بدت الفتاة في دموعها وحزنها أكثر جمالًا من أي وقتٍ مضى، وبينما كان يقود سيارته ببطء إلى المنزل، غمرته نشوة العشق التي بدت غريبة تمامًا عن طبيعته الجامدة وغير الحساسة. في هذه اللحظة ربما كان يحب «أنيت» حقًا! لكن الرجل الشرقي عندما يعشق، يصبح عُرضةً لنوبات مفاجئة من العاطفة الشديدة، التي سرعان ما تستنفد أعصابه، ويعود بعدها إلى اللامبالاة الأصلية التي كان عليها!

عندما وصل «كا - رع» إلى المنزل، توجّه على الفور إلى الفناء، ودخل المكان المخصص للنساء. منذ أن سخر «ونستون» من علاقته مع «نفتيس» في ذلك الصباح، علّق الأمر في ذهنه وأزعجه. والآن، بعد أن انتعش بسبب لقائه بـ «أنيت»، بدأ يوبّخ نفسه على حماقته في جلب الفتاة النيلية الغبية إلى «القاهرة». لأنه، على الرغم من محاولته الاستمتاع بصحبتها، لم تستطع «نفتيس» تدمير حبه لـ «أنيت»، وقد تسبّب خنوعها ولا مبالاتها - رغم أنها كانت جميلة - في اشمئزازه منها؛ لتناقضها الحادّ مع بريق الفتاة الإنجليزيّة وبراءتها!

لم يشكّ أبدًا في أنه قريبًا سيجعل «أنيت» تحلّ محلّ «نفتيس». قرر فجأةً أن يُنهي علاقته مع الفتاة المصرية، التي كانت بمثابة خيبة أمل كبيرة له.

ارتسم على وجهه العُبُوس وهو يدفع الستائر جانبًا ويدخل مَخْدَع «نفتيس». إذ وجد الفتاة جالسة على الأريكة، و«الترجمان» بجانبها. كان الاثنان يدخان السجائر وهما

مستلقيان، و«تادرس» يحيط بذراعه حول خصر «نفتيس»!

لم يلاحظا حضور «كا - رع» في البداية. لكن عندما نظرا إلى الأعلى، وجداه يقف أمامهما وهو يطوي ذراعيه. تلاشى العبوس من وجهه الآن، بل على العكس شعر بالرضا؛ لأنهما أعطياه العذر الذي يريده!

قال بنبرة هادئة:

• «تادرس»، كُنْ خَلُوقًا واذهب إلى الفناء لتنتظرنني هناك

وقف «الترجمان» ونفض الرماد من سيجارته. وكان من الواضح أنه منزعج للغاية. بادر بالحديث بصوت عالٍ جدًا:

• «كا - رع»، إذا كنت تعتقد..

قاطعته الآخر بهدوء:

• اذهب إلى الفناء، من فضلك.

تردد «تادرس» ونظر إلى «نفتيس». كانت الفتاة تحديق بعيون مرتعبة في وجه سيدها، ارتجف «الترجمان» أيضًا. أما «كا - رع»، فكان وجهه جامدًا وغير مُعَبَّر كوجه تمثال. يعلم «تادرس» ماذا يعني ذلك؛ لذا كان يرتعب من هذا التعبير! مشى على أطراف أصابعه من الغرفة، وتعثرت بالسائير فسقطت من ورائه، فتشبَّث بستائر الردهة المؤدية إلى الغرفة المجاورة.

ظهرت «تيلجا» العجوز التي كانت ترتجف بشدة. لو كان السيد عربيًا، فقد فقدت حياتها بالفعل. لكنها لم تكن متأكدة مما سيفعله سيدها «المصري» في مثل هذه الظروف!

دعاها «كا - رع» لتقترب. ثم أشار بإصبعه إلى «نفتيس» وقال:

• أزيلني تلك الجواهر والمشغولات.

وبينما كانت المرأة العجوز تحاول الانصياع لأوامره، نهضت «نفتيس» وسألت بصوتٍ منخفضٍ مرتعب:

• ماذا ستفعل؟

لم يرد «كا - رع». فقط شاهد أصابع «تيلجا» المتوترة وهي تزيل عن «نفتيس» الإكليل والأقراط ودبابيس الزينة والأساور بسرعة، وألقته في كومة على الطاولة. استسلمت «نفتيس» بهدوءٍ حتى أمسكت «تيلجا» بعقد اللؤلؤ، عندها انكمشت وأمسكت برقبته لتحتفظ بكنزها الذي تحبه كثيرًا، هي تحب اللآلئ أكثر من أي شيء آخر.

أمسك «كا - رع» معصمها بقوة، ووضع يديها إلى جانبيها، بينما قامت «تيلجا» بفك عقد اللؤلؤ الثلاثي، الذي لا يُقدَّر بثمن، من رقبة الفتاة وأضافت إلى الكومة الموجودة على الطاولة. ظل «كا - رع» ممسكًا بها، حتى نزعت مُدبَّرة المنزل من أصابعها خواتم الماس والياقوت والزمرد. ثم تركها، بكت «نفتيس» وغطت وجهها بيديها.

أمر «كا - رع» بصرامة:

• اخلعي عنها ثيابها!

اندفعت «تيلجا» لتنفيذ أوامره، وعندما قاومت «نفتيس»، صفعتها الخادمة العجوز على وجهها بكفها. ثم قامت بنزع ثوبها الرائع؛ وكذلك الحزام الحريري والنعال الساتان، حتى وقفت الفتاة مجردةً من كل ملابسها، باستثناء الملابس الداخلية المصنوعة من الصوف.

قال «كا - رع»:

• اتركيها هكذا. والآن، أين عباؤها السوداء؟

جلبتها «تيلجا» على الفور من الخزانة في غرفة الملابس. وأحضرت أيضًا شال الرأس والحذاء الخشن.

كانت «نفتيس» تبكي بشكلٍ بائس، مثل طفل سُرقت منه ألعابه.

• لن أرتديها مرةً أخرى؟ لن أمتلكها؟ أخذتها مني!

راحت تنوح كما كانت تفعل بطبيعتها القديمة في قرية «الفدا»، لكن المرأة هزتها بغضب وصفعتها مرةً أخرى، وألبستها الثوب الخشن المُتسخ، ثم دفعت ظهرها على الأريكة، ووضعت الحذاء المسطح في قدمي الفتاة. كانت الدموع لا تتوقف في عيون «نفتيس» الجميلة، لكنها استسلمت للأمر المحتوم بأسلوبها القديم الخانع.

قال السيد:

- أرسلني لي «عبادي».
- ذهبت «تيلجا» وعادت مسرعة، والخادم العربي وراءها. أمره «كا - رع»:
- ستعيد هذه المرأة إلى «الفدا»، من حيث أحضرتها، وتسلمها إلى والدتها مرةً أخرى. يوجد قطار عند غروب الشمس، وستكون قادرًا على اللحاق به إذا أسرعت في ذلك. خذ عربةً حنطورٍ إلى المحطة.
- انحنى «عبادي» دون أن يندهش من أمر سيده غير المتوقع. ربما كان متيقظًا، ويعرف سبب طرد الفتاة! سأل:
- هل يجب على «سارة» العجوز أن تعيد لك أموالك؟
- لا. أخبرها أن تحتفظ بابتها وحسب. هذه العملات الذهب لمصاريك. أطعم «نفتيس» في محطة السكة الحديد، إذا كان لديك الوقت لذلك؛ واشتر لها بعض السجائر. هيّا، أسرع!
- أخذ «عبادي» الفتاة من يدها ليذهب بها. وأثناء مرورها بـ «كا - رع» توقفت وصرخت في وجهه بحدة ويأس:
- أكرهك، يومًا ما سأقتلك!
- ضحك «كا - رع» وكان في حالة مزاجية مرتفعة. قال لها وهو يشعر بالسعادة:
- وداعًا «نفتيس»، قولي لأمك إنني أرسل لها تحياتي!
- ثم غادر الغرفة ووجد «تادرس» واقفًا بثبات خارج الباب. قال له:
- اتبعني.
- أطاع «الترجمان» وتبعه. تقدم «كا - رع» الطريق إلى غرفته الخاصة وجلس في مواجهة «الترجمان»، ظل «تادرس» واقفًا. يمسك بيده عقب سيجارة محترقة، وينظر نحو «كا - رع» بعينٍ منكسرة، وظل «كا - رع» صامتًا، مستمتعًا بمراقبته! بعد فترة، سعل الرجل لتسليك حنجرتة، ثم قال:
- اسمع يا «كا - رع»، لقد اشتريت الفتاة أولًا، ودفعت لها مبلغًا جيدًا عندما كنت فقيرًا للغاية، وهذه حقيقة تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار. لكنك أجبرتني على بيعها... حقًا؟!

• نعم، من أجل لفافة بردِيّ صغيرة. أنا لا أشكو لأنني قبلت الصفقة. لكن يجب ألا تلومني على ما حدث. بحق «أوزوريس»! هل قلب الرجل يُشترى ويُبَاع كجسد المرأة؟ هذا أمر سخيف!

توقف قليلاً، ينقل حمل جسده من قدم إلى أخرى. ثم نظر إلى «كا - رع»، وشعر باستياء عندما وجده يحدق فيه بثبات.

أردف وهو يسعى جاهداً للتحدّث بثقة:

• لا ينبغي أن يكون هناك خلاف بيننا، لقد كنت مثل كلب عندك، ونفذت كل أوامرك، وقمت بأعمال قذرة من أجلك، كان ذلك مقابل أجر لا بأس به، أعترف بذلك. الآن، ماذا بعد؟ إذا أذيتني سوف يتسبب ذلك في سقوطك. أنت لا تجرؤ على فعل ذلك. لكنني صادق معك وخادم صالح لك. لا داعي للتوجُّس مني في المستقبل؛ لأنني سأعدك بتجنُّب حريمك، هذا وعد من «تادرس» الترجمان!

وبينما كان يتكلم، وصل إلى آذانهم صراخ شديد. أسرع «تادرس» إلى النافذة، نظر من خلال المَشْرِيبَةِ، رأى «عبادي» يدفع «نفتيس» التعيسة إلى العربة. نظر نحو سيده، وسأل بعصبية شديدة:

• ماذا ستفعل بالفتاة؟

• سأرسلها إلى «سارة».

ذهب «الترجمان» نحو الباب وهو يسبُّ ويلعن.

نادى «كا - رع» بشدة:

• عدُ إلى هنا!

توقف «تادرس» وتردد ثم عاد. لقد أدرك أنه لن يستطيع فِعْل أي شيء. قال متجهماً:

• حسنًا جدًّا، ستكون في «الفدا» أكثر أمانًا مما كانت عليه في «القاهرة». لكنك كنت قاسيًا يا «كا - رع». الرجل الذي يعرف معنى الرجولة الحقيقية، لن يعامل حتى الحيوان كما تعاملت أنت مع «نفتيس». كيف بعد أن تعلمها حياة الفخامة والرفاهية في القصور، تعيدها إلى كوخ من الطين في قرية مُقفرة على ضفّة النيل! هذا جُرم عظيم! أظن أنك أخذت أيضًا ثيابها ومجوهراتها، أليس كذلك؟

• نعم.

• يا لها من مسكينة! لكن لا يُجادل المرء مع الأفعى خوفًا من سُمّها!

- ضحك «كا - رع» باستهزاء من الحزن الذي بدأ على وجه «الترجمان». قال:
لقد وُلِدَتْ غيبًا، وستموت غيبًا يا «تادرس»! لا يوجد أي عذر في كل حديثك لي عن
خيانتك - الجريمة التي بحسب عاداتنا تستوجب القتل -، أنت تتهمني ببساطة
بالقسوة في طرد امرأة غير شريفة. أخبرني إدا، بعض الأسباب المعقولة التي تجعلني
لا أقتلك!

أصبح وجه «تادرس» شاحبًا، وأجاب بجديّة:

- هناك سببان: الأول هو أن قتلي قد يتسبب في وقوعك في مشاكل مع الشرطة،
والآخر هو أنك بحاجة لي!
• حسنًا جدًّا. السبب الأول ليس مهمًّا؛ لأنك يمكن أن تُقتل سرًّا، دون أن أعرض نفسي
للخطر؛ وهذه بلا شك، هي الطريقة التي سأقتلك بها يومًا ما! لكن تركك حيًّا يا
«تادرس» يكمن في السبب الثاني. أنا بالفعل ما زلت بحاجة إلى خدماتك، وسأسمح
لك بالبقاء في قيد الحياة حتى أكون متأكدًا تمامًا من عدم استخدامك مرةً أخرى!

أخذ «الترجمان» نَفَسًا عميقًا. قال:

- دعنا ننسَ ذلك، أعترف أنني كنت طائشًا إلى حدِّ ما، ولكن ماذا بعد ذلك؟ كل الرجال
طائشون في بعض الأحيان، وسوف تتوقف عن لومي عندما تكتشف مدى ولائي
لمصالحك.

لم يردَّ «كا - رع». كانت العربية قد ابتعدت منذ فترةٍ طويلة. قام «الترجمان» مرةً
أخرى بتغيير وقفته بشكل مضطرب. سأل:

- هل تسمح لي بالذهاب الآن؟
• نعم.

انسحب «تادرس» وقلبه مليء بالخوف والبغضاء. لكن الكراهية بقيت لفترةٍ طويلة،
حتى بعد أن هدا الخوف!

الفصل السادس عشر «كا - رع» يهدد

مرّ على «كا - رع» يومان غير مريحين، لم يشعر بالخوف من إجابة «أنيت» النهائية، لكن انتظارها كان مرهقًا بالنسبة إليه. كان من الممكن أن ينتهي الأمر بسهولة في المقابلة الأخيرة، لو لم يكن ضعيفًا أمام هذه الرغبة الحمقاء في تأجيل الأمر. منذ قدومه من «الفدا»، أصبح العالم العُوبة في يده، لم يجد أي صعوبة في إنجاز كل الأشياء التي أراد تحقيقها. لذلك؛ اكتسب ثقة غير محدودة في قوة تميمة الحظ الرائعة التي تخص جده «أخت - كا - رع»، كان يعتقد أن لها تأثيرًا قويًا على جميع مشاريعه. لذلك سعى «المصري» أثناء هذين اليوميين إلى شغل وقته؛ حتى يتمكن من إحضار عروسه - سواء أكانت راغبة أم غير راغبة - إلى قبيلاته الأنيقة.

أرسل «تادرس» لإحضر أشهر التجار في «القاهرة»، ورتب لإعادة تزيين أماكن النساء بأسلوب مَلَكِيّ. اختار العديد من الحرير والمُطرّزات الفاخرة لاستخدام «أنيت» عندما تحتاج إليها، ووفر عددًا كبيرًا من الخدم العرب، المدربين جيدًا على الخدمة المتميزة؛ لتلبية أصغر طلباتهم الجديدة. لقد قرر أن تكون حياته الجديدة، من الآن فصاعدًا على نسق الحضارة الأوروبية الحديثة، غرف الحرير هذه، يجب أن تتحول إلى صالونات وغرف استقبال.

وبعد زواجه من «أنيت»، سيتخلى عن كل العادات والتقاليد الشرقية، ويتبع آداب وعادات وتقاليد الحضارة الأوروبية الأحدث والأوسع. سيظهر زوجته أمام المجتمع، ومن خلالها يكتسب تمييزًا إضافيًا. ستشتهر قبيلاته بحفلاتها وكرم ضيافتها. على مثال تلك الحياة التي رسمها في خياله. والزواج من الفتاة الإنجليزية، سيجعل كل ذلك ممكنًا.

لقد قامت «حتاتشا» بتربية «كا - رع» وتدريبه لتنفيذ مهمة في وقت محدد. ولكن الآن هذه المهمة، وقسمه على الوفاء بها تم تجاهلها على حدّ سواء. لقد فكر في الأمر مؤخرًا، وقرر أن حبه لـ «أنيت كونسينور» ألغى أي التزامات لمزيد من المؤامرات ضدها أو ضد عائلتها. لقد ماتت «حتاتشا» ونسيها العالم، ولا يمكن تصحيح أخطائها بأي انتقام قد يلحق بأعدائها. لن تستطيع تقدير عدالة القصاص؛ لأن روحها الآن بعيدة في العالم السفلي مع «أنوبيس»، وجسدها في مقابر «الفدا».

كان، في البداية، يحافظ على تصميمه في تحقيق إرادة جدته، لكن عيون الفتاة هزمتها، وحتى «حتاتشا» نفسها أثبتت أنها ضعيفة عندما غلبها الحب. حتى عندما كانت جميع مخططاته تقترب من قطف الثمار، وكان انتقام جدته على وشك التحقيق، فإن القوة المُلحّة لحبه كبّلت يده، ودفعته إلى إلقاء كل ما قد يتعارض مع سعادته المحتملة بعيدًا.

بعد ظهر اليوم الثاني، ارتدى ملابسه الأنيقة وأمر سائقه بالاستعداد لتوصيله إلى فندق «ساقوي»، ولكن بينما كان على وشك مغادرة غرفته، أتته رسالة من «آنيث» مزق الظرف وقرأ الرسالة بلهفة:

«عزيزي الأمير «كا - رع»، لن أخطر بمقابلة أخرى معك، قد تكون غير سارة؛ لأنني قلقة من أن نظل في المستقبل، كما كنا في الماضي، أصدقاء ورفاقًا حميمين. من فضلك لا تطلب مني مرةً أخرى الزواج بك؛ لأن هذا الشيء مستحيل تمامًا. بينما يُسعدني الاستمتاع بصداقتك، لا يمكنني أبدًا أن أبادلك الحب، ومن دون الحب لا تستطيع المرأة الجادة الزواج. لذا أتوسل إليك أن تنسى أننا ناقشنا هذا الأمر في أي وقت مضى، ولا تحاول الرجوع إليه مرةً أخرى.»

صديقتك

«آنيث كونسينور».

ارتسم الغضب على وجه «كا - رع» عندما قرأ الرسالة، وتطاير الشرر من عينيه السوداء. قرأها مرةً ثانيةً بمزيد من الاهتمام، محاولاً أن يجد كلمة تعطيه بعض الأمل، أو حلاً وسطاً في هذه الرسالة المكتوبة بكل وضوح وصراحة. لكن لم يكن هناك شيء من هذا القبيل!

لقد اختبر إحساسًا بخيبة الأمل والحزن، مشوبًا بدهشة كبيرة. قد يبدو هذا غريبًا عليه، لم يتوقع أبدًا مثل هذا الرفض القاسي. لكن طبيعته المتهورة المتقلبة، جعلت الغضب يطرد كل المشاعر الأخرى من قلبه، صار غضبه يتعاظم حتى استولى عليه بالكامل.

ربما كانت تلك الضربة التي لحقت بتقديره لذاته، هي الأكثر فاعليةً في تدمير هذه العاطفة التي أخطأ في اعتبارها حبًا. على أية حال، لقد تلاشى هذا الحب بسرعة مذهلة! وفي أقل من نصف ساعة، لم يبق سوى القليل من الود تجاه الفتاة الإنجليزية التي صدته ورفضت طلبه. لقد قبل إجابتها على أنها قاطعة، وبدأ على الفور بإحياء خطته السابقة للانتقام. كل خطة من هؤلاء بدت رائعة ومثيرة مثل الأخرى بالنسبة إليه، وبدأ يستمتع في وعيه بأنه السيد الأعلى لمصير جميع أفراد عائلة «كونسينور». كانت «حتاتشا» على حق في نهاية الأمر. هؤلاء الإنجليز فاترون وغير مخلصين، ولا يستحقون تقديرًا من واحد أعراقه نبيلة مثله. لقد كان غافلاً وضعيفًا لبعض الوقت، لكنه قرر الآن أن يفي بقسمه الذي أقسمه للمرأة الميتة حتى النهاية!

مزق الورقة التي أشعلت غضبه، غادر الغرفة وقد عاد لنفس أسلوبه القديم. تعلق وجهه تلك النظرة التي يعرفها «تادرس» جيدًا ويرتعب منها! قال لسائقه:

• خذني إلى فندق «ساقوي».

كان «اللورد رون» قد حجز غرفة صغيرة في الطابق الأول من الفندق؛ ليستخدمها كمكتب له، يقوم فيه بالعمل على إنهاء بعض الأمور التجارية التي تقع ضمن اختصاصه. وجده «كا - رع» عندما دخل، أنه غير مشغول، أما «رون»، الذي يعرفه معرفة سطحية، استقبل الرجل بأدبٍ ووُدّ.

قال وهو يقدم كرسيًا:

• أسألك أن تجلس أيها الأمير، أنا في خدمتك تمامًا!

انحنى الآخر ببرود، وبدأ حديثه بصوتٍ هادئ:

• أخشى أن تكون مهمتي غير مقبولة بالنسبة إليك، يا سيدي!

رمقه «رون» بنظرةٍ خاطفة. ثم أردف، معتقدًا أنه فهم ما يقصده «كا - رع»:

• آه، سمعت أن ابني مدين لك بمبلغ كبير نتيجة خسارته في القمار، حتي الآن، كل ما وصلني مجرد شائعة، لكن إذا أتيت لتطلب مني التدخل في هذه المسألة، فأرجو أن أؤكد لك، إنني لست مسئولًا بأيّة حال من الأحوال عن ديون المقامرة الخاصة بـ «كونسينور».

هزّ «المصري» كتفيه بعُنفٍ وأجابه:

• هذه مسألة أخرى يا سيدي، لا يهمني مناقشتها الآن. ما أريده الآن، هو موافقتك على الزواج من حفيدتك.

ذهل «رون» وسأل، كأن ما سمعه ليس صحيحًا:

• أنيت؟! هل ترغب في الزواج من «أنيت»؟!

• نعم يا سيدي.

كان الأمير على ثقةٍ كبيرة، أن «اللورد رون»، على الرغم من انزعاجه الشديد بسبب المفاجأة، سيفكر بشكلٍ لا إرادي في عرض الزواج. فهو يرى نفسه وسيماً وكريمًا ومعروفًا بثرائه كالملوك. لكن الإنجليزي كان لديه كراهية طبيعية للأجانب؛ وخاصة ذوي البشرة السمراء. كانت فكرة إعطاء «أنيت» لـ «المصري» مُقرّزة بالنسبة إليه!

قال بتردد:

• هذه مفاجأة يا أمير! الفتاة لم تبلغ من العمر ما يكفي للتفكير في الزواج.

لم يردّ «كا - رع» على هذه الملاحظة.

استفسر «رون» بعد تفكيرٍ لبضع لحظات:

- آه.. هل عرضت عليها الزواج؟
- نعم يا سيدي.
- وماذا قالت؟
- رفضت الزواج بي، وأخبرتني السبب، أنها لا تحبني!

حقد «رون» في وجهه، وسأله بغضب:

- فلماذا إذا تأتي إليّ وتطلب الزواج منها؟!
- لأنه لا يجب السماح للفتاة بالاختيار لنفسها.
- ماذا؟ لا يجب؟!
- بالتأكيد لا يا «لورد رون»! لأن الكثير من الأمور تعتمد على رفضها. وفي الوقت الحالي، تقف حفيدتك في وضعٍ مُخزٍ في أعين العالم كله، بسبب ذلك الأب المحتال، الذي، كما قلت قبل لحظة، يدين لي بعشرة آلاف جنيه.

هتف به «رون» ساخطًا:

- العار لن يلحق بها بأي حال من الأحوال يا سيدي! حتى تلميحائك الحقيرة لا يمكن أن تُشين تلك الفتاة الطاهرة والبريئة. «كونسينور» رحل، وابنته الآن تحت حمايتي الشخصية. سأجعلها تحظى بالاحترام والتقدير اللذين تستحقهما، على الرغم من فعل والدها المُشين.

أجاب «كا - رع»، بهدوء يقابله انزعاج من الآخر:

- هذه الثقة التي تتحدث بها يا سيدي، في ظل هذه الظروف، شيءٍ سخيّف! في المستقبل القريب، عندما تواجه أنت أيضًا الفضيحة والسجن، مَنْ سيتبقى هناك لحماية سُمعة حفيدتك؟

أجابه «رون» بصخبٍ وسخط:

- أيها الوغد الشرير! كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا لتهاجمني وتُهينني! اخرج من مكثبي حالًا!

قال «كا - رع» دون أن يبدو عليه أي تغيير:

- أعتقد أنك ستكون سعيدًا لسماع المزيد، ربما لا تدرك أنني على علم بسرقتك للحكومة بالاتفاق مع المقاتل «مكفارلاند»!

سقط «رون» على كرسيه وهو يرتجف.

تمتم:

- هذا كذب!

قال «المصري» بجمود:

- هذه ليست كذبة. البراهين كلها في يدي، معي إيصالك لـ «مكفارلاند» مقابل المال المسروق!

نظر إليه «رون» ولم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه. شعر وكأنه فأر في مصيدة. من أكثر جهة غير متوقعة، سقطت عليه هذه الضربة في وقتٍ غير متوقع، وقد ندم بمرارة على عدم أمانته.

تابع «كا - رع» شرح تهديداته:

- الحكومة المصرية عندما تعلم الحقيقة لن تتعامل معك برحمة. حتى «اللورد كرومر» سيصرُّ على معاقبتك؛ لأنه سيستاء من أي اختلاس في إدارته، من شأنه أن يجلب إساءة لسمعة المستعمرة الإنجليزية هنا. يجب أن تكون مدركًا للخطر الذي يواجهك، دون الحاجة إلى لفت انتباهك إلى هذه الحقيقة، وحتى لا يكون لديك أي أمل في الهروب إلا من خلال العفو الذي أمنحه أنا لك!

سأل النبيل العجوز وقد تحشرج صوته:

- ماذا تقصد؟
- هذا السر في حوزتي حتى الآن. وأنت لست بحاجة للكشف عنه. أعطني «آنيت» زوجة، ولن تؤمن سلامتك فحسب، بل ستري أنك لن تحتاج شيئًا في المستقبل. أنا ثري بما يكفي لأعد بذلك.
- لكن الفتاة رفضتك!
- لا يهم. سوف تُجبرها أنت على قبول الزواج مني.

نهض «رون» على قدميه وهتف به غاضبًا:

- لا، بحق السماء لن أفعل هذا! الجحيم وكل شياطينها لن تجبرني على جرّ تلك الفتاة البريئة إلى مستواي الحقير. أنا مجرم وحمار؛ لأنني لا أملك قدرةً أخلاقيةً على مقاومة الإغراء، لكن حتى بحالتي هذه، قلبي ليس أسود مثل قلبك، يا أمير «كا - رع»!

استمع «المصري» بلا حراك. قال:

- الأمر يستحق المزيد من الدراسة المتأنية، المشاعر جميلة جدًا عندما لا تتعارض مع السلامة الشخصية. لكنك تحتاج لفحص حالتك؛ لتعرف كيف سيكون الحال وأنت في حالة الراحة والرفاهية من ناحية، أو الفضيحة والسجن من ناحية أخرى.

ردّ الرجل العجوز على الفور:

- كل هذا لن يساوي شيئًا مقابل سعادة «آنيت، بلّغ عني بأسرع ما تريد يا سيدي؛ لأن لا شيء على الإطلاق سيغريني لإنقاذ نفسي من نتيجة حماقتي، على حساب تلك الفتاة المسكينة. والآن، اذهب!

ابتسم «كا - رع» باحتقارٍ وقال:

- كم هو ممتع أن أراك تثور! لو لديك نفس القدر من الأمانة مثل غضبك الآن، فلن يكون لديك سببٌ للخوف مني!

ردّ «اللورد رون» بتحدّ:

ولا أخافك الآن. هات أسوأ ما عندك أيها الرُنْجِي سيئ السمعة؛ لأنك لن تستطيع رشّوتي بأيّ شكلٍ من الأشكال لقبول عرضك المخزي.

احمرّ وجه «كا - رع» عند سماعه هذا اللقب، لكنه لم يرد، حتى قام وبدأ يتحرك نحو الباب. ثم استدار وقال:

- ستقدر حجم الخطر المحدق بك بشكلٍ أفضل يا «لورد رون»، إذا أخبرتك أنني لست سوى أداة لامرأةٍ مصرية تُدعى «حتاتشا»! هذه المرأة التي دمرت حياتها وسعادتها بلا مبالاة ذات يوم. لم تنسَ ما فعلته بها، وانتقامها منك أنت وعائلتك سيكون مُروّعًا، صدقني، إلا إذا اتفقت معي على دَرّئه بدلًا من تنفيذه. مصلحتي الشخصية تدفعني إلى المساومة معك. ماذا تقول يا سيدي؟ هل نناقش هذا الموضوع بشكلٍ كامل، أم ما زلت ترغب في أن أذهب؟

كان «رون» يحدق به بانزعاج شديد. لقد أتت على رأسه آلاف الذكريات عند ذِكر اسم «حتاتشا»، وتملّكه الذعر وهو يتذكّر معاملته لها. لذا؛ فقد كان خائفًا وتساءل في نفسه إذا كان مُضطّرًا بالفعل للتحدّث مرّةً أخرى مع «كا - رع»!

كرر «كا - رع» سؤاله: أذهب يا سيدي؟

كان الجواب، بـ «نعم». بدا وكأنه انتزع من صدر الرجل العجوز، الخفقان بسبب شجاعته التي انتصرت على جُبْنه في هذه اللحظة.

عبس «كا - رع». وأصيب بخيبة أمل. لكن المزيد من الجدل كان عديم الفائدة، ذهب بعيدًا، تاركًا «رون» في زهول مما كشفت عنه هذه المقابلة.

الفصل السابع عشر «أنيت» تستسلم

ذهب «كا - رع» مباشرةً إلى منزل «أنيت»، وهو مُصرٌّ على رؤيتها. شعرت الفتاة بضيق شديد بسبب هذه الزيارة المفاجئة، واعتقدت أن «المصري» كان يرغب فقط في تجديد عرضه بالزواج، حاولت جاهدةً تفادي هذه المقابلة. وكانت السيدة «إيقرينجهام» معها في ذلك الوقت، وفي حيرتها أخبرتها «أنيت» في بضع كلمات موجزة عن افتتان «كا - رع» بها، وطلبت نصيحتها حول كيفية التصرف في ظل هذه الظروف العصيبة.

كانت السيدة «إيقرينجهام» امرأةً حكيمةً وذات شخصية قوية. طويلة القامة وجميلة بشكل مثير للإعجاب، مع جمالها هذا، كانت كريمة بامتياز. هي زوجة مهندس بارز، وقد عاشت كثيرًا في بلاد الشرق، واعتادت على الكثير من الأمور غير التقليدية؛ وكذلك على الحياة الاجتماعية التي تمثل طبقتها. على الرغم من أن السيدة تكبر «أنيت» كثيرًا في العمر، فقد تعلقت بالفتاة الوحيدة منذ لقائهما الأول، وأخذتها بكل سرور، كما تقول «تحت جناحها»، وعاملتها كذلك بقلبها الطيب، حتى أصبحت «أنيت» تعتمد على صديقتها في نواح كثيرة، وها هي تلجأ إليها الآن في هذه الحالة الطارئة.

نصحتها السيدة «إيقرينجهام»، بعد تفكير مُتأن:

- أعتقد أنه سيكون من الأفضل أن تقابليه. إذا تهرَّبت من تفسير موقفك له، سيظل بلا شك يريد أن يفرض عرضه عليك، فهو من النوع الذي يزعجك باستمرار حتى تمنحيه مقابلة. لذا؛ من الأفضل أن تقابليه مرةً واحدةً وتحسمي معه الأمر، لكن أيضًا بطريقة لطيفة، وذلك حتى لا تتركي أي أمل يبرر له تجديد طلبه.

توسلت لها «أنيت»:

- ألن تبقى معي يا «لولا»؟

ابتسمت السيدة «إيقرينجهام» قائلة:

- لن يكون ذلك مقبولاً للأمير «كا - رع»؛ لأن وجودي سيحرجه ويسبب له الشعور بالمهانة بلا داع. لكن سأكون في الغرفة المجاورة، بحيث أكون إلى جانبك لكن دون أن يراني هو. كوني شجاعة يا عزيزتي «أنيت». غالبًا ما تفرض هذه الواجبات البغيضة على النساء اللاتي لديهن، مثلك، جاذبية في كسب قلوب الرجال دون وعي! أشعر بالأسف للأمير المسكين، لكنه ليس من عرقنا، وما كان له أن يقع في حب فتاة إنجليزية!

قَبِلْتُ «آنيت» وذهبت إلى الغرفة المجاورة، كان يبدو عليها التأثر وهي تترك الباب مفتوحًا. تنهدت «آنيت» ودعت خادماً يأذن لـ «كا - رع» بالدخول، عندما دخل «المصري»، لم تدلَّ طريقته بأي شكلٍ من الأشكالٍ على يأسٍ عاشقٍ مرفوض، أو حتى رغبةٍ مَنْ يأمل في الاستجابة لعرضه بالزواج. بدلاً من ذلك، انحنى بفتور، ولكن باحترام عميق، وقال:

- أرجو المعذرة يا آنسة «آنيت»؛ لأنني أَلَحْتُ في طلب هذه المقابلة، لكنها كانت ضرورية!

قالت الفتاة:

- سامحني أيضًا يا أمير، لا أستطيع أبدًا...

لَوْح بيده بلا مبالاة واستخفاف، فوقفت عن الكلام. قال:

- لن أطلبك بتكرار ما قُلْتِه في رسالتك، قد أطلب منك عكس قرارك، لكن الأمر الآن، سيكون مسألة مصلحة بيننا، ولن يكون للعاطفة دورٌ فيها.

أجابت وهي تنكمش إلى الوراء بسبب نظرتة الصارمة:

- سيّدي أنا.. أخشى أنني لا أفهمك!

- اجلسي، وسأشرح لك.

أطاعت بصمت، بعد أن استعادت السيطرة على أعصابها إلى حدٍّ ما. رغم غرابة حديثه، فإنه في النهاية أكثر احتمالاً من إعادة طرح عرضه بالزواج، وفي سذاجةٍ رحّبت بأيِّ موضوعٍ آخر غير الحديث عن الحب.

تحدث «كا - رع» بصراحةٍ شديدة. بدأ قائلاً:

- إن الفضيحة التي سببها احتيال والدك، ما زالت حديثة جداً لدرجة أنك لم تنجني بعدُ من آثار تلوّثها لسمعتك، «اللورد كونسينور» قد غادر «القاهرة» مديناً لي بنحو عشرة آلاف جنيه. وحتى لا يكون لديك أي مجال للشك في كلامي، رجاءً افحصي هذا الإيصال. لقد شهد عليه اثنان من السادة المحترمين المقيمين في هذه المدينة.

سلمها الورقة وأخذتها لتفحص المكتوب بها.

أردف قائلاً:

- وفقًا لقوانيننا، يمكنني رفع دعوى لاسترداد هذه الأموال ضد أي فرد من عائلة «كونسينور»، أنا متأكد من أن مثل هذا العمل من شأنه أن يدمر سمعة «اللورد رون» تمامًا!

الآن، صارت خائفةً منه أكثر، لكنها تحلّت بالشجاعة وكلمته بفخر:

- لن يكون ذلك مهمًا يا سيدي، «اللورد رون» سوف يفي بكل سرور بأي التزام مادي عادل، حتى لو تركه ذلك مفلسًا!

أجاب «كا - رع» باستهزاءٍ صريح:

- سيدي اللورد لا يتحدث عن نفسه بمثل هذا الفخر! لكن الإيصال الذي في يدك غير مهم حقًا. لقد ذكرت ذلك فقط للتأكيد على الدين الذي تدينين به لي أنتِ وجدك. لقد أفلت والدك بذكاء من عمله الشائن بالفرار. ولسوء الحظ، «اللورد رون» غير قادر على فعل الشيء نفسه.

انزعجت بشدة من قسوة تصريحات «كا - رع». احتجّت قائلة:

- لن يلوم أحد «اللورد رون» على أخطاء ابنه.

أجاب:

- ليس هذا ما أقصد. في الحقيقة، فعلة «رون» أكثر خطورةً من تلك التي ارتكبها ابنه؛ لدرجة أنه إذا تم اكتشافها، لا يمكنه الهروب من الحبس في السجن!

زفرت «آنيث» من الرعب. كان الاتهام في بادئ الأمر لا يمكن تصديقه. لكن ثقة «كا - رع» في حديثه كانت واضحة جدًا، وتذكّرت الفتاة فجأة، تلك الحياة المشينة لجدها، وجعلتها تخشى المزيد من التساؤل.

على أية حال، لم يكن ذلك ضروريًا؛ لأن الرجل استمر بهدوء في شرح تفاصيل جريمة «مكفارلاند» ومشاركة جدها فيها، بينما جلست الفتاة بعيونٍ مفتوحةٍ وارتسمت نظرة اليأس على وجهها الأبيض.

أخيرًا، أظهر «كا - رع» ورقة ثانية. قال بلطفٍ أكثر:

- هذا يا آنسة «آنيث»، هو الإيصال الموقَّع من «اللورد رون» على نصيبه من الأموال المسروقة. هذا دليل دامغ ضده، وسوف تتعرفين بالطبع إلى توقيعه. علاوة على ذلك، يمكنني تقديم شاهدين على الجريمة، وهي جريمة عقوبتها - كما أشرت منذ

قليل - السجن لمدة طويلة، بالإضافة إلى العار في كل السنوات القادمة. لكن هذا فقط في حال اكتشافها! لأنه لا توجد عقوبة مفروضة على جريمة غير مُكتشفة. أنا شخصياً لا أرغب في رؤية «اللوردون» مُهاناً ومُرسلاً إلى السجن، أو والدتك المريضة مفلسة، وأنتِ، أنتِ نفسك، متروكة تحت رحمة عالم شرير؛ لذلك جئت إلى هنا اليوم، لإنقاذكم جميعاً من عواقب حماقة «رون»، فقط إذا سمحت لي بذلك!

حاولت «آنيث» السيطرة على حيرتها. أرادت أن تفكر بهدوء. لقد وصف «كا - رع» جريمة «اللورد رون» بكل تفاصيلها؛ لدرجة أنها رأت كل شيء أمامها كما لو كانت في حلم، وأدركت أن قدم الرجل العجوز كانت تتعثر على حافة حفرة لا قاع لها. لكن الكلمات الأخيرة لـ «المصري» - إذا سمعتها صحيحة - بدا أنه يعدُّ بفرصة لإيقاظها وطردها هذا الكابوس.

سألت بضجر:

- كيف يمكنك أن تنقذنا؟
- بأن تصيري زوجتي، كل شيء في يدك الآن يا آنسة «آنيث». أنا وحدي أستطيع حماية «اللورد رون» من أي احتمال لاكتشاف جريمته، وسأفعل ذلك إذا وعدتني الآن بالزواج. وأكثر من ذلك، سأدفع جميع الرهون العقارية على ممتلكات جدك؛ حتى يعيش في راحة فيما تبقى من حياته، وبتقدير واحترام من الجميع. وستحصلين على إيصال الديون على والدك بمجرد أن أحصل على وعدك منك الآن، كإثبات لحسن نيتي.

سألته مرتجفة:

- وإذا رفضت؟
- ستجعليني عاجزاً عن المساعدة! ويؤخذ جدك المُسن إلى السجن، مذلولاً ومهاناً دون أي أمل في الخلاص!
- لا لا! لا أستطيع أن أفعل ذلك! لقد كان جيداً معي، وأحبني بكل قلبه، لا أجرؤ، لن أضحي به من أجل سعادتي!

قال «كا - رع» ونغمة الانتصار تعلو في صوته:

- هذا ما كنت أتمناه! هل تتعهدين، بشرفك، بأنك ستتزوجيني مقابل حمايتي لجدك من عواقب جريمته؟

أجابت وهي تشبك يديها مرتعشة:

«نعم».

• «وسوف تأتي إليّ في أي يوم وساعة أحدها؟
نعم.

• هتفت السيدة «إيقرينجهام» وهي تركض لتحتضن الفتاة بين ذراعيها:
«أنيت»! «أنيت»! ماذا قلتِ ماذا فعلتِ؟

كررت «أنيت»:

• ماذا فعلتِ؟ لماذا يا «لولا»، لقد أنقذتِ جدّي العزيز من الخزي والخراب.
صرحت المرأة:

• لا يجب أن تفي بهذا الوعد!

واستدارت بغضب نحو «كا - رع» وأردفت، لقد انثُزع منك تحت التهديد والابتزاز،
وهذا الوغد يلعب على قلبك الطيب المُحبّ. لن تفي بوعدك السخيف هذا أبدًا!

ردت «أنيت» بشجاعة:

بلى! لقد أعطيت كلمتي، وسألتزم بها.

وضع «كا - رع» ورقةً على المنضدة. قال:

• هذا إيصال والدك يا أنسة «أنيت». يمكنك تمزيقه.

تردد لحظة، ثم أضاف الورقة الثانية، وهذا إيصال جدك بالمال المسروق. أنا أثق تمامًا
في حُسن نياتك؛ لهذا أترك أدلة الإدانة كلها بين يديك. طابت ليلتك!

بأدبٍ شديدٍ تركها، وغادر من الغرفة، ورفعت السيدة «إيقرينجهام» الفتاة بين
ذراعيها القويتين، وحملتها إلى الغرفة المجاورة لتضعها بحنانٍ على سريرها. كانت
الصدمة شديدة وقاسية، حتى أغشي على «أنيت» وسقطت!

الفصل الثامن عشر البحث عن مَخْرَجِ!

تحمل «جيرالد ونستون» عدة أيام بائسة وغير مريحة بعد فضيحة «اللورد كونسينور» علانية. كان يتوق إلى مقابلة «أنيت»، لكنه لم يجرؤ على التطُّل، واكتفى بإرسال باقة من الأزهار إليها كل يوم. ومع ذلك، قرر أخيراً رؤية السيدة «إيقرينجهام» للسؤال عن حال «أنيت»، وما إذا كانت فضيحة والدها تجعلها حزينة ومكتئبة كما كان يخشى.

وجد السيدة «إيقرينجهام» في غرفتها في «ساقوي»، وقال على الفور:

• أريد أن أسألك عن الآنسة «كونسينور».

قال ذلك بعد أن رحباً ببعضهما بحرارة؛ لأنهما كانا صديقين حميمين وكانت هي سعيدة بقدمه.

كان ردُّها:

• «أنيت» حزينة للغاية!

تابع بحسرة:

• أنا أتفهم بالطبع شعورها بالخزي! رغم أنني كنت أمل أن تكون شجاعة، وألا تتأثر بهذه الظروف المؤسفة كثيراً.

أجابت السيدة «إيقرينجهام»:

• إنها شابة صغيرة، ولا يمكن أن تتعامل في مثل هذه الأمور بحكمة كما نفعل نحن. علاوة على ذلك، يجب أن تتذكر أن مشكلة «اللورد كونسينور» تمس سمعتها أكثر من أي شخص آخر.

• ربما تتأثر سمعة الزوجة أكثر!

• أوه، الزوجة المسكينة لا تعرف شيئاً عن ذلك! تمضي وقتها في الاهتمام بأمراضها، وبالكَاد ترى ابنتها. أتعلم يا «جيرالد»؟ أتساءل أحياناً، كيف يمكن لفتاة أن تكون لطيفة ورقيقة للغاية رغم بيئتها السيئة المأساوية هذه!

• أنا أعرف ما تعنيه، لقد لازم «اللورد كونسينور» سمعة سيئة في وطنه إنجلترا، وفي السنوات الماضية كانت حياة «اللورد رون» أيضاً مُشينة إلى حد ما. لكن يبدو أن الرجل العجوز، يتصرف بشكلٍ لائقٍ للغاية منذ قدومه إلى مصر، ومن الممكن أن يكون قد أصلح من نفسه.

• لم تردّ السيدة «إيقرينجهام» على الفور، بل جلست تتأمل حتى سألت فجأة:
«جيرالد»، هل تحب «أنيت»؟

احمرّ وجه الرجل وتلعثم وهو يحاول البحث عن كلمات للرد. منذ مقابلته مع «كا - رع» اعترف أمام نفسه أنه يحب «أنيت»، لكن أن يكتشف شخص آخر سرّه، قد يملأ هذا الرجل بالارتباك!

تلعثم، ولكسب الوقت قال:

• لماذا تسألين؟

قالت بجديّة: لأن الفتاة تحتاج إلى أصدقاء حقيقيين ومُحبّين في هذه اللحظة، أكثر مما تحتاجه طوال حياتها القادمة.

- سأكون صديقًا مخلصًا لها في كل الأحوال.
- ولكن يجب أن أعرف أكثر من ذلك، قل لي بصراحة يا «جيرالد»، هل تحبها؟
- نعم.
- حسنًا، هل تحبها بما يكفي لتتضمني أن تجعلها زوجتك، على الرغم من تاريخ عائلتها المشين؟

قال مرةً أخرى، «نعم»، ونظر إليها مُستفسرًا!

- إذًا، سأعترف لك بسرّ خطير. لأنه من الصواب أن تكون على علم بما يجري. لأنك أنت فقط - بمساعدتي - تستطيع أن تسعى لإفشال المؤامرة الماكرة، التي قد تتسبب في إبعاد «أنيت» عنك إلى الأبد!

وأخبرته عن تفاصيل المقابلة التي سمعتها بين «كا - رع» والفتاة، وعن الوعد الذي قطعه «أنيت» لإنقاذ جدها من العار بزواجها من «المصري».

هتف الرجل بغضب:

- لكن هذا هُراء! كيف لرجل أحقق، أن يرغب في إجبار أيّ امرأةٍ على الزواج منه! هو وغد ليستخدم هذه الوسائل لتحقيق غرضه!
- أنا أعرف، لقد ناقشت هذا الأمر مع «أنيت» طويلاً وبجديّة، لكن كل ذلك دون جدوى. هي مصممة على التضحية بنفسها لإنقاذ «اللورد رون» من هذا العار، والأمير «كا - رع» غير مرّن تمامًا بخصوص هذا الأمر. لسبب غير معروف، قرر أن يتزوج هذه

- الفتاة، رغم أنه لا يتحدث مثل عاشق، ورغم أنها أخبرته صراحةً أنها لا يمكن أن تحبه أو حتى تحترمه. حقًا، يبدو أمره غريبًا وغير مفهوم!
- أنا أعرف السبب جيدًا! إنه يتصرف تحت تأثير أقوى وأشرس شعور بشري شرير (الانتقام). إذا كنت تفضلين الاستماع، يا صديقتي، فسأحكى القليل عن قصة، ستمكّنك من فهم غرض «المصري».

شرع في سرد قصة «حتاتشا» و«اللورد رون»، مضيّفًا أسبابه للاعتقاد بأن «كا - رع» قد فكّر منذ البداية في تدمير عائلة «كونسينور» بأكملها.

هتفت السيدة «إيقرينجهام» بسخطٍ شديد:

- هذا مُروّع! إذا كان ما تقوله صحيحًا، فإن هذا الأمير، هو نفسه حفيد «رون»، وبالتالي ابن عمّة «أنيت»!
- لقد لفتت انتباهه إلى هذه الحقيقة، وهو أعلن أنها لا تمنعه من الزواج منها. أتخيّل أن قصده الحقيقي هو أن علاقة القرابة لا تمنعه من المضيّ في تنفيذ خطته الشائنة.
- لكن هل يعرف «اللورد رون» بهذه التضحية التي ستقدمها حفيدته من أجله؟
- لا، وقد جعلتني «أنيت» أعدّها بإخفاء السرّ عنه. لا أظن أنه سيكون قادرًا على مساعدتنا بأي شكل من الأشكال، إذا كان يعرف كل ما نعرفه.
- ربما لا. هل القصة صحيحة؟ هل اختلس «رون» هذه الأموال بالفعل؟
- لا أعرف.

فكر «چيرالد» مليًا ثم قال:

- أظن أن أول شيء يجب أن نفعله، هو اكتشاف حقيقة ادّعاء «كا - رع». ربما يكون لُفّق التهمة للعب بأعصاب «أنيت» ومشاعرها، وقادها إلى الموافقة على الزواج منه ضد إرادتها.
- هذا صحيح. لكن كيف يمكننا التحقق من الأمر؟
- هذا سهل جدًا. سأذهب غدًا إلى قناطر «رشيد» وأتفحص السد. بعد ذلك يمكنني البحث في السجلات واكتشاف نوع العقد الذي كان لدى هذا المقاول «مكفارلاند»، ومقدار الأموال التي جمعها من أجل التنفيذ. سيعطينا ذلك حقيقة الأمر، ويمكنني تحقيق كل ذلك في غضون يومين.
- حسنًا، ولكن افعل ذلك بأقصى سرعة؛ لأن كل يوم له ثمن. لا نعرف في أي وقت قد يطلب الأمير من الفتاة أن تفي بوعداها.

ناقشا الأمر معًا لوقتٍ طويل، ثم انصرف «ونستون» استعدادًا للحاق بالقطار في الصباح الباكر.

• في مساء اليوم التالي، قابل السيدة «إيقرينجهام». سألته بشغف:
حسنًا، ماذا اكتشفت؟

أجاب بيأس:

• كل هذا صحيح! تم الخداع بذكاء، وبالطريقة التي شرحها «كا - رع» لـ «آنيت». ليس هناك شك في تورط «اللورد رون». وليس هناك شك أيضًا، في أن «كا - رع» يمتلك النفوذ والقوة لفضحه وسجنه، إذا أراد ذلك!

قالت السيدة «إيقرينجهام» بحزم:

• إذاً يجب أن نجد طريقةً أخرى لإنقاذ «آنيت». الفتاة المسكينة مكسورة القلب، وتبكي طوال الوقت لأنها وحيدة في بؤسها. صحيح أن «اللورد رون» يحاول باهتمام أن يواسيها، وأنا متأكد أنه يحبها أكثر مما يتخيل أي إنسان، لكنه يظن أنها حزينه على والدها ولا تعرف عن أمره شيئًا!
• هل ما زالت مصممة على الوفاء بوعددها؟
• نعم، لقد قلت كل ما يمكنني قوله لتحريك مشاعرهما. الفتاة لديها طبيعة لطيفة ومحبّة، ولكن تحت هذه الطبيعة الرقيقة، يوجد إرادة من حديد وعناد الشهداء الأبطال. هي تعتبر سعادتها لا شيء بالمقارنة مع سلامة جدها.

سأل وهو يذبُّ على الأرض بعصبية:

• إذاً ماذا يمكننا أن نفعل؟

أجابت السيدة «إيقرينجهام» على الفور:

• يجب أن نلجأ إلى المكر مثلما فعل «كا - رع» هذا؛ لنقنع «آنيت» بعدم الوفاء بهذا الوعد الأحمق.

وقف أمامها ليقرأ تعابير وجهها بحثًا عن حل:

• أخشى أنني لا أفهم تمامًا!
• أعتقد يا «جيرالد».. لا، أنا متأكدة أن الفتاة تحبك، لقد استفسرت منها بطريقة ذكية أثناء غيابك، وقدّتها إلى الحديث عنك، كنت أراقب عينيها وهي تتحدث عنك. في رأيي، هذا الحب الذي لا تبوح به، هو ما يجعل تضحيتها جسيمةً للغاية، وسينتهي الأمر بكسر قلبها.

احمرَّ الرجل خجلًا مثل الفتاة عند سماع ذلك! ولكن من الواضح أن هذا الكلام جعله مطمئنًا وسعيدًا. قال:

• أنا لا أفهم حتى الآن يا سيده «إيفرينجهام»!

أجابت مبتسمة:

• أنت لست غيبًا يا رجل! يجب أن تصبح وسيلةً لإنقاذ «أنيت» من نفسها. في غضون لحظات قليلة سأخذك لرؤيتها. غرفتها تقع على الجانب الآخر من القاعة، من دون شك في هذه اللحظة، هي بمفردها، فقد غادر «اللورد رون» الفندق منذ ساعة. ستقابلها هذا المساء وجهًا لوجه، ولكن بعد ذلك يجب أن تلعب دورك جيدًا، وأن تبذل قصارى جهدك لتنتزع اعترافًا من «أنيت» بأنها تحبك. عندما تفعل ذلك، ستفوز قضيتنا!

• ولم تفوز؟

• ألا تفهم يا «جيرالد» لن تدمر أي فتاة عاقلة حياة الرجل الذي تحبه، لإنقاذ جدها من عواقب أخطائه. إذا كانت على استعداد للتضحية، فسنسمح لها بالتضحية بـ «اللورد رون» بدلًا من نفسها أو منك.

• أوه! لا يمكنني فعل ذلك، سيده «إيفرينجهام»!

• لم لا؟

• لن يكون الأمر صادقًا أو عادلًا. وسأشعر في داخلي أنني أناني وغير شريف! لكنني لا أفكر فيك على الإطلاق، يا سيدي إلا كوسيلة إنقاذ. أفكر في «أنيت» وسعادتها في حياتها. هل أنت على استعداد، من جانبك، للتضحية بها لرجل مثل «كا - رع» حتى يسحقها إرضاءً لانتقامه؟

• لا؛ لكن..

• هل تسمح لها، في عماها وحماقتها، أن تحطم قلبها وتدمر حياتها، بينما يمكنك إنقاذها؟

• بالطبع لا!

• الصراع بينك وبين «كا - رع». «اللورد رون» أخطأ، وإنقاذه من العقوبة بسبب أفعاله سيكون مجرد تأجيل لليوم الذي سيتم فيه اكتشاف أفعال إجرامية أخرى له. لا يوجد إنقاذ متاح لرجل أمضى سني حياته في ارتكاب الأخطاء، ولكن إذا كانت الاحتمالية موجودة، فسيكون الثمن فادحًا جدًا. لأن الرغبة في حماية هذا النبيل الفاسد وإعطاء الفرصة لـ «كا - رع» يعني ببساطة تدمير «أنيت»، يجب أن نفكر في حبكما المتبادل واحتمال حياة طويلة من السعادة لكما. هل تجرؤ على التردد يا «جيرالد»؟

أجاب بتهوُّر:

- سأفعل بالضبط كما قلتِ يا سيّدة «إيقرينجهام»، لا يمكنني السماح لها بالذهاب إلى هذا الشرير، إلى المصير الرهيب الذي ينتظرها. قولي لي ماذا أفعل، وسأطيع!
- واجبك الأول هو أن تأتي معي إلى غرفتها. واترك هذا الوجه العابس يا سيدي! كُن مبتهجًا ولطيفًا، واجذب «آنيت» بحنانك كما لو كنت تجهل تمامًا الوضع المؤسف الذي تعيش فيه. رتّب أمورك للحضور مرةً أخرى غدًا، ولا تتركها بمفردها ليلةً واحدةً في الأيام القادمة، لاحقها كل ساعات اليوم. وتذكّر أن الوقت ثمين، والوضع يتطلب كل مهاراتك وحنكك. لا يجب أن يطول وقت مواعيدك لها. يجب أن تنتزع اعترافها بحبك في أسرع وقت.

قال بتوتر:

- أنا.. سأحاول.

التقى «چيرالد» مرةً أخرى بـ «آنيت»، للمرة الأولى منذ أن حلّت بها هذه المصيبة، وأدى دوره بشكل جيد؛ لدرجة أن السيدة «إيقرينجهام» لم يكن لديها سوى تحفُّظ على خطأ بسيط في تنفيذ تفاصيل الخُطة التي وضعتها له.

لقد أثار منظر جفون الفتاة المنتفخة وتعابير الحزن والاستسلام على وجهها، شفقتة عليها وسخطه على المؤامرة الخسيصة التي دُبّرت للوقوع بها؛ لدرجة أنه لم يستطع كبح مشاعره وتعاطفه لإعلان حبه على الفور، وحثها على إعطائه الحق في حمايتها.

يبدو أن «آنيت» شعرت بحبه لها في تعابير وجهه المتلهف؛ لأنها كانت تتشارك مع السيدة «إيقرينجهام» في أحاديث قليلة عنه، وكانت الأخرى تلمح باستمرار أن «ونستون» أفضل حماية لها، لقد أصبحت تنسى قلقها ومخاوفها في تلك اللحظات التي تقضيها معه. ترددت للحظة عندما اقترح «چيرالد» إحضار كتاب جديد لها بعد ظهر اليوم التالي، لكنها وافقت في النهاية. وذلك تركه يشعر بالأمل أكثر!

منذ ذلك المساء، اختفى خجله السابق، وتصرف بحريّة أكثر، متجاهلاً تمامًا رغبة «آنيت» الواضحة في منعه من التحدُّث بصراحة عن شعوره تجاهها. لكن حتى هي نفسها، كانت في بعض الأحيان تنسى مصيرها الوشيك، وتُفسح المجال لنفسها أمام بهجة هذه اللحظات السعيدة. هي تعلم بالفعل أن «چيرالد» يحبها، بسبب غريزة المرأة المتيقظة بداخلها، أما في الليل، فكانت ترقد في فراشها وتنوح حزنًا؛ لأن أبواب الجنة قد فُتحت فجأةً أمامها، لكنّ قدميها مقيدتان عن الدخول!

خلال هذه الأيام، كرّس «اللورد رون» الكثير من وقته لحفيدته، وعاملها بحنان بالغ، وسعى بكل طريقةٍ ممكنةٍ لرفع معنوياتها. لقد أدرك الرجل العجوز أن فترة مراقبته قد تكون قصيرة. لأن «كا - رع» قد ينفذ تهديده في أيّة لحظة ويفضحه أمام

السلطات، كان يجلس في مكتبه وهو يقبض على أنفاسه طوال الوقت، كلما سمع وقع أقدام، تصور أنه مسئول قادم لاعتقاله. حتى إنه تساءل لماذا لم يأت أحدهم ليقبض عليه حتى الآن! دون أن يعرف شيئاً عن الطريقة التي أنقذته بها «آيت».

وقد شجّع الفتاة على تنفيذ اتفاقها مع «كا - رع»، استماتةً جدها في رعايتها ومحبتها، رغم وضوح معاناته، التي غالباً ما ارتسمت على وجهه الوسيم، فهي تفضّل التضحية بنفسها، على رؤية جدها المُسنّ يلقى في السجن، مذلولاً ومُهاناً.

كانت الفتاة بالفعل في حالة يُرثى لها، بين حبها الشديد لـ «جيرالد ونستون»، ورغبتها في إنقاذ سمعة العائلة، ومع ذلك، لم تتردد أبداً في أي لحظة أمام الاختيار.

شعرت أن كل يوم، يمر عليها دون تنفيذ اتفاقها مع «المصري» بمثابة نعمة كبيرة، يجب أن تكون مُمتنة لها، لكنها في الوقت ذاته تخشى دائماً ذلك اليوم. أما «كا - رع»، فلم يكن في عجلة من أمره، بل على العكس، هو يعرف جيداً مرارة أيام الانتظار عليها، وتمتع أكثر بإطالة معاناتها. ويبدو أن كل الحب الذي كان يحمله سابقاً للفتاة قد تلاشى، كما لو كان هناك سحر، وحل مكانه مخططات للانتقام الرهيب؛ لدرجة أنه فكر، ربما لو «حتاتشا» نفسها موجودة، كانت ستراجع عن تحقيق هذا الانتقام!

لكن كارا لم يتردد ولن يتراجع. بل هو سعيد بأفكاره الشيطانية، ويتوق بفارغ الصبر لتنفيذها.

أمضى «تادرس» معظم وقته في فندق «ساقوي»، حيث كان مسئولاً عن تأمين التجسس المُتقن لصالح «كا - رع». وقد أكسبته وظيفته كترجمان امتيازات خاصة؛ إذ سمح له مسئول الاستقبال بالدخول المجاني إلى الردهة، لكنه لم يكن قادراً على دخول القاعات العلوية، إلا عندما يكون بإمكانه القيام ببعض المهمات المحددة. وتم التغلب على ذلك، من قِبَل ضيف الفندق، الفرنسي الذي كان يعمل لدى «كا - رع» أيضاً، وقام هو بمراقبة المناطق الداخلية للفندق، بينما كان هناك نصف دسته من العرب والأقباط يراقبون المناطق الخارجية بحرص. وهكذا تمكّن «تادرس» من البقاء على دراية بكل تحركات «اللورد رون» وحفيدته؛ وكذلك التجسس على أولئك الذين يزورونهم، وكانت أوامره هي إبلاغ «كا - رع» على الفور بأي تحركات غريبة، قد تشير إلى أن ضحاياه يخططون للهرب.

ومن تقارير الترجمان، بدا لـ «كا - رع» أن كل شيء على ما يُرام، وأن فريسته المرتقبة لم تبذل أي جهد للهرب من مصيرها.

اعتمد «كا - رع» كثيرًا على حِسِّ «آنيت» العالي بالكرامة والاعتزاز بالنفس، لقد قرأ شخصيتها وتأكد تمامًا أنها لن تخذله. ومع ذلك، كان يشعر بعدم ارتياح قليلًا من جهة «رون»، وظل جواسيسه يراقبون اللورد أينما ذهب. لقد أخطأ «كا - رع» في حكمه على الرجل العجوز، إذ افترض أن «رون» سيقبل بتضحية حفيدته لو عرف بأمر اتفاقها معه!

كانت الفتاة تفهم جدًّا بشكل أفضل، وعلى الرغم من أنها لم تكن تعلم برفضه القاطع، لعرض «كا - رع» لحمايته على حساب سعادة حفيدته، كانت «آنيت» على علم أنه إذا علم «رون» بالحقيقة، فسوف يسلم نفسه على الفور للعدالة من أجل إنقاذها.

بلا شك، كان «رون» مُخادِعًا ووعديم المبدأ في كثيرٍ من تعاملاته. لكن بعض صفاته الشخصية ما زالت متأثرة جدًّا بطبيعته القديمة، التي ورثها من أجيال سابقة في عائلته، من أكثر النبلاء نبلاً ونزاهة!

لم يخبر «الترجمان» أيَّ شيءٍ لـ «كا - رع» عن زيارات «ونستون» المتكررة لـ «آنيت»! وخلال الساعات التي يقضيها «تادرس» في المراقبة، ينغمس في التفكير، وقد سببت له الكثير من الأفكار استياءً متزايدًا تجاه سيده، الذي حطَّ من مكانته كثيرًا كخادمه المؤمن، وذراعه اليُمْنَى. وبصرف النظر عن الاستياء، كان «تادرس» خائفًا وقلقًا بشأن وضع «كا - رع» المالي. الأمير، الذي اعتاد على إنفاق الأموال بيد مفرطة، امتنع في الآونة الأخيرة عن عرض قرش واحد! وازداد الشك عند «تادرس»، عندما تذكَّر أنه ذات مساء، أخبر «كا - رع»، أن التجار يطالبون بأموالهم. ويقولون إنك لا تدفع لهم بالسرعة التي كنت تدفع بها سابقًا! أن «كا - رع» نظر إليه بدهشة وقال:

- أليس رصيدي جيدًا في البنك؟
- في الوقت الحاضر، نعم، لكنه لن يظل جيدًا، ما لم تبدأ في دفع ثمن كل مظاهر الأبهة التي تضعها في هذه القبيلة.
- إنهم حمقى يا «تادرس»، لكنهم قد يصبحون مزعجين. عدُّهم بالسداد بعد فترة لتراضيتهم حتى يسكتوا، هذه مهمة ليست صعبة عليك!

نظر تادرس إليه بارتياح:

- قل لي يا أمير، هل أنفقت كل ثروتك؟

ابتسم «المصري» وقال:

- حتى لو قُدِّر لي أن أعيش ألف عام يا «تادرس»، لن أستطيع إنفاق حتى نصفها!

- فلماذا لا تدفع لهؤلاء التجار إداً؟
- لأنني لا أملك في هذا الوقت المزيد من المال في البنك، وليس مناسباً لي أن أغادر «القاهرة» الآن لتوفير المزيد من المال.
- حسناً! إذا يجب عليك القيام برحلة أخرى إلى «الفدا».

رمقه «كا - رع» بواحدةٍ من تلك النظرات التي كانت تزعج «تادرس» دائماً، ولكن عندما تكلم، بدا صوته رقيقاً ولطيفاً:

- ما الذي يجعلك تعتقد أن كُنْزِي في «الفدا» يا صديقي العزيز؟

طمأنت هذه النغمة «الترجمان»، وأجاب بلا مبالاة صريحة:

- هذا أمرٌ منطقيٌّ يا أميري، أن تكون موجودة هناك. ألا تذكر جيداً، أنني رأيت أولاً لفائف البردي في مسكنك، وبعد ذلك حملت من هناك حقيبة السفر الثقيلة المليئة بالأحجار الكريمة؟
- أه! حقاً!
- بالطبع يا «كا - رع». وإلا كيف يمكنك إعطاء الكثير من الأحجار الكريمة القديمة إلى «فان دير فين» لإعادة تشكيلها، أو تحويل الكثير إلى أموال عن طريق بيعها إلى الصائغ؟
- كنت تراقبني إداً!
- لا يحتاج الأمر لمراقبة، إنه أمر طبيعي. أنا لست أحمق. لذلك؛ إذا كان هناك - كما تقول - المزيد من الكنوز في «الفدا»، فسوف أتعهد بإسكات التجار الأوغاد؛ حتى تتمكن من إجراء إيداع آخر في البنك!

كان «كا - رع» لا يزال يقرأ ملامح خادمه «الترجمان». قال بهدوء:

- من الواضح أنك لست أحمق يا «تادرس». ومع ذلك، لم أتخيل أنك تمتلك كل هذا القدر من الفطنة والحكمة. انظرا! فكر معي، في قرية «الفدا»، التي هي عبارة عن تلال وعدد قليل من البيوت الحجرية المبنية بالطوب اللبن. وهي مألوفة لك؛ لكونها مسقط رأسك كما هي مسقط رأسي. أين تعتقد، ضمن حدود تلك القرية البسيطة المقفرة، يمكن اكتشاف كنز؟
- لقد حيّرتني! لكن أفترض أنك لا ترغب في أن أعرف المكان بالتدقيق. ومع ذلك، من الواضح أن الكنز قديم جداً؛ وبالتالي لا بد أن أجدادك قد أخفوه في الجبل نفسه، أو ربما في الصحراء المجاورة للقرية!
- أو معبد مدفون منذ زمن طويل ومُنسي، ما رأيك في ذلك؟
- أوه، لا؛ بالطبع مقبرة! أجدادنا لم يحتفظوا باللؤلؤ والياقوت في المعابد. فقط في المقابر يمكن العثور على هذه الحلي. لهذا السبب أصدق بقولك أنك آخر نسل ملوك

- مصر العظماء، أنا على يقين بأن هذه المقبرة لم تُكتشف بالصدفة. يجب أن يكون سرُّ وجودها قد تُورث عبر الأجيال. عرفته «حتاتشا» وأخبرتكَ به قبل أن تموت. إذا هي ممتلكات شخصية لك، وامتلاكها يثبت دمك الملكي الأصيل. أنا سعيد لأن الكنز وافر؛ لأنه بالمعدل الذي تنفق به المال، كان من الممكن استنفاده بسرعة!
- أنت تجادل بحكمةٍ شديدةٍ حقًا! أتساءل كم من ميراثي قد وجد طريقه بالفعل إلى جيبك الخاص؟!
- ليس كثيرًا، لتكن متأكدًا من ذلك، أنا أمين جدًّا، ولا آخذ سوى حقي فقط. ثم، من الأفضل أن تذهب هذه النقود القليلة إليّ بدلًا من الغرباء، فأنا قريب منك، ومصري أصيل مثلك تمامًا.
- حقيقةً. أنا لا أشكو من ذلك يا «تادرس». لكن بخصوص طريقة حصولي على المال، يجب أن تحرص على عدم اكتساب الكثير من المعرفة بشئوني الخاصة؛ لأن مثل هذه المعرفة قد تكون نتائجها خطيرة للغاية. تأمل في الكلام الحكيم الذي خرج الآن من شفتيك. ألا يجب أن أدفع له المقابل؟ وأنا بالفعل مدين لك بشدة!

حينئذٍ، ارتبك «الترجمان» وتحدّث بصعوبة:

- أنت تتحدث بالألغاز! قل لي ما تقصده بكلام واضح.
- هل تتذكّر اليوم الذي كسرت فيه «نفتيس» جرّة الماء؟
- نعم.
- لقد ضربتني أنا، أميرك، وركلتني!
- حسنًا، لقد خنقتني بعد ذلك. واحدة بواحدة.
- ليس تمامًا. لقد خنقتك لأنك تجسّست عليّ. كانت تلك جريمة أخرى. لم يتم حساب الضربة السابقة بعد.

عبّس «تادرس»، تمتم:

- أنا لا أحمل أحقادًا في نفسي!

أردف «كا - رع»:

- هناك بعض الأمور الأخرى التي تم رصدها ضدك، ومع ذلك، طالما أنك تخدمني بأمانة، وما زلت أنا بحاجة إليك، فلن أحاسبك عنها، لكنها ستظل في سجلاتك يا «تادرس»، وفي يوم من الأيام يجب أن تدفع الثمن. لا تنس ذلك. وتذكّر أنك أعلنت أنك لستَ أحقق، فأنا على يقين من أنك ستقرُّ بأنك كنت مخطئًا بشأن موقع الكنز الخاص بي. عندما تفكر في الأمر، سوف تستنتج أنه يقع في «الأقصر»، أو «أبيدوس»، أو ربما يكون أسطورةً من الأساس، ولم يكن موجودًا من قبل! وعند الثرثرة للآخرين، لن يُسمح لك بأي ذكرٍ لمقبرة أو معبد مخفيّ. أنا متأكد من أنك

ستكون حذرًا، وأثق في أنك ستحتفظ لنفسك بأسرار شئوني الخاصة. لو شككتُ بأنك تخونني، فسوف أقتلك الآن دون انتظار! لكنك لن تفعل ذلك، أنت تحب المال والحياة ولا تريد أن تخسر كليهما!

عاد تادرس إلى ممارسة مهامه بحرص. لقد تسيّد عليه «كا - رع» وأحكم قبضته عليه، من خلال اللعب على مخاوفه، لقد جعل «الترجمان» يرتعب؛ لدرجة الاعتقاد بأن حياته معلقة بخيط. لذلك؛ سعى بجدية لإيجاد وسيلة للهروب من عبودية مواطنه الشرير.

في صباح اليوم التالي، عندما غادر «جيرالد ونستون» السيدة «إيقرينجهام»، بعد مقابلة بغرض الاتفاق حول خططهما، التقى «تادرس» وجهًا لوجه في ممر الفندق. تعرف على الرجل على الفور باعتباره خادم «كا - رع» المؤتمن. علاوة على ذلك، كان يشكُّ في أن الرجل قد جاء لتوّه من جهة غرف عائلة «كونسينور»؛ لذلك لم يتردد في مواجهته. سأله:

- هل يمكنني التحدُّث معك على انفراد؟
- بالتأكيد يا سيدي.

تقدّمه «ونستون» في الطريق إلى غرفة الرسم الخاصة بالسيدة «إيقرينجهام»، تفاجأت السيدة بعودته! ولكن في الحال قدّرت أهمية ترتيب مقابلة مع ذراع «كا - رع» اليمنى. بدأ الإنجليزي الحديث:

- أنت ترجمان الأمير «كا - رع»، على ما أعتقد؟
- نعم، «ونستون بك».
- وتكرّس له كل وقتك بشكل شخصي طبعًا!
- إلى حدِّ ما، بطبيعة الحال. كما ترى، هو يدفع لي المال بشكل سخّي جدًّا.

تبادل «ونستون» والسيدة «إيقرينجهام» النظرات. ثم بدأت السيدة الكلام، قالت بنبرة صارمة:

- الأمير «كا - رع» هذا وغدا! حتى الآن، منخرط في واحدة من أكثر المؤامرات الشيطانية التي يمكن أن يتصورها عقل الإنسان على الإطلاق!

لم يردَّ «تادرس». ليس من شأنه إنكار التهمة عن سيده.

أردفت السيدة:

- نحن نرغب ونعزم على دَحْر هذه المؤامرة، وهذا يقودنا للتحدّث إليك بصراحة. يجب أن ننقذ الأنسة «كونسينور» من اتفاق خسيس مع سيدك.

أصغى «تادرس» بانتباه. ثم أردفت:

- لتحقيق هدفنا، نحن على استعداد لإنفاق قدر كبير من المال، يكفي لجعل مَنْ يتحالف معنا يعيش حياةً كريمةً لبقية حياته!

تبع هذا العرض المهم بعض الصمت. شعر «تادرس» بنظراتهم المُدقّقة، وقام بتسليك حلقه بينما كان ينظر بسرعة حوله ليتأكد من أن لا أحد يسمعه. وعندما اطمأن، أجاب بحدّة في الكلام:

- أنا على استعداد لكسب هذا المال، إذا كنتم تخبرونني كيف أفعل ذلك بأمان. «كا - رع» شيطان. لن يتردد في قتلنا نحن الثلاثة إذا اشتبه أننا كنا نتآمر ضدّه!

قال «ونستون»:

- سأعطيك ألف جنيه، إذا أخبرتنا بما تعرفه عن خُطط «كا - رع»، وسأعطيك ألفي جنيه إضافية إذا نجحنا في إنقاذ الأنسة «كونسينور».

فرح «تادرس» جدًّا؛ لأنه كان ينوي الابتعاد عن «كا - رع» على أيّة حال. والحصول على أجر جيد مقابل القيام بذلك، بمثابة ضربة حظ! أجاب:

- قبّلت العرض، لكن يجب أن تعرفوا أنه لا يوجد وقت لنضيعه. لقد سلّمت للتوّ رسالةً إلى الأنسة «كونسينور»، أخبرها أن تكون جاهزة للذهاب إلى «كا - رع» في الساعة التاسعة هذا المساء.

صاح «ونستون» مذعورًا:

هذا المساء! وماذا كان ردّها؟

- أكّدت لي أنها ستنفذ اتفاقها مع الأمير، وستكون مستعدّة لمرافقي في الوقت المحدد. ومن المُفترَض أنني سأتي وأخذها في عربة مغلقة إلى قبيلاً «كا - رع».

سألت السيدة «إيقرينجهام» بفارغ الصبر:

- وماذا بعد ذلك؟

أجاب «تادرس» بهدوء:

- بعد ذلك سيكون هناك حفل زواج وهمي؛ بهدف الإيقاع بالشابّة في شَرَك، حتى تعتقد أن كل شيء قانوني وسليم، دون أن يحدث أي انزعاج، هناك قبطني يُدعى «ميخائيل»، وهو أحد خُدّام «كا - رع»، سيرتدي زي كاهن ويؤدي طقوس الزواج القبطي المسيحي. لكن الرجل ليس كاهنًا، وسيكون الزواج غير شرعي. القصد من كل ذلك هو تدمير سمعة الشابّة، وبعد ذلك يطردها «كا - رع». ثم يسلم جدّها «اللورد رون» إلى العدالة!

صاحت السيدة «إيقرينجهام» بسخط:

- يا لها من جريمة مُروّعة! و«آنيت» تضحي بنفسها لأنها تظن أن ذلك سينقذ جدّها!
رد «الترجمان»:

- هذا ما وعدّها به «كا - رع»، لكنه لا ينوي الوفاء بوعدّه. ألم يُعطيها نسخةً مزورةً من إيصال «رون»؟ هدف أميري هو تدمير عائلة «كونسينور» بأكملها. ووالد الشابّة الذي تعرض للفضيحة بالفعل، هرب من «القاهرة»

قال «ونستون»:

- أنا أتفهّم دوافعه، وأعتقد أنك مُحقٌّ في تصوُّرك، بأن «كا - رع» لن يترك «اللورد رون» بمجرد أن تكون «آنيت» في قبضته. الخطر رهيب ووشيك، ولا شيء يقنع «آنيت» بالتراجع عن اتفاقها. هي تتخيل أنها تنقذ «رون»، وقد أوصلت كلينا بعدم إخبار الرجل العجوز باتفاقها هذا. لذلك أيدينا مقيدة!

صرحت السيدة «إيقرينجهام» بعد لحظة من التفكير:

- أظن أننا يجب أن نستخدم نفس الأسلحة التي يستخدمها «كا - رع». بمساعدة «الترجمان»، سيكون من السهل إنقاذ «آنيت»، حتى رغم إرادتها!

استفسر «چيرالد» بجديّة:

- نعم، لكن كيف؟

لم تردّ على الفور. وبدلاً من ذلك، تفحّصت وجه «الترجمان» جيّدًا. ثم سألته:

- ما اسمك؟
- «تادرس» يا سيدتي.

- هل ستتبع تعليماتنا بأمانة ولا تخوننا لحساب الأمير «كا - رع»؟
- نعم. أنا أكرهه. هو سيقتلني لو تركته، إذا سنحت له الفرصة لذلك؛ هو يعتزم قتلي على أي حال، بمجرد أن يستغني عن خدماتي. إذا كانت خُطَّتكَ تتضمن مقتل الأمير «كا - رع»، فسأكون سعيدًا جدًا!
- لن يحدث ذلك، لكننا سنحميك من أي ضرر، كُنْ مطمئنًا. مهمتك بسيطة. عندما تأتي لتأخذ الأنسة «كونسينور» هذه الليلة، لن تقودها إلى قِبال الأمير، ولكن إلى الجسر، حيث تُنزلها على متن «دهبية» «ونستون بك». ستجد «الدهبية» مقابل «روضة النيل» على الضفة الغربية. اعبُر جسر الجزيرة واتجه بأسرع ما يمكن إلى القارب، حيث سننتظر لاستقبالك هناك.

هتف «ونستون» مندهشًا:

- دهبتي!
- يجب أن تتأكد بأن كل شيء على «الدهبية» مُعدٌّ لرحلة طويلة على مياه النيل، مع وجود سجين.
- سجين؟!
- نعم، «أنيت». سوف ترفض بالطبع الذهاب طوعًا، بعد أن أعطت وعدًا لـ «كا - رع». سأرافقكم كحارس لها، ويجب أن نجد طريقةً ما لِحَتِّ «اللورد رون» على الانضمام إلينا أيضًا. بمجرد أن يطاءً بقدميه على «الدهبية»، لن يكون لدى «كا - رع» أي وسيلة لمعرفة مصير ضحاياه، وقبل أن نعود يا صديقي، يجب أن نكون قد رتبنا كل شيء لجعل نيّة الأمير في الزواج من «أنيت» مستحيلة. هذا هو السبب في أنني أرغب في انضمام «اللورد رون» إلينا. كما أنه سيكون في مأمن من «كا - رع» لبعض الوقت.
- أنا أفهمك الآن، وعلى الرغم من أنني لا أرى نهاية المغامرة تمامًا، فإن هذه الخطة ستمنحنا على الأقل وقتًا لإعادة ترتيب الأمور وثمّكننا من إحباط مخططات «كا - رع» الوشيكة.
- هذا ما أفكر به، يجب القيام بشيءٍ ما في الحال؛ وباختطاف «أنيت»، نحن لا نكسب الوقت فحسب، بل ننفذها مؤقتًا من عواقب حماقتها.

ثم التفتت إلى «تادرس» وسألته:

- ما رأيك في خُطَّتني؟
- ممتازة! باستثناء شيء واحد. هناك العديد من الجواسيس حول الفندق، ربما يتابعوننا ويخبرون «كا - رع» على الفور بأننا ذهبنا إلى «الدهبية»، لكن يمكنني إيجاد طريقة لحل هذه المشكلة. هم تحت أوامري، وسأرسلهم إلى مراقبة أماكن أخرى قبل الساعة التاسعة. لكن بعيدًا عن هذا الأمر، فهل أفهم أن مهمتي الوحيدة هي أن أنقل الشابة إلى «الدهبية»؟

• هذا كل ما نطلبه منك.

قال «ونستون»:

• سأضيء ثلاثة أنوار حمراء؛ حتى لا تخطئ في تحديد الموقع الدقيق للمركب.

أجاب «الترجمان»:

• أنا أعرف المركب جيدًا، «عبد الله» الذي يعمل لديك مهندسًا للباخرة صديق لي.

سألت السيدة «إيقرينجهام» بقلق:

• لن نخذلنا! كل هذا يتوقف عليك يا «تادرس»!

• أنا أعلم بذلك، ولن أخذلكم.

قال «ونستون»:

• فكّر في أنك ستربح الثلاثة آلاف جنيه!

أجاب «الترجمان» باعتزاز:

• فيما يتعلق بذلك يا سيدي، أمل أن تتفهم موقفي بشكل إنساني! صحيح أنني أحب المال، لكن كوني رجلًا، أتوق لمساعدة امرأة في محنة. وقبل كل شيء، سأكون سعيدًا بهزيمة «كا - رع»، الذي يكرهني بشدة كما أكرهه. وهكذا، فإن ثلاث عواطف تشهد على صدق نيّاتي - الحب والشفقة والكراهية - فهل يمكن أن تشكّ في إخلاصي للقضية بعد ذلك؟!

بعد ذلك ذهب تاركًا شريكه في المؤامرة؛ ليخططا لباقي تفاصيل مغامرة المساء.

الفصل التاسع عشر اختطاف «أنيت»!

أمضت السيدة «إيفرينجهام» فترة بعد الظهر في رفقة «أنيت». كانت الفتاة متوترةً بشكل واضح، لكنها بذلت محاولات يائسة لإخفاء ضعفها. لم تلمح بأي حال من الأحوال إلى «كا - رع»، أو إلى حقيقة أن الساعة قد جاءت لتكمل التضحية بسعادتها من أجل الحفاظ على كرامة جدّها وسمعة عائلتها.

غامرت صديقتها بالتلميح مرةً أو اثنتين حول حماقة وعدّها وعبثيّة الوفاء به، لكن الفتاة كانت حزينة للغاية، ولم يكن لهذه التلميحات أي تأثير على قرارها؛ لذلك غيرت السيدة «إيفرينجهام» الموضوع للتحدّث عن أمور أكثر بهجة. وعندما ذكرت اسم «جيرالد ونستون»، لاحظت أن وجنتي «أنيت» توهجتا باللون القرمزي، ثم تحولت إلى اللون الأبيض الشاحب. وفطنت أن هذا الموضوع أيضًا يجب تجنب الحديث عنه؛ لأنها لم ترغب في جعل موقف الفتاة أصعب مما هو عليه. في الواقع، كانت تلك الأيام الأخيرة من التواصل مع «جيرالد» بمثابة تأكيد أنها تُقدّم على عمل صعبٍ وقاسٍ، وبدأت تدرك أنها تفقد كلّ سببٍ سيجعلها تعيش حياة سعيدة، بسبب ظهور «كا - رع»، وتهديده الرهيب بتدمير سمعة العائلة، وإرسال جدّها إلى السجن.

في وقتٍ مُبكرٍ من المساء، قبّلت السيدة «إيفرينجهام» صديقتها، وعادت إلى غرفتها الخاصة عبر الممر؛ لاستكمال استعداداتها البسيطة للرحلة المقترحة.

في هذه الأثناء كان «ونستون» مشغولاً مع «اللورد رون»، الذي كان لحسن الحظ، الشاب المفضل لدى جد «أنيت»، واستمع باهتمام إلى شرح «جيرالد» لخطة إنقاذ حفيدته المحبوبة من حالة اليأس والقنوط التي وقعت فيها. قال «جيرالد»:

- السيدة «إيفرينجهام»، على ثقةٍ من أن الرحلة النيلية هذه، ستفعل الكثير لتشجيعها ومنعها من التفكير في مشاكلها. ما رأيك في الفكرة يا سيدي؟

قال «رون»:

- سيكون ذلك رائعًا! إذا كان من الممكن إقناع «أنيت» بالموافقة. لقد طلبت منها أن تذهب إلى «حلوان» قبل أيام، لبضعة أسابيع. لكنها قالت، إنها لا تريد أن تستمع إلى مثل هذا الاقتراح!
- هذه هي الصعوبة التي نواجهها! لقد أخبرت السيدة «إيفرينجهام» بالفعل أنها لن تغادر «القاهرة»، لكننا نعتقد أن قرارها راجع إلى الخوف من عدم قدرتك على مرافقتها؛ لذلك قررنا تدبير مؤامرة صغيرة لإقناعها؛ لأن الحالة المرصّية التي

أصبحت عليها، جعلتنا جميعًا قلقين. هل هناك أي سبب يا سيدي يمنعك من مغادرة «القاهرة» لمدة شهر أو نحو ذلك؟

- لا شيء على الإطلاق، إذا كان زهابي سيفيد «أنيت» بأي شكل من الأشكال.
- حسنٌ جدًا! الآن، خطتنا كالتالي. لقد قمت بتجهيز «الدهبية» الخاصة بي للقيام برحلة نيلية. ستذهب السيدة «إيفرينجهام» لترافق حفيدتك، وسوف تنضم إلينا لتكتمل سعادتنا جميعًا. شيء واحد فقط يقف في طريقنا، هو رفض الشابة الصعود على متن «الدهبية». لكن سيتم التغلب على ذلك بمساعدة السيدة «إيفرينجهام»، وهي امرأة حكيمة وتحب «أنيت» كما لو كانت ابنتها. لذلك؛ هذا المساء، سنصعد أنا وأنت على متن المركب بهدوء، دون التصريح بهذه النيّة لأي شخص، وسنعتد على السيدة «إيفرينجهام» في الانضمام إلينا مع «أنيت» في الساعة التاسعة. ولا تسألني يا سيدي، كيف ستنجح في التغلب على مخاوف حفيدتك من مغادرة «القاهرة»؟ نحن فقط نثق في ذكاء المرأة. عندما تكتمل الرفقة، سُبِحِر في النيل، ونقضي وقتًا ممتعًا معًا!

قَبْلَ «رون» برنامج الرحلة بحماس. هو نفسه كان في حالة عصبية مخيفة، ويتوقع كل ساعة أن يتم اتهامه بجريمة قد تفصله عن «أنيت» للأبد. الابتعاد عن «القاهرة» الآن، دون أن يعرف «كا - رع» بمكانه، سيكون بمثابة استراحة لبضعة أسابيع. لقد استغلَّ الرجل الفرصة بشغف.

كان «ونستون» يعلم أنه لن يوجد صعوبة في موافقة الرجل العجوز، لكنه لم يستطع التنبؤ بما قد تكون عليه الخطوة التالية لـ «كا - رع»، وقرر عدم المجازفة. لذلك تشبث بـ «رون» سريعًا حتى دخل مع أمتعته الخفيفة على متن «الدهبية»، وعندها أرسل رسولا لإبلاغ السيدة «إيفرينجهام» بنجاحه في المهمة.

حتى الآن، سارت الأمور على ما يُرام. لكن قلق السيدة «إيفرينجهام» ازداد مع اقتراب الساعة التاسعة. أرسل اللورد «رون» رسالةً إلى «أنيت» بأنه سيخرج لتناول العشاء وقد لا يعود إلى الفندق حتى وقت متأخر من تلك الليلة؛ لذا كانت الفتاة سعيدة بهذه الفرصة، وتناولت عشاءها في غرفتها الخاصة، وأخبرت الخادمة العربية، صديقتها السيدة «إيفرينجهام» أنها تأكل قليلاً وتبكي طوال الوقت، كما لو أن الحزن قد تغلب عليها.

يعتمد كل شيء الآن على إخلاص «تادرس» المترجمان! والسيدة «إيفرينجهام» التي لم تجد أي شيء جديد يمكن أن تنصح به كامرأة، استقلت العربة في الساعة الثامنة والنصف ووصلت بهدوء إلى الجسر. عند رؤية الأضواء الحمراء الثلاثة التي أظهرها «ونستون»، أوقفت سيارتها في انتظار وصول «الترجمان».

في أثناء ذلك، وبعد أن تلقى «تادرس» تعليماتٍ كاملةً من «كا - رع» فيما يتعلق بطريقة تنفيذ مهمته، قاد سيارة الأمير الخاصة إلى الفندق. وقد تم توجيه تعليمات للسائق لإطاعة أوامر «الترجمان»؛ لذلك لم يشكَّ السائق في أي شيء، عندما نزل «تادرس» عند فندق «ساقوي»، وأمره بالقيادة إلى القلعة، والبقاء في المسجد حتى منتصف الليل.

ثم استأجر «الترجمان» عربةً أخرى يقودها رجلٌ عربيٌّ يبدو عليه النُّعاس والغباء، بعد ذلك دخل الفندق على الفور، وذهب مباشرةً إلى غرفة «أنيت».

فتحت الباب بنفسها، بعد أن صرفت جميع الخدم الموجودين.

أعلن «تادرس» عند دخوله:

• إنها التاسعة يا آنسة.

ضمت الفتاة يديها بإيماءةٍ وبنظرةٍ خائفة، وسألته:

• أين الأمير «كا - رع»؟

• في الفيلا الخاصة به، في انتظار وصولك لحفل الزفاف. الزفاف سيتم بهدوء، وحسب مراسم الزواج المسيحية. سيدي يريد مني أن أخبرك بأنك ستجدين كل الاحترام والتقدير، وأسمى طموحاته في المستقبل هي سعادتك.

ارتجفت وسألته:

• هل هذا كل ما قاله؟

• نعم، شيء آخر لم أذكره لك، أنه سيُفي بوعوده بأمانة، ويوفر الراحة والسلامة والأمان لك «اللورد رون».

قالت على عَجَل:

• لنذهب. أنا مستعدة!

• هل هناك أي أمتعة يا آنسة؟

أشارت إلى حقيبة سفر صغيرة إلى جوارها، انحنى «تادرس» والتقطها.

نظرت خائفةً حولها، ثم تركت ورقةً بها رسالة تركتها إلى «اللورد رون» على الطاولة ثم غادرت الغرفة على عَجَل، تاركة الباب مفتوحًا.

اصطحبها «الترجمان» إلى المدخل الجانبي المخصص للسيدات، ولحسن الحظ، كان خاليًا من المارّة في تلك اللحظة. دخلت «أنيت» إلى العربة الحنطور بسرعة، وكأنها تخشى أن يُفسد أحدٌ عليها هروبها، أغلق «تادرس» الباب وجلس بجانب السائق.

قال بصوتٍ عالٍ: إلى دار الأوبرا؛ حتى يسمعه قلة المُتسكّعين الواقفين على الرصيف.

بعد بضع بنايات، أوقف السائق العربي أمام محلّ لبيع التبغ، وأرسله لشراء بعض السجائر. في اللحظة التي اختفى فيها الشاب بعيدًا عن العربة، أمسك «تادرس» بالزمام وقاد العربة بسرعة، قبل أن يعود العربي إلى الشارع ليكتشف اختفاء عربته والركاب الذين عليها!

أما «أنيت»، فبمجرد أن استندت إلى الوراء، دخلت في حالة من الذهول. رفض عقلها المرهق التفكير أو التكهن بالمصير المجهول الذي كانت تندفع إليه. شعرت أن العربة تصطدم بالمعابر، ورأت الأنوار تومض بشكلٍ ضبابيٍّ، لكنها لم تنتبه إلى الاتجاه الذي كانوا يسيرون فيه، ولا طول المسافة التي سيستغرقونها في الطريق.

عبّر الكوبري فوق النيل، بطّأت الخيول من سرعتها، ولكن عبر الممرات المظلمة للجسر الغربي، انطلقوا بخُطى سريعة جدًا، ربما كان من الممكن أن يخيف ذلك الفتاة، لو كانت قادرة على إدراك الظروف التي تمر بها بالفعل!

فجأة، وبارتطامٍ كاد أن يقذفها إلى المقعد المقابل، توقفت العربة. نظرت من النافذة ورأت ثلاثة أضواء حمراء خافتة مشتتة، وخلفها بريق شعاع القمر الخافت على صفحة مياه النهر.

عندما اقترب «تادرس» لمساعدتها في النزول، رأت السيدة «إيقرينجهام» تقف خلفه.

سألت الفتاة بعصبية:

• أين أنا؟

قالت صديقتها، وهي تحملها بين ذراعيها، لتقبيلها بحنان:

• صه يا عزيزتي! ألسنٌ مُرحّبًا بي في حفل زفافك؟

سألت «أنيت» متوسلة:

• ولكن لماذا نحن هنا؟ لماذا نحن عند النهر وأين الأمير «كا - رع»؟

أجابت السيدة «إيفرينجهام» بهدوء، وهي تقود الفتاة الشابة، التي كانت لا تزال مندهشة ومرتبكة تمامًا:
• تعالني ودعيني أفاجئك!

على متن «الدهبية»، وفي الكابينة الصغيرة ذات الإضاءة الساطعة، جلس هناك «اللورد رون» و«جيرالد ونستون».

حدقت «آنيث»، ثم نظرت حولها مضطربة، وأطلقت صرخة حزينة وألقت بنفسها بين ذراعي جدّها.

صرخت وهي تبكي بشكل هستيري:

• أنا لا أفهم شيئًا! ماذا يعني كل ذلك؟ لماذا أنتم هنا وأين الأمير «كا - رع»؟

ارتبك «رون» من حديثها، وحزن من حالة الغضب العارم التي كانت عليها. فقال:

• الأمير «كا - رع»! «آنيث»، أنت لا تريدين ذلك الرُّنجي الوغد، أليس كذلك؟
• لا! لكنه يريدني، وقد وعدته، يجب أن أذهب إليه. لماذا أنا هنا؟ ماذا فعلتم؟

أثناء ذلك، ربط «الترجمان» أحصنة العربة في نخلة وصعد على متن «الدهبية»، ثم شدّ «حسن» اللوح الخشبي وبدأ «عبد الله» تشغيل محرك «الدهبية». وقف «تادرس» عند مدخل الكابينة واستمع باهتمام إلى احتجاجات «آنيث».

هتف بها بصرامة:

• اسمعي يا آنسة، أنت في مسؤوليتي؛ لأنني ترجمان الأمير «كا - رع»، وقد وعدتني أن تطيعيني. أليس كذلك؟

التفتت لتنظر إليه. ثم سألته:

• وهل أنت تطيع أوامر الأمير «كا - رع»؟
• لكي تتأكدي! هو تمنى أن يفاجئك. وقال إنه كان ينوي فقط اختبار مدى أمانتك؛ لأنه مهتم بمعرفة ما إذا كانت الفتاة الإنجليزية ستفي بوعودها. لكنه لا يريد أن يجعلك غير سعيدة. هو أمير كريم. لذلك؛ يحرك من الالتزام بالوعد معه، أنت حرة من هذا الوقت فصاعدًا لتفعلي ما يحلو لك تمامًا!

كانت شاحبة وترتجف. أردفت بسرعة:

• لكن جدي..

قاطعها «تادرس»:

• هو أيضًا بأمان، والدليل أنكِ ترينه بجانبك. ليس لديك مخاوف في المستقبل من أن..

توقف فجأة؛ لأن أعصاب الفتاة المنهكة لم تستطع تحمّل هذا التغيير المفاجئ. التقطتها «چيرالد» قبل أن تسقط، وحملها إلى مقصورةٍ أخرى، حيث اعتنت بها السيدة «إيفرينجهام» بحُبِّ وحاوَلت إفاقتها من الإغماء.

أما بالنسبة إلى «اللورد رون»، فقد صرخ بصوتٍ عالٍ ونظر إلى «الترجمان» وبكى:

• ما هذا الهُراء اللعين؟

ابتسم «تادرس»، وأمسك به «چيرالد» بكلتا يديه بحرارة:

• شكرًا يا صاح! أنت حليف مخلص ولن أنسى كيف كذبت لإنقاذنا من موقف محرج.

ثم التفت إلى «اللورد رون» وقال:

• إذا كان هناك أي شيء لا تفهمه سيادتك، فسأسعى بكل سرور إلى شرحه لك. كان الأمير «كا - رع» يلعب لعبة شريرة، بك أنت و«أنيت» كبيادق الشُّطرنج، لكن أعتقد أننا قتلناه في النهاية!

لم يردّ النبيل العجوز على الفور. أي استجواب من جانبه سيكون بالضرورة مسألة حساسة للغاية. أدار عينيه بتمعّن نحو الشاطئ، حيث كانت أضواء «القاهرة» تختفي ببطءٍ عن أنظارهم.

الفصل العشرون التآمر مع الشيخ

هنا «كا - رع» نفسه على إنجازهِ الكبير! بالنسبة إلى شخصٍ قضى حياته المبكرة في كوخ، يُعد شخصًا ناجحًا للغاية في توجيه مصائر عُليّة القوم. لقد سارت جميع خطط جدته الانتقامية، على نحو مُرضٍ، بفضل ترتيباته الذكية لكل التفاصيل. وفي هذا المساء، كان مُقدّرًا له أن يكمل تدمير عائلة «اللورد رون». بالإضافة إلى استهداف «أنيت» من خلال زواج كاذب، فإنه سيُلقي غداً بـ «اللورد رون» في السجن بتهمة الرشوة. والدليل الذي تظاهر بتسليمه للفتاة، والذي قامت دون شك بإتلافه على الفور، كان مجرد إيصال مزور. أما النسخة الأصلية فلا تزال آمنة في عهده.

كانت هذه الحيلة ذكية. وحكمه على طبيعة الفتاة وشخصيتها دقيقًا بشكل رائع. بعد إتلاف الورقة لضمان سلامة جدها، أصبح لزامًا على «أنيت» عدم فسخ اتفاقها مع «كا - رع». لم يكن هناك من سبيل لها عن التراجع. لقد قدم هو الثمن، ولم يبقَ لها أي عذر لعدم تنفيذ نصيبها من الاتفاق.

دخل «كا - رع» فناء منزله وجده مُضاءً بالأنوار. سكن الحریم، الذي تم تجديده بالكامل الآن، كان رائعًا حقًا. وقف عشرات الخدم مرتدين أزياء فاخرة، بلا حراك في أماكنهم، في انتظار وصول سيدتهم الجديدة. كان «ميخائيل»، القبطي الوغد الذي ضمّه «كا - رع» إلى الخدمة في منزله، يرتدي ثيابًا كهنوتية، ويمشي روحهً وجيئةً بهيبة زائفة في الفناء، تثير الابتسامات الماكرة من رفاقه الخدم.

لم يكن هناك حضور سوى خدم الأمير فقط، كانت هذه رغبة «كا - رع» حتى يتمكن من إنكار مهزلة المراسم هذه، إذا حاولت «أنيت» في المستقبل استخدامها كذريعة تبرر سقوطها في قبضته. لكن كان من دواعي سروره أن يهدئ شكوكها بهذه الطريقة في البداية؛ وبالتالي جعلها ضحية سهلة. كما أنه أعطى نكهة إضافية لانتقامه!

وبالنسبة إلى «تادرس»، فقد تلقى تعليماته، ولن يجد صعوبة في إنجاز مهمته. يجب أن يصل إلى القيلا عند عودته في التاسعة والنصف، بحسب التقدير الطبيعي لحساب الوقت المُستغرق في الرحلة. لقد وثق «كا - رع» في «تادرس»؛ لأن الترجمان كان تحت سيطرته تمامًا، ولكن بحذر المعتاد، أرسل جاسوسًا لمراقبة رسوله والإبلاغ عن أي شيء غريب في سلوكه. ولم يكن «تادرس» بطبيعة الحال، على علم بهذا الجاسوس.

وصلت التاسعة والنصف، ولم يكسر السكون أيُّ صوتٍ لعجلات العربة. وقف الخدم بلا حراك في أماكنهم، وكان «كا - رع» يسير في الفناء في تفكير عميق. وقف الكاهن المزيف

تحت تعريشة الورد، حيث كان من المقرر أن يتم الاحتفال، محاولاً العثور على النص الذي سيستخدمه من «الإنجيل» - الذي اقترضه من أحدهم - في مراسم الزواج.

الآن صارت العاشرة إلا الربع تمامًا. لاحظ الخدم ذوو العيون السوداء، أن سيدهم أصبح مضطرباً ويلقي بنظرات قلقة تجاه المدخل.

بعد عشرين دقيقة، عندما بدأت أعصاب الجميع بالتوتر، كسر الصمت طقطقة أقدام الخيول وطين العجلات السريع. اندفعت عربة إلى القيلاً وتوقفت.

سارع «كا - رع» إلى الأمام بترقب، لكنه توقف فجأة عندما وجد الجاسوس الذي أرسله لمراقبة «تادرس». سأل بصوتٍ غاضب:

• أين الترجمان؟!

قال الرجل:

• جلالتك.. يا صاحب السمو.. «تادرس» خائن!

هدأت عصبية «كا - رع»، وفجأة أصبح متماسكاً وصوته هادئاً! قال:

• اشرح، لو سمحت!

انحنى الرجل.

- عند وصوله إلى الفندق، صرف «تادرس» عربة صاحب السعادة..
- أين هي الآن؟
- لا أعرف. ثم استأجر عربة حنطور، وهي لعربي يُدعى «عفت مراد»، وتحمل رقم 93. أنزل «تادرس» الشابة ووضعها في عربة «عفت»، وأمره بالذهاب إلى «دار الأوبرا». قفزت أنا وركبت من الخلف ورافقتهما. سرعان ما تخلص «تادرس» من «عفت» بإرساله في مهمة بعيداً، ثم ابتعد بسرعة عبر نهر النيل إلى الجسر الغربي، وقاد العربة عبر النهر، إلى مكانٍ مقابل «جزيرة الروضة»، حيث أصعد «الترجمان» السيدة على متن «باخرة»...
- نعم، تابع من فضلك.
- عندما ابتعدت الباخرة عن النهر، أخذت العربة الحنطور التي تركها «الترجمان» وأتيتُ إلى هنا بأسرع ما يمكن. هذا كل شيء يا صاحب السعادة.
- الباخرة لمن كانت؟
- ملك لـ «وينستون بك». رأيته على متنها.

- هل رأيت أي شخص آخر؟
- السيدة التي كانت صديقة للآنسة «كونسينور».
- هذه السيدة «إيقرينجهام».
- والرجل الإنجليزي العجوز، «اللورد رون».
- أه! رفقة عائلية. وذهب صاحبنا العزيز «تادرس» معهم؟
- نعم، يا صاحب السعادة.
- سافروا عَبْرَ النهر كما تقول؟
- نعم يا صاحب السعادة.
- شكرًا لك. يمكنك أن تستريح الآن.

استدار «كا - رع» إلى «عبّادي»، قال بهدوء: «أطفئ الأنوار وأرسل الخدم إلى مساكنهم».

غيّر الأمير ملابسه من بُرّة السهرة إلى بُرّة السفر الرمادية. ثم عاد إلى الفناء الخالي تمامًا الآن، وجلس في ضوء القمر بجانب النافورة لتدخين سيجار.

كانت الضربة قاسية ومفاجئة. بينما كان «كا - رع» يدرك تمامًا القدرة الطبيعية لـ «تادرس» على الخداع والعمالة المزدوجة، فقد كان يعلم أيضًا أن «الترجمان» جبان؛ ولذلك كان مندهشًا من الشجاعة التي تجلّت في خيانتته!

لكن من أهم سمات «كا - رع» أنه لا يتحسر على حطّاه العاثر، ولا يعرف اليأس. فقط شعر بالأسف العابر؛ لأنه أجّل قتل «الترجمان»، لكنه لم يسمح لنفسه بالبقاء طويلًا عند خيانة خادمه. كان الشيء الذي يجب أن يطلبه أولاً، هو علاجًا للفشل الواضح لخُطّاه التي رسمها بعناية. الآن أصبح من الضروري منع ضحاياه المقصودين، من النجاح في محاولتهم الهروب.

لم يكن هناك حاجة لاتخاذ إجراء فوري. «الدهبية»، كما يعلم هو، باخرة بطيئة، وستُضطر إلى مقاومة تيار النيل ببطء. كان أعداؤه بلا شك يعتمدون في أمر سلامتهم من المطاردة، على جهل «كا - رع» المفترض بمكان وجودهم. وهذا ما جعله يعترف بأن هناك شخصًا تأمر ضده بذكاء! فعلى مياه نهر النيل، سيكون هذا التجمّع العائلي في مركب صغيرة، منعزلة كما لو كانت جزيرة في بحر كبير.

في نهر النيل تمرُّ بواخر «الإكسبريس» والبواخر السياحية بين الحين والآخر، لكنها تسافر بسرعة، وتظهر وتختفي في غضون فترة وجيزة تبلغ نصف ساعة. إلى جانب هذه البواخر، لا يكسر تموجات النهر الواسع، سوى المراكب الشراعية المحلية فقط، ذات المناظر الخلابة أثناء مرورها. تمتلئ ضفاف النيل بالعديد من القرى، وفي هذا الموسم من العام، يتواجد عمال الشادوف بكثرة. لأن مواطني هذه القرى، قد سئموا

من التحديق في البواخرة الصغيرة، فهم ينتظرون بفارغ الصبر، هبوط باخرة سياحية كبيرة؛ ليتكسبوا من ركابها القليل من الرزق، ولا يحدث هذا إلا في أماكن معينة.

لذلك كان لدى «كا - رع» الوقت الكافي للتفكير. حتى إنه خطر على باله، أن هذه الكارثة قد تكون مواتية بشكل استثنائي لنجاح مخططاته! لأنه في «القاهرة» يجب على المرء أن يتصرف بحذر، بسبب شرطة المدينة اليقظة وغير الفاسدة. أما سكان النيل، فيخافون القانون لكن لا يحترمونهم. وهم بعيدون جدًا عن العاصمة، بحيث لا يخافون كثيرًا. وحيث ينزل السائحون، يتواجد عساكر لجلد القرويين الؤقحين بالسياط، لكنهم يعودون لوحشيتهم ووقاحتهم عندما يدير العساكر ظهورهم. وفي القرى النائية، يكون شيخ البلد هو الحاكم المطلق.

درس «كا - رع» هذه الظروف بدقة، وسرعان ما وضع خُطًا جديدة لاستكمال انتقامه. ثم، انتهى من السيجار، وذهب إلى الفراش ونام حتى الفجر.

قال لـ «عبادي» وهو يتناول فطوره مبكرًا: «سأغيب عدة أيام، انتبه! يجب أن أجد كل شيء في حالة جيدة عندما أعود. إذا جاء التجار للمطالبة بالمال، عدّهم بالدفع فور عودتي إلى «القاهرة»».

استقلّ قطار الصباح المتجه إلى «الأقصر» ووصل بحلول الظهر إلى محطة مقابل قرية «بني حسن»، حيث عبّر النهر في قارب صغير.

عُرف «بني حسن» منذ قرون باسم «قُطَاع الطُّرُق علي النيل»، وقد حلت قراهم الثلاث المتجاورة، الواقعة بالقرب من ضفة النهر، محل تلك القرى التي دمرتها الحكومة بالكامل في عهد «محمد علي» (34)، على أمل تشتيت هذه القبائل وتفكيك نزعتها للسرقة والسطو. لكن «بني حسن» أعادوا بناء مساكنهم الطينية وظلوا فيها بهدوء. في الوقت الحاضر، يتم تجنبهم بحذر، من قِبَل السياح العزّل، الذين تم تحذيرهم بشدة قبل الذهاب إلى هناك.

عندما هبط من القطار، وجد «كا - رع» أن القرى تبدو مهجورة. تحت أشجار النخيل الطويلة إلى اليمين، كانت هناك بعض التماثيل المكسورة، بينما كانت الماعز السوداء الصغيرة، والدجاج تتجول بحرية في شوارع القرية. لكنه لم يلتفت إلى هذه الأشياء. كان يعلم أن كبار السن من الرجال والنساء يتجمعون داخل الأكواخ، بينما الرجال الأصغر سنًا، كانوا في المقابر البعيدة في التلال، أو يعملون في كسب الرزق من العمل على الشادوف في القرى المجاورة.

اتجه إلى اليسار، وسار في طريقٍ يؤدي إلى مُنحدرٍ طفيف، ومنه إلى الجرف المنخفض المغطى ببستانٍ آخر من أشجار النخيل الشاهقة، حيث تم بناء أفضل مساكن «بني حسن» تحت ظلال النخيل. لم يذهب إلى القرية من قبل، لكنه سمع عنها مراتٍ لا حصر لها منذ طفولته. عندما توقف أمام دار واسعة بها جدران من القصب والطين وسقف من سعف النخيل، كان متأكدًا تمامًا من أنه قد خَمَّن موقع المكان الذي يبحث عنه بشكلٍ صحيح. سأل طفلًا أطلَّ برأسه وحدَّق به:

- هل الشيخ «عنتر» يسكن هنا؟

أوما الصغير برأسه وركض إلى الداخل. جلس «كا - رع» مقرِّفًا على مصطبة من الطوب اللين، وخلع حذاءه ووضعها بجانبه، ثم انتظر بصبرٍ أن يستقبله الشيخ.

بعد قرابة خمس دقائق، أحنى عربي عملاق رأسه؛ ليخرج من المدخل المنخفض، وبعد نظرة هادئةٍ مُتفحِّصة على ضيفه، تقدم ووقف أمام «كا - رع». قال وهو يمد ذراعيه للتحية:

- الله أكبر! مرحب بالغريب في أرضنا.

أجاب «كا - رع» بلغةٍ عربيةٍ أكثر فصاحة:

- بارك الله في سكن الشيخ الجليل وحفظه!

ثم جلس الشيخ القُرْفُصاء على الأرض في مواجهة ضيفه، وخلع نعله المغربي الأحمر. كانت لِحْيَتُهُ رمادية وعيناه سوداوين وثاقبتين. جسده هزيلٌ ولحمه صلبٌ كالحديد؛ مما يدل على قوة بدنية عظيمة. يرتدي العمامة الخضراء التي تثبت أنه أدى فريضة الحج بـ «مكة».

نظر الرجلان إلى بعضهما البعض، بدأ «كا - رع» بعد صمتٍ قصير:

- يُسعدني أن أرى الشيخ الجبار «عنتر»، حبيب الله، لعنة الله على كل أعداء النبي!

كان جواب الرجل جادًا:

- أخي يتكلم جيدًا، ومع ذلك، فأنا أتعجب من المجد والشرف اللذين منحهما لي بحضوره لبيتي المتواضع، لكن معذرة، الاسم الكريم لضيبي يُفلت من ذاكرتي المتقلبة!

انحنى «كا - رع» إلى الأرض.

- أنا من جبل «أبو الفدا»، حفيد الأميرة «حتاتشا»، ومن سلالة «أخت - كا - رع» من ملوك مصر القديمة. اسمي «كا - رع».

بإيماءةٍ كريمة، مدَّ الشيخ يده وصافح يدَ الغريب، وقال:

- لقد وصلت شهرة «المصري» العظيم إلي مسامعي! الترجمان السوري «رشيد»، الذي كانت باخرته «رمسيس» هنا منذ ثلاثة أيام، أخبرني عن حياتك في «القاهرة»، عن هيبتك وثرواتك الهائلة، عن كرمك وحكمتك. وأعرف أنك من «الفدا»؛ لأن شيخ «القوصية» رفيقي. شهرة «كا - رع» «المصري الأخير»، تصل لكل سكان ضفاف النيل.

بعد وقفةٍ أخرى للحظات، للسماح بالتقدير الواجب لهذه المجاملة، تنهَّد «كا - رع» وقال:

- لكن بالرغم من كل هذا، لا تسير معي كل الأمور على ما يُرام أيها الفاضل «عنتر». أعدائي يضطهدونني ويحزنني ذلك كثيرًا! لذلك أتيت لأطلب من أخي المساعدة!

لمعت عينا الشيخ، وقال:

- اللعنة على أعداء «كا - رع». لن يُفلتوا من انتقام «عنتر»!

أجاب الآخر بعيونٍ حزينة:

- كم أنا مُمتنُّ لك! لا أستطيع سوى تقديم القليل لرد مثل هذه المحبة الأخوية. لكنني سأقدم للشيخ الكريم عشرة آلاف قرش - وهي قليلٌ عمَّا يستحقه - في ذلك اليوم الذي أنتقم فيه من أعدائي.

المقابل كبير، إذًا المطلوب عظيم! قال:

- أخبرني يا أخي بالقصة، وسأسمع منك.

عندئذٍ، روى «المصري» بلغةٍ شبه الجزيرة العربية المُنمَّقة، عن حكاية الباخرة التي تتحرك ببطء فوق النيل، وتحمل أعداءه باتجاه قرى «بني حسن». وصف النساء والرجال، ولاحظ أن الشيخ كان ينزعج بشدة عند ذكر اسم «ونستون بك».

ثم بعد ذلك شرح لأخيه الشيخ الجبار «عنتر»، المطلوب منه، وهو الانقراض على «الدهبية» وأسرها، وتسليم جميع الركاب والطاقم إلى «كا - رع» باستثناء شخص واحد - «تادرس» الترجمان - المطلوب هو قتله وإلقاؤه في النهر، ليصل مثواه

الأخير، في الوحل في قاع النيل. ثم الاستعاضة عن طاقم «ونستون» بستة رجال أقوياء من «بني حسن»، الذين سيطيعون أوامر «كا - رع» طواعية كما لو أنهم تلقوا أوامره من «عنتر» نفسه.

وبعد انتهاء المهمة، يُبحر «كا - رع» في النيل إلى «الفدا»، برفقة الشيخ، وهناك لن يكتفي بإعطائه عشرة آلاف قرش فحسب، بل سيعطيه الكثير من الأحجار الكريمة، لاستخدامه الشخصي ولزينة نسائه.

فكر الشيخ طويلاً وبجدية في طلب «كا - رع». لم يكن يريد الاشتباك مع «ونستون بك»، الذي كان يعرفه منذ وقتٍ طويلٍ ويحظى لديه باحترام كبير، لكن تلميح «كا - رع» عن الأحجار الكريمة كان لا يُقاوم، وقد يجد «عنتر» طريقة لتجنّب كشف أمر هذه الأحجار الكريمة أمام الناس.

تطلّب الأمر عدة ساعات لإتمام الاتفاق. لكن في النهاية، فهم كلا الرجلين تمامًا تفاصيل الخدمة المطلوبة والتي يجب تقديمها. تمت مناقشة الاعتداء على «الدهبية» والتخطيط له، والاتفاق على شروط الدفع. كان مقتل «تادرس» مسألة قبلها الشيخ دون اعتراض.

مع وجود اثنين من الأوغاد الأذكىاء مثل المصري «كا - رع» والعربي «عنتر»، يدبران لشئ الغارة، بدا الأمل ضئيلاً في هروب جماعة «ونستون بك» المطمئنة المسالمة!

(34) محمد علي باشا الكبير، خاض حروباً ضد المماليك والإنجليز حتى أخضع مصر بالكامل، وتولى حكمها تحت سيادة الدولة العثمانية.

الفصل الحادي والعشرون التماسيح وأكلو اللوتس!

في عالم السّفاري، إذا كانت هناك رحلة مثالية تمامًا في كل شيء، فستكون رحلة عبر النيل! حيث التغيير المستمر في المناظر، متنوعٌ ورائعٌ مع كل منعطف في النهر؛ موجات المياه اللطيفة، والأغاني التي تسمع صوتها من الحقول البعيدة، وصيحات الملاحين على المراكب الشراعية؛ منظر التلال تحت ضوء القمر، والبقايا الصخرية في الصحراء، يتخللها صَبّار قرمزي رائع وصبار أصفر، نهارًا. أما غروب الشمس، فيرسم سماء مصر الصافية بروعة أسرة، مع منظر ظلال قطيع الحمير والجمال فوق السدود عند الشفق، كل هذه الأجواء الطبيعية الساحرة، تفصل المُسافر عن هموم واهتمامات الحياة القاسية، تأخذه إلى عالم جزيرة «أكلي اللوتس» (35). في أساطير الإغريق، وتترك انطباعًا لطيفًا ومُرضيًا تمامًا، بحيث لا يمكن لأي تجربة سفر أخرى في العالم بأكمله، أن تُقارَن بها أو تمحوها من ذاكرة المرء.

صدقت «أنيت» تأكيد «الترجمان»، بأن الأمير «كا - رع» كان كريمًا، وأخيرًا أعفاها من تنفيذ وَعَدِها له. لم يجرؤ «ونستون» ولا السيدة «إيقرينجهام» على تأكيد تصريحات «الترجمان». لكنهما ظلا صامتين، بينما أوضح «تادرس»، بلا خجل، أن سيده كان غريب الأطوار ومخطئًا، لكنه طيب القلب للغاية، وغير قادر على ظلم أي شخص بأي شكلٍ من الأشكال!

قال لـ «أنيت» على انفراد: «بالنسبة إلى «اللورد رون» يا آنسة، لا شك في أنه فعل شيئًا غير حكيم، أزعج سيدي، الذي يتمتع بإحساس عالٍ للشرف والأمانة؛ لذلك قام بتهديد سيدي، ليعلمه أن يكون أكثر حرصًا في المستقبل. لكنني أؤكد لك أنه لم يكن ينوي تعريضه للعار والفضيحة. لقد أخبرني بذلك بنفسه!»

استمد «الترجمان» قدرًا كبيرًا من الرضا بسبب هذه الاختراعات؛ خاصةً أنه لاحظ مدى تصديق «أنيت» لها ضمنيًا، وكيف عملت هذه الأكاذيب على رفع معنوياتها وجعلها سعيدة بحياتها الجديدة المبهجة. كان الجميع على متن المركب يطلبون مصلحة الفتاة، ومستمتعين بالرحلة المتميزة. لقد استعادت، إلى حدٍّ ما، بريقها القديم وحيويتها. لم يكن هناك أي ضرر الآن، من أن تشعر بسعادة عندما ترى الحب في عيني «چيرالد»؛ خاصةً أنها في رفقة الثلاثة الذين تحبهم أكثر من كل العالم. ويبدو أن همومها وأوجاعها الأخيرة، قد تُركت وراءها في «القاهرة»، ويمكنها أن تتطلع إلى أسابيع عديدة من الاستمتاع والاسترخاء.

ومع ذلك، أعربت عن أسفها لأنها أساءت الحكم على الأمير «كا - رع»، ووعدت بأنها ستطلب منه العفو فور عودتها إلى «القاهرة».

كان «جيرالد» والسيدة «إيفرينجهام»، رغم سعادتهما بتحسُّن حالة «آنيت»، قلقين من الجرأة المتزايدة لتصريحات «الترجمان»، وطالباه بأن يكون أكثر حذرًا. وكانا ينويان، بعد أن تستعيد الفتاة صحتها بالكامل، أن يشرحا لها حقيقة الأمر. أما في الوقت الحالي، فكانا سعيدين برؤية عينيها اللامعتين وعودة اللون الوردي إلى خديها.

ورأى «اللورد رون» أيضًا، أنه من الحكمة عدم طرح الأسئلة. لقد أدرك مما سمعه، أن «كا - رع» أصبح الآن صديقًا لـ «آنيت» بدلًا من عدوِّ لها! وفي هذه الحالة، تم تحجيم خطره على الأقل. لكنه لم يستطع أن يفهم تغير موقف «المصري»، وهل قصد «كا - رع» حقًا مجرد إخافته؟! قال «رون» في نفسه، إن العقاب الذي عانى منه بالفعل بسبب الرعب واليأس، كان كافيًا للتكفير عن خطيئته المنسية منذ زمن طويل ضد «حتاتشا». لكن تُرى، هل «كا - رع» أيضًا يرى الأمر كذلك؟ كان هذا سؤالًا لم يستطع الإجابة عليه، لكنه قرر تأجيل كل المخاوف في الوقت الحاضر على الأقل.

أما «جيرالد ونستون» فكان سيهدر فرصة ثمينة، لو امتنع عن إظهار حبه لـ «آنيت»، خلال هذه الأيام المبهجة، وإلى أي مدى يحبها كثيرًا، وكَمَّ السعادة التي يشعر بها وهو في رفقتها. كانت الأمسيات المقمرة على سطح الباخرة، كافية لإلهام المحبوب الأكثر خجلًا، ولم يجرؤ «جيرالد» على إضاعة فرصته الذهبية تلك. فلا بد أن يكون الفوز بـ «آنيت» في هذه الرحلة، وبتشجيع ومشورة السيدة «إيفرينجهام» لحثه أن يكون جريئًا، أدى مهمته، وأعجب من نجاحه. لقد عانت الفتاة كثيرًا مما جعلها متلهفة للتعلق بقلب حبيبها، وفاز بموافقتها بسهولة. كان ينوي أن يتزوجا أثناء تواجده في «الأقصر» أو «أسوان»، حيث توجد كنائس إنجليزية في كلا المكانين، ووسائل متوافرة لمراسم الحفل. كان «رون» معجبًا بـ «ونستون»، ولم يعترض على أي خطة تضمن سعادة حفيدته، اللهمَّ سوى أن هذه الخطة بدت مَعِيبة فقط في التسرع!

أسعد عرض الزواج «آنيت» بقدر ما أسعد حبيبها. فالأيام البائسة الماضية، عندما اعتقدت أنها فقدته إلى الأبد، كانت كافية لتعرف القيمة الكبيرة لحب «جيرالد»؛ لدرجة أنها تشبثت به الآن، مدركةً أنه يمثل بالنسبة إليها المقياس الكامل لسعادتها المستقبلية؛ ومع ذلك، شعرت بعدم الارتياح، لأن أي تأخير غير ضروري قد يكون خطيرًا. علاوة على ذلك، فقد تعلّمت من اتفاقها مع «كا - رع» مواجهة احتمال الزواج المفاجئ، والزواج الذي كان يمثل لها محنة بغيضة آنذاك سيصبح الآن ذروة الانتصار. قالت:

- متى شئت يا «جيرالد»، سأصبح زوجتك. لا يمكنني أبدًا أن أتمنى وجود شهود آخرين على زواجي أكثر من جدي العزيز والسيدة «إيفرينجهام»، السعادة شيء ثمين، والحياة غير مضمونة؛ لدرجة أنني لا أرغب في مقاومة اقتراحك!

قال بجديّة:

- شكرًا لك يا عزيزي!
- أنا أفضل «الأقصر» على «أسوان». سيكون الأمر رومانسيًا للغاية أن نتزوج في مدينة «طيبة» القديمة، حيث شيّدت الأميرات المصريات منازلهن ذات مرة، وحيث عِشْنَ وأحببن، أليس كذلك؟
- إذًا فليكن في «الأقصر» كما ترغبين!

كان ذلك الأسبوع مليئًا بالبهجة التي لا تُنسى أبدًا. حتى «تادرس» ارتسمت على وجهه ابتسامة دائمة، بسبب طريقة التواصل اللطيف هذه بين العشاق، والتي كانت جديدة تمامًا ومدهشة بالنسبة إليه. لقد شعر بالأمان التام الآن للمرة الأولى منذ أن أكد «كا - رع» تحكّمه في مصير «الترجمان»، وتساءل، طالما أن الأمر كان سهلًا للغاية، لماذا تردّد لفترة طويلة في الابتعاد عن سيده المتعجرف المستبد؟!

وبينما كانت «الدهبية» تسبح ببطء ضد التيار الضعيف للنهر، تساءل «تادرس» وهو عاقدٌ يديه، عمّا يفعله سيده الآن! ولم يستطع أن يتجاهل فكرة غضب «المصري» وارتبأكه عندما اكتشف هروب ضحاياه، أوه، حسنًا، لقد عوّل «كا - رع» على ذكاء «الترجمان»! لذا؛ قد يكون مُحبطًا قليلًا الآن!

بعد ظهر اليوم السابع، أبحروا ببطء متجاوزين قرية «بني حسن»، ويرجع تقدمهم البطيء إلى أن المركب تسير فقط من كل غروب إلى شروق شمس اليوم التالي. كانت «بني حسن» قرية خلابة كما تُرى من النهر، حيث كانت رائحتها الكريهة غير محسوسة، ومجموعات النخيل الرائعة، تضيء سحرًا على المكان.

«أنيت»، التي كانت تجلس سعيدةً بجانب «چيرالد»، تحت مظلة المركب الكبيرة، أعجبت بالقرية جدًّا، ووعدتها حبيبها بالتوقف عندها أثناء عودتهم، واصطحبها لزيارة المقابر الشهيرة في التلال القريبة.

عند الغسق، رَسَتِ المركب في منتصف الطريق بين قريتي «بني حسن» و«الشيخ عبادة»، ظلت قابضة بلا حراك على بعد أمتار قليلة من الضفة الشرقية.

الأمسيات مبهجة في هذا الجزء من مصر. وفي منتصف الليل، بعد أن ذهب ركاب «الدهبية» إلى النوم. ظل «تادرس» مستيقظًا، ممددًا على السطح الخلفي للباخرة، بعد أن نام الآخرون بوقت طويل، منهمكًا في التحديق في ضفة النيل الجبلية العالية، والانغماس في أحلام سعيدة بمستقبل رائع، يفكر في وضعه عندما يضيف الثلاثة آلاف جنيه التي سيأخذها من «ونستون بك» إلى مُدخراته التي جمعها طوال حياته.

فجأة، ظهر للحظة شبح أسود في الجزء العلوي من الضفة واختفى بسرعة، ثم ظهر على السطح شبح آخر، تلاه آخر!

نفض «تادرس» رأسه في حيرة. هذه الأشياء التي ظهرت وتحركت كانت صامتة مثل الموتى. أحصى العشرات منها، وبينما كان لا يزال يفكر في شكلها، وهو لم يقرر بعد ما إذا كانت أشباحًا أم كلابًا بريية، التقطت أذناه اليقظة حركة في الماء بجانب الضفة.

لم تكن كلابًا بريية، هذا أمر مؤكد. لأن تلك الوحوش المفترسة لا تقترب من الماء أبدًا. ولا الأشباح تستحم حيث كان يرقد، كان الشاطئ بالكاد على بُعد أقدام، وتمكن «تادرس»، وهو يميل جهة النهر من فوق مؤخرة «الدهبية»، من اكتشاف العديد من الرؤوس التي تغوص، وتطفو على سطح الماء في الضوء الخافت.

كان يجب أن يطلق إنذارًا فوريًا، لكن الرعب جعله مترددًا، وقبل أن يتيح له الوقت أن يتصرف، كان الوقت قد فات لإيقاظ رفاقه المسافرين.

وأصبح صعود قوس الباخرة على بُعد نصف درجة من العرب العرّاة، الذين يقبضون على سكاكينهم بين أسنانهم المتلألئة، وعيونهم الدّكّاء تتجول بشراسة حول الباخرة.

كانت الفكرة الأولى لـ «تادرس» هي القتال. ولكن بينما كان على وشك أن يقف على قدميه، ظهر هناك رجل يعرفه، استطاع أن يقفز من الخلف، وينزل إلى المقصورة الصغيرة حيث تنام النساء.

كان هذا الرجل «كا - رع»!

في تلك اللحظة، لم يعد هناك مجال للتردد من جانب «الترجمان». انزلق من فوق سطح السفينة إلى الماء ببراعة كانزلاق صخرة في قلب المياه، وبينما قصف أذنيه الصراخ والصيحات الغاضبة، سبح «تادرس» بصمت عبر النيل باتجاه الشاطئ المقابل.

كان الماء باردًا وارتجف وهو يسبح. لكن البرودة كانت أقوى من داخله وليس من الخارج. هو يعرف أنه لا توجد تماسيح في النيل الآن. ولكن في بعض الأماكن، توجد الثعابين والأسماك الشبيهة بأسماك القرش، التي قد تقضم قطعة من لحم من ساقه! هو يعلم بهذا الخطر المريع، لكنه لم يفكر فيه في ذلك الوقت. لم ينشغل ذهنه سوى بوجه «كا - رع» الكئيب الخبيث، والموت المؤكد الذي كان سيواجهه على متن «الدهبية»، الآن، دافع «الترجمان» الوحيد، هو الابتعاد عن الخطر قدر الإمكان.

وقد حالت الاضطرابات على المركب دون أن يلاحظ أحد هروبه على الفور، وبعد سباحة طويلة، استنفدت قوته تقريبًا، وصل إلى الشاطئ الغربي، وسقط وهو يلهث على الأرض الجافة.

استعاد أنفاسه ببطء، وحاول التقاط أي صوت قد يخرج من «الدهبية»، ولكن الآن، ساد صمت جائر على الجانب الآخر من النهر. كانت أنوار المركب البخارية خافتة خلال الليل، لكن مصير من تركهم على مَثْنها محاطٌ بالغموض. ربما قتل «كا - رع» وعصابته الجميع ما عدا الفتاة، وربما قتلها هي أيضًا. على أية حال، وصلت علاقة «الترجمان» بهذا المشروع إلى نهاية مفاجئة!

على بُعد ميل أو نحو ذلك، كانت تقع بلدة «الروضة» الصغيرة وبها محطة سكة حديد. بدأ «تادرس» في السير نحوها، مبتعدًا عن حافة ضفة النهر؛ حتى لا يتم اكتشافه، في حال تعقّبهُ أحد.

كان حزنه واستياؤه من هذا الانقلاب المفاجئ في الحظ شديدين. لقد فقد ثلاثة آلاف جنيه تم ربحها بالفعل، ولكنه خسرها بشكل لا رجعة فيه، وتفكيره في أن عداوة «كا - رع» القاسية ستلاحقه طوال حياته، جعل حالة «الترجمان» محزنة حقًا.

تساءل عما يجب أن يفعله الآن. العودة إلى «القاهرة» أمر غير وارد. سيعود إلى منزله القديم في «الفدا». «نفطيس» وأمها هناك، ستخفيانه إذا ظهر «كا - رع» فجأة. نعم، «الفدا» هي الملاذ الوحيد الآمن له الآن، على الأقل، حتى يُتاح له الوقت لإعادة النظر في خطته المستقبلية.

وصل «تادرس» إلى المحطة في قرية «الروضة»، - القرية التي سُميت على اسم الجزيرة القديمة في النيل مقابل «القاهرة» - . هناك سأل شيال المحطة العربي عن مواعيد القطارات، فنظر إلى ملابس «الترجمان» المُبلّلة بنوع من الشك الواضح، وأخبره أن هناك قطارًا سينتجه جنوبًا في الساعة السادسة صباحًا.

غادر «تادرس» المحطة، وعثر على مكان يختبئ به في المنطقة المجاورة، حيث كانت الظلمة شديدة لدرجة أنه لا يمكن لأحد ملاحظته. هنا استلقى للراحة وانتظر وصول القطار.

بحلول الفجر جفّت ملابسه، لكنه لاحظ بأسفٍ أن سترة الساتان الزرقاء التي كان يرتديها، قد دمرتها مياه النهر، ووشاحه السوري قد تجعد بشكل مخجل. يحب «تادرس» ثيابه الفاخرة كحبه للحياة نفسها! وقد أضعف اكتشافه لملابسه الرثة معنوياته بشدة.

عندما انطلق القطار، استقله ووجد نفسه جالسًا في مقصورة مقابل «اللورد كونسينور»! حدّقًا في بعضهما البعض للحظة، ثم أطلق «الكونسينور» صوتًا بدا وكأنه مزيج غريب من الهدير والضحك. سخر في لغة إنجليزية:

- إنها روح «كا - رع» البديلة ها هنا!

رد «الترجمان» بسرعة:

- عفواً يا سيدي، لقد تركت العمل معه. لديّ أسباب أكثر منك لكُره الأمير.
- حقًا!
- هو شيطان أتى من الجحيم!
- لا أعرف أي جحيم يمكن أن يُولّد فيه «كا - رع». لكن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا، سأنتقم منه قبل أن أموت!

لم يكن هناك شكّ في التأكد من غلّ الرجل الحاقد. ابتسم «كونسينور» وقال:

- يُسعدني أن أشاركك في الانتقام منه!

فجأةً، أتت على رأس «تادرس» فكرة مهمّة وخطيرة؛ لدرجة أنه هو نفسه كان مندهشًا، وحدّق في وجه الآخر بهدوء. دخل في حالة صمت لبعض الوقت، يقلب الفكرة برأسه، ويفحص كل جوانبها بحرص شديد. ثم سأل بحذر:

- إلى أين أنت ذاهبٌ يا سيدي؟
- إلى «أسيوط».
- اعتقدت أنك غادرت «القاهرة» منذ فترة طويلة.
- نعم، لقد زرت «الإسكندرية»، لكنني لم أجد شيئًا هناك يسليّني. أنا الآن متجه إلى «أسيوط»، ومن هناك أنوي السفر إلى «أسوان» ثم «وادي حلفا».
- هل أنت في عجلةٍ من أمرك للوصول إلى هناك؟
- ليس تمامًا.
- إذًا غادر معي القطار في «القوصية». لديّ اقتراح من شأنه أن يثير اهتمامك!

تفحصه «الكونسينور» لحظةً، ثم سأل:

- هل يشمل هذا الاقتراح انتقامنا؟
- نعم.
- ممتاز؛ سأفعل كما تقترح.

صاح «تادرس»، حسنًا! ثم انحنى وهمس، انتقام وثروة يا سيدي! ألا يستحق ذلك الوقت؟!

(35). بحسب الأساطير الإغريقية: هم قوم حالمون، يعيشون معًا في جزيرة، وكلما أكلوا من شجرة «اللوتس» ينسون أوطانهم، ويتعلقون فقط بمن في رفقتهم.

الفصل الثاني والعشرون خُطة التَرْجُمان

غادر «كونسينور» القطار برفقة «تادرس» في المحطة المقابلة لقرية «الفدا»، ومن هناك استأجر «الترجمان» رجلًا يحملهما في قاربه الصغير عبر النهر. لم يقدم «كونسينور» أي أسئلة، وبدا غير مبالي تمامًا بشأن الوجهة التي يذهبان لها. في الواقع، كانت حياته بلا هدف منذ فراره المُشِين من «القاهرة»؛ لدرجة أنه رحب بأي تغيير قد يخفف من رتابة حياته المُملَّة.

عندما وصلا إلى «الفدا»، أخذه «تادرس» سرًّا إلى كوخ «نفرت» العجوز، خبّازة القرية، والذي كان يقع مباشرة عبر الشارع من مسكن «حتاتشا»، المملوك الآن لـ «كا - رع». كان «كونسينور» يشعر بالاستياء من قذارة الكوخ، الذي يجب أن يختبئ فيه، حتى أتى «الترجمان»، وشرح له شيئًا من الخطة التي كانت تدور في ذهنه.

بدأ «تادرس» بقص التاريخ المبكر لـ «كا - رع»، مؤكدًا أن «حتاتشا» العجوز، كانت قادرة على إعالة نفسها وحفيدها دون أي جهد أو عمل. ثم تحدث عن وفاة «حتاتشا»، وكيف اكتشف لفائف ورق البردي القيِّمة في حوزة «كا - رع». ومنذ ذلك الحين وحتى تحوله لـ «أمير» شهير في «القاهرة»، وأن كل ذلك لا يحمل إلا تفسيرًا واحدًا، هو أن «كا - رع» كان على علم بمقبرة قديمة تحتوي على ثروات كبيرة.

قال «الترجمان»:

- ذات مرة قمت أنا مع «كا - رع» بزيارة إلى «الفدا»، لكنني لم أشكَّ في مهمته وتجاهلت مراقبته، حيث كنت مشغولًا في ذلك الوقت بفتاة معينة في القرية. في الصباح، وجدت أنه قد حمّل حقائب سفره بالكنوز والجواهر الثمينة، التي مكّنته من العيش عيشة الأمراء منذ ذلك الوقت.

سأل «كونسينور» بشغف:

- من أين حصل عليها؟
- كما قلت لك، من مقبرة خفيّة، لا يعرف سرّها إلا هو نفسه.
- هل تعتقد أنه أخذ كل الكنز؟
- لا، لديّ سبب للاعتقاد بأن الموجود أكثر بكثير جدًّا مما أخذه. ذات مرة، في لحظة كان فيها غير منتبه، أخبرني أنه لا يستطيع أن ينفق كل ثروته ولو عاش ألف عام!
- هل تعتقد أنه يمكننا اكتشاف هذه المقبرة؟

- نعم، إذا تصرفنا بذكاء. لا فائدة من الصيد من دون شَبَاك، لكن «كا - رع» سيزودنا بالشَبَاك التي نحتاجها!

استفسر «الكونسينور»:

- كيف يمكن ذلك؟
- هو قادمٌ إلى هنا الآن.

عبس «الكونسينور»، قال في الحال:

- أنا لا أهتم بلقائه!

هز «تادرس» كتفه قائلاً:

- ولا أنا. ولكن لن يكون من الضروري بالنسبة إلينا أن نلتقي به، وهو لن يشكَّ في أننا موجودون في القرية من الأساس!
- كيف ذلك؟
- هو قادمٌ للحصول على المزيد من الكنوز، لأنه استنفد كل ما أخذه سابقًا، أنا متأكد من ذلك. لقد وعد التجار بالمال ولن يجرؤ على تأخير زيارته لـ «الفدا». علاوة على ذلك، هو ليس بعيدًا عن هنا. سيصل في الغد، إذا جاء في دهبية «ونستون بك»، لكن إذا قرر ركوب القطار، فقد يكون هنا هذا المساء.
- في هذه الحالة، ماذا تقترح أن نفعل؟
- نتجسس عليه! لنكتشف أين يخبئ الكنز، وعندما يذهب، نعود للمكان ونحصل على ما نريد.

بدت الفكرة مُجديَّة تمامًا عندما شرحها «الترجمان» بالتفصيل. دخلا مسكن «كا - رع» وفحصا المكان بدقة.

وأوضح له «الترجمان»:

- هنا بلا شك، توجد نقطة انطلاقه. من هنا لديه إما ممر سرِّي إلى الجبل، أو بعيدًا إلى عمق الصحراء، حيث يتم إخفاء مدخل المقبرة تحت الرمال. يجب أن نكون مستعدين لمراقبته في أيِّ من الحالتين؛ ولهذا السبب اقترحت عليك مساعدتي، بدلًا من الاحتفاظ بكل هذه الثروة لنفسني. أنا متأكد من أن هناك الكثير يكفي ليقتسمه شخصان، بل وأكثر.

أجاب «الكونسينور» باقتضاب:

• بلا شك.

لقد رأي بالفعل من مكانه وهو جالس في كوخ فقير، حُلماً بالثروة الكبيرة، التي من شأنها أن تُمكنه من العودة إلى «لندن» وتخطي كل المهانة والفضائح التي تعرض لها.

ناقشا الأمر مُطوّلاً وبجدية. وسكان القرية القليلون، الأغبياء الكسالى، يجهلون تمامًا وجودهما. وقررا أخيرًا، أنه عند اقتراب مجيء «كا - رع» يجب أن يخفي «كونسينور» نفسه تحت فراش «حتاتشا» القديم، حيث قام «تادرس» بترتيب المكان، بحيث يمكن للـ «كونسينور» أن يلاحظ كل حركة يقوم بها أي شخص داخل المسكن. ثم يتربص «الترجمان» نفسه على حافة القرية ليتبع «كا - رع» إذا ذهب بعيدًا إلى الصحراء.

في حقيقة الأمر، كان «تادرس» على يقين بأن الكنز مُخبأ داخل الجبل، لكنه لم يكن لديه أي نية للمخاطرة بحياته، طالما تمكن من حث «الكونسينور» على أن يصبح مخالفه القناصة. لأن انكشاف الأمر يعني الموت، وهو يعرف ذلك جيدًا. كان من الأفضل عدم المجازفة، وإذا نجح «الكونسينور» في معرفة سر «كا - رع»، فإن ذلك يعني بالنسبة إلى «تادرس» نفس الشيء. لقد عرف كيف يستغل هذا الرجل الإنجليزي المنبوذ، وإذا ثبت أن الكنز كبير كما يعتقد، فيمكنه أن يكون كريمًا، وسوف يلعب دورًا عادلًا مع شريكه. ولكن يمكن النظر في ذلك لاحقًا.

لم يرغب «تادرس» في أن يرى القرويين الفضوليين الرجل الغريب، لكن لم يكن هناك أي ضرر في معرفتهم أن «الترجمان» قد جاء في زيارة لأصدقائه القدامى مرةً أخرى؛ لذلك أصرَّ على أن يبقى «كونسينور» مختبئًا في كوخ «نفرت» العجوز، ويهرع إلى زاوية مظلمة عند سماع صوت أي خطوة، بينما يذهب هو ليزور «سارة» وابنتها لتعزيز حُططه الذكية!

الفصل الثالث والعشرون الأم والابنة

عندما اقترب «الترجمان» من كوخ «سارة»، توقف عند العتبة ليرصد المشهد في الداخل، وقف مترددًا، يتذكر أنه بسبب سلوكه المتهور، تم تجريد فتاة النيل من ثيابها ومجوهراتها الجميلة وإعادتها إلى منزلها من «القاهرة» بفضيحةٍ وعار. وظل منظرها البائس يطارده منذ ذلك الحين.

وجدها جالسةً بخنوع إلى التُّول القديم، تقذف المكوك ذهابًا وإيابًا بنفس الجهد والطريقة الميكانيكية التي كانت عليها في الماضي. ترتدي نفس العباءة السوداء، المفتوحة من الصدر، العباءة الممزقة والمرقعة؛ لأنها الثوب الوحيد الذي تمتلكه. حتى الخرزات الزرقاء وجدها أيضًا حول رقبتها.

لكن العيون التي استدارت بها نحو «تادرس» كانت مختلفة تمامًا. كانت أعماقها المخملية السابقة محجوبة بغشاوةٍ باهتة، بينما شوّه نعومةً جبينها تجاعيدٌ وجهها العابس المتجهّم.

ومع ذلك، عندما تعرفت إلى «الترجمان»، نهضت من مكانها بنظرة شغوفة مفاجئة وحدود متوهجة. وسألته:

• هل أتيت من أجلي لتأخذني مرةً أخرى؟

أجاب «تادرس» بيأس، «لا»، وألقى بجسده على أريكة ليسترريح. لقد شعر بالخجل دون أن يعرف لماذا يجب أن يستمتع بمثل هذا الشعور - الشعور بالخجل والحزن - على الرغم من بلادة مشاعره المعتادة وتجاهله الأناني للآخرين.

استندت «نفتيس» إلى الوراء واستأنفت عملها على النول. غطت الغشاوة الباهتة عينيها مرةً أخرى. لم تُعر اهتمامًا إضافيًا لضيغ والدتها. أما «سارة»، فكانت غاضبة وساخطة! هتفت به:

- «كا - رع» هذا أفعى، تمساح، مخادع، وضيع، سيئ السمعة! هو أسوأ من العربي! لو كان ها هنا لدفنته في التراب. لماذا طرد ابنتي الجميلة من حريمه؟ أخبرني!
- لمجرد أنني و«نفتيس»، بصفقتنا أصدقاء قدامى، كنا نرغب في التحدّث عنك وعن معارفنا في «الفدا». لا أدري لماذا لا نثرثر وندخن سيجارة معًا؟ ذات مرة امتلكتها لنفسي!
- صحيح. لقد كنت أحمق لبيعتها!

أردف باستخفاف:

- ومع ذلك، يجب ألا تنسى أن «نفتيس» عاشت لفترةٍ من الوقت كملكة، وارتدت ملابس رائعة لا مثيل لها، وتزينت بالمجوهرات الثمينة. ليست كل فتاة تتمتع بمثل هذه الرفاهية، حتى ولو لوقتٍ قصير، لتكون راضية بنصيبها!

صرخت «سارة» العجوز:

- راضية! لقد دمّرتها. لم تُعد سعيدة في مسكنها القديم، وعندما تتكلم - إذا تكلمت - تلعن «كا - رع». انظر إليها! هل هي الآن سميننة وجميلة كما كانت من قبل؟ لا. إذا ظلت الفتاة المسكينة على هذا الحال، لن تعيش طويلاً، فسوف تموت هيكلاً عظيماً!

هتف بها «تادرس» في الحال:

- لا سمح الله! لكن إذا كانت تريد العودة مرةً أخرى، فإن قضيتها ميئوس منها. أنا متأكد من أن «كا - رع» لن يلين ويعيدها مرةً أخرى. هو قاسٍ وحكمه على النساء سيئ!

ثم وضع يده على صدره بفخر قائلاً:

- سأخذ «نفتيس» لنفسى. ربما لا أعدّها بأن ترتدي ثياباً فاخرة كتلك التي أحضرها لها «كا - رع»، لكنها ستصبح سميننة مرةً أخرى، وستحصل على حرير وجواهر كما كانت من قبل.
- وسجائر؟
- بالطبع.

سحب علبة السجائر المفضلة من جيبه ورماها باتجاهها. أشعلت «سارة» واحدةً بلهفة وأعطت العلبة لـ «نفتيس». بعد لحظات، بدت الفتاة وكأنها تفهم، أنه بإمكانها أخذ واحدة. أخذت «سيجارة» وأشعلتها من التي كانت والدتها تدخنها. علّت وجهها ابتسامةً بمتعة طفولية، وتركت النول وجاءت وجلست في حجر «تادرس».

قال «الترجمان»:

- أتوقع أن «كا - رع» في «الفدا» في الوقت الحالي. لكن يجب ألا يعرف أنني هنا. لقد كان بيننا خلاف. تشاجرت معه وهو يهددني ويلاحقني.

قالت «سارة» بهدوء:

- لا تحفّ أبدًا، يمكنني إخفاؤك في التجويف الموجود في الجدار الخلفي، هذا لا يعرف عنه «كا - رع» شيئًا. هناك ستكون بأمان حتى يرحل.
- حسنٌ جدًّا!

سألته المرأة:

- متى سيأتي؟ ولماذا عاد إلى «الفدا» مرةً أخرى؟
- أتوقع الليلة أو الغد. لا أعرف لماذا سيأتي.
- ربما للصلاة بجانب مومياء «حتاتشا»!

سأل في الحال:

- أين؟
- لا أستطيع اكتشاف ذلك، كثيرًا ما كنت أفتش مسكنهم، لكن لا أجد أي باب سرّي في أي مكان. لا بدّ أن يكون القبر في التلال، أو ربما في الصحراء. هناك واحة يعيش فيها القزم «ثابت». كان معروفًا بأنه أحد أكثر أتباع «حتاتشا» إخلاصًا.

قال «الترجمان» بتفكّر:

- هذا صحيح.
- يجب أن يكون القبر في واحة «ثابت». بمجرد أن سرق «كا - رع» حمار «نيكاو» العجوز، ركبه وذهب به إلى هناك.

استجوبها «تادرس»:

- هل كانت هذه آخر مرة جئنا فيها إلى هنا؟
- لا. كان ذلك عندما ماتت «حتاتشا».
- إذن القبر ليس في الواحة. أنا متأكد من أنه قريب جدًّا من «الفدا». لكن اسمعي يا «سارة»، إذا وافقتِ أن آخذ «نفتيس» وأعولها، يجب أن تساعدني عندما يأتي «كا - رع».

- لقد وعدت بإخفائك في الجدار القديم، هل يمكنني فعل أكثر من ذلك؟!
- نعم. يجب أن تذهبي على الفور إلى رأس التل وتراقبي قدوم الأمير. عينك يجب أن تكونا ثاقبتين بالرغم من تقدّمك في السن. سيأتي من النيل، إما عبر النهر أو من الشمال، على متن باخرة وليس مركب شراعية. بمجرد أن تعرفي بوصوله، ستسرعين إليّ هنا، وسيتيح لنا ذلك الوقت، للاستعداد له. هل ستفعلين هذا لأجلي؟
- هل يمكنني الحصول على علبة سجائر لأخذها معي؟
- نعم.

• إِذَا سَأَفْعَل مَا تَطْلِبُهُ مِنِّي!

ذهبت بعيدًا إلى رأس التل على الفور، تاركةً «تادرس» مع «نفتيس». لكن الفتاة نسيت وجوده بالفعل، وكانت تحرق أمامها مباشرةً بعيونٍ شاردةٍ بلا بريق.

تنهَّد «الترجمان». تمتم وهو يتفحَّص جسدها، إنه أمر مؤسف حقًّا! لكن هذا صحيح، الفتاة أصبحت نحيفة بالفعل!

الفصل الرابع والعشرون مساومة الشيخ «عنتر»

لم يشكَّ أحدٌ على متن «الدهبية» في وجود خطر. كان «ونستون بك» يعرف جيدًا طابع الغدر لدى سكان قرى معينة، لكنه لم يتخيَّل ولو لحظةً واحدة، أن يتهجم أحدٌ على الباخرة أو يزعج ركبها؛ لذلك، كانت المفاجأة ثقيلة جدًا!

استيقظت السيدة «إيفرينجهام» من البداية، عندما سمعت طقطقة أقدام عديدة على سطح الباخرة، ورأت رجلًا يتقدم إلى الكابينة حيث كانت نائمة هي و«آنيث».

كان إلهامها الأول هو الصراخ. لكنها بدلًا من ذلك، مدَّت يدها تحت وسادتها، وسحبت مُسدسًا صغيرًا، أطلقت به رصاصتين في تتابعٍ سريعٍ على المتسلل. لم تُصب أيُّ من الرصاصتين الهدف، لكنهما أذهلتا «كا - رع» بقدر ما أفزعته صرخاتها القوية، التي انضمت إليها «آنيث» أيضًا. انسحب على عَجَلٍ من المقصورة؛ مما سمح للسيدة «إيفرينجهام» بإغلاق الباب وتثبيتته بقضيب ثقيل مُخصَّص لهذا الغرض.

كانت المقصورة اللاحقة للسيدات، بينما شغل «ونستون» و«اللورد رون» مقصورةً أصغر من الأمام. وبين المقصورتين يوجد المطبخ وغرفة المحرك. عندما وصل رجال الشيخ «عنتر» بالقرب من القوس، كان أول شيء فعلوه، هو الهبوط في الكابينة الأمامية، وأسر الرجال البيض قبل أن يكونوا مستيقظين تمامًا. لم يُبَدِ «رون» أي مقاومة على الإطلاق، لكن «ونستون» كافح بقوة لدرجة أن الأمر تطلب مشاركة ثلاثة رجال، على رأسهم الشيخ الضخم. ولم يتطلب الأمر سوى بضع دقائق لتقييد أيدي الرجال وأرجلهم بأمان، ثم تُركوا على الأسيرة، تحت حراسة رجال الشيخ «عنتر»، الذين يحملون سكاكينهم في أيديهم؛ استعدادًا لمنع أي هروب محتمل.

تم التغلب بسهولة على الرجال العرب من طاقم باخرة «ونستون»، وبحلول الوقت الذي وصل فيه «كا - رع»، وُضعوا على سطح المركب بحذر. لم يكن هناك إراقة دماء على الإطلاق، وأصبحت الباخرة الآن تحت سيطرة الأمير ومرتزقته بالكامل.

أوماً الشيخ برأسه مع اقتراب «المصري»، قال:

- حسنًا! كان الأمر في غاية السهولة يا أمير. الرجلان الأبيضان في الأسفل، والمركب كلها صارت لنا.

نظر «كا - رع»، في ضوء مصباح خافت، إلى وجوه سجانِيه. سأله:

- أين «الترجمان»؟ هل قتلته كما أمرتك أن تفعل؟

ردَّ الشيخ:

- للأسف لم تتحقق هذه المهمة الممتعة؛ لأنه لم يكن على متن الباخرة!
- هل أنت متأكد؟
- تمامًا يا أمير.
- ربما يكون مختبئًا. ابحث في كل جزء من المركب جيدًا باستثناء مقصورة النساء.

هزَّ الشيخ كتفيه، لكنه أعطى الأمر لرجاله. قاموا بفحص كل مخبأ محتمل دون العثور على «الترجمان». في هذه الأثناء، جلس «كا - رع» على ظهر السفينة، يفكر بجدية في ما يجب أن يفعله بعد ذلك، بينما جلس الشيخ الصامت بجانبه بلا مبالاة. ولما عاد العرب من سعيهم الفاشل عن «الترجمان» قال «المصري» لحليفه:

- دَعَّ رجالك يراقبوا السجناء حتى الصباح. لا يمكننا فعل أي شيء أكثر من ذلك في الوقت الحالي.

فتمددوا جميعًا على ظهر «الدهبية» واستراحوا حتى طلوع الفجر. بمجرد أن أصبح النور خفيفًا بدرجة كافية لتمييز الأشياء بسهولة، نهض «كا - رع» وأمر بإحضار «ونستون» و«اللورد رون» على سطح المركب. هناك شاهد كلاهما «المصري» للمرة الأولى منذ السطو على الباخرة، وفهما سبب تعرضهما للهجوم. قال «ونستون» وهو يحدِّق غاضبًا في وجه عدوّه:

- كنت أظن أنني مَدِينٌ لك بشيءٍ لتقوم بهذا الهجوم، ربما لا تدرك يا أمير «كا - رع»، أنك بهذا الفعل الخارج عن القانون، تكون قد دمرت نفسك وحياتك المهنية.

رد «كا - رع» مبتسمًا:

- لا. أنا لا أدرك ذلك!

أردف «ونستون بك»:

- لا يتم التسامح مع هذه الأشياء في مصر اليوم.
- نعم، هذا صحيح، إلا إذا كان الأمر غير معروف!

سأله «ونستون» بسخط:

- هل تعتقد يا سيدي أنني سأبقى صامتًا؟!
- نعم، بكل تأكيد.
- ولماذا؟

- لأنني لا أنوي السماح لك بالعودة إلى «القاهرة». افهمني يا «ونستون بك»، أنا ليس لي أية عداوة شخصية تجاهك، لكنك رأيت أنه من حَقك التدخل في شئوني الخاصة، وبذلك دمرت نفسك. وأصبحت خارجًا عن القانون بما يكفي للاستيلاء على باخرتك، وغضبي لن يهدأ إلا بتنفيذ رغبتني في الحصول على حيازة «آنيث كونسينور» و«اللورد رون»، وأنا مجبر من أجل حماية نفسي، على إسكات كل شخص على متن المركب، قد يتسبب في إزعاجي في المستقبل. لذلك من الضروري قتلك!
- أنت لا تجرؤ على فعل ذلك!

أجاب «كا - رع» بهدوء:

- أنت تسيء الحكم عليّ! ولكن سأكون سعيدًا لأن أقدم لك دليلاً فوراً على صدق كلامي، أنتقل إلى «عنتر»، وقال:
- أيها الرفيق، ضع سكينك في قلب «ونستون بك»!

لم يتحرك الشيخ.

صرخ «كا - رع» بفارغ الصبر:

- هيا!

رد العربي بثبات:

- هذا ليس في الاتفاق.

قال «المصري» بحدة:

- أنت مخطئ. كان مفهومًا تمامًا، أنه يجب عليك إطاعة أوامري؛ خاصة فيما يتعلق بقتل أولئك الذين كنت أرغب في إسكاتهم.

رد الشيخ قائلاً:

- ليتذكّر أخي، أنه كان هناك أيضًا اتفاق في مسألة صغيرة تتعلق ببعض المجوهرات والقروش.
- ستحصل عليها!
- متى أحصل عليها، سأفعل ما تريد.

ابتسم «ونستون»، ولما رأى «كا - رع» نظرتة الساخرة، بدأ يسبُّ ويلعن!

سأل «عنتر» بغضب:

- هل ستخذلني الآن، بعد فوات الأوان لأيِّ منَّا للتراجع بأمان؟
- هذا كلام من دون معني. أنا لا أعترض على القتل، صدقني يا أخي. لكن أهل قريتي فقراء، والأموال التي وعدتهم بها ستفعل الكثير لتخفيف معاناتهم. اسمح لي أن أرى الأحجار الكريمة والقروش وسأنفذ كل رغباتك.

نظر «ونستون» إلى العربي العملاق عن كثب. بدا وكأنه يتذكّر الرجل، لكنه لم يستطع تحديد هُوَيْتِه؛ لأن «عنتر» لم يكتفِ بقصّ لحيته الرمادية، بل صبغها باللون الأسود الغامق. لكن بالرغم من ذلك، هو يعرف أن سكان القرية ماكرون وطماعون، والحديث الذي سمعه أعطاه فكرة جيدة. تحدث إلى الشيخ وقال بالعربية:

- اسمع يا شيخ، إذا كان المال هو كل ما تريد، فسوف أقدم لك ضعف ما يعطيه لك «كا - رع». من الأفضل بكثير أن يدفع الرجل للحفاظ على الحياة، مما يدفعه آخر مقابل الانتقام. حدد المبلغ، وسيكون لك ما تريد.

التفت عنتر نحو «المصري»، والرضا يعلو ملامحه القاسية. قال:

- ليقلّ أخي كلمته!

قال «كا - رع»:

- هذا كلام سخيف! «وينستون بك» يتلاعب بك. كل أمواله في «القاهرة». وعندما تذهب إلى هناك، سوف يلقي بك في السجن، وسيتم تدمير أهل قريتك وهدم منازلهم لإرضاء شرطة الحكومة.

لاحظ «ونستون» تلاعب «كا - رع» وطمان الرجل قائلاً:

- الشيخ الكريم ليس أحق! سيبقينا في قبضته، في حراسةٍ مشددة، حتى يرسل إلى «القاهرة» ويحصل على المال. كما أنني أعد بالأخونه، وسأحافظ على كلمتي مثل الأمير «كا - رع»!

سأل «المصري»:

- لكن لماذا يذهب إلى «القاهرة» من الأساس، إذا كان سيأتي معي إلى «الفدا»، ويأخذ أجرًا، لا يمكن لكل ثروة «ونستون بك» أن تُقارن به وبروعة الكنز الذي سأضعه بين يديه؟!

لمعت عينا الشيخ. صاح:

عظيم!

سأل «كا - رع»:

- هل ستكون مخلصاً لي؟
- ولم لا؟
- هناك الكثير من الكنوز تحت أمري. لن يكون لك مجرد حفنة من الأحجار الكريمة، ولكن كنز يكفي لجعل قبيلتك تعيش في رغد دائماً.
- وأنا أصدق أن أخي يقول الحقيقة.

قال «كا - رع» وهو يشعر بارتياحٍ أكثر:

- إذًا، أطلب منك قتل «ونستون بك» كدليل على ثققتك بي. اترك الآخرين أحياء حتى نصل إلى «الفدا».

عاد الشيخ ليقول بلا مبالاة:

- تالله! ما فائدة تقسيم غنيمة الحفل؟ أنا لا أحب قتل هذه الخنازير على مراحل، هذا يعني تنظيف السكّين عدة مرات بدلاً من مرة واحدة. تحلّ بالصبر يا أخي. عندما نصل إلى «الفدا»، وتتوطد صداقتنا بكرمك الملكي، سوف أنفذ كل عمليات القتل في فترة وجيزة، أليس ذلك أفضل؟

تردد «كا - رع»، لكنه رأى بوضوح أن الشيخ الماكر لن يثق به. علاوة على ذلك، كان يخشى أن تصبح عروض «ونستون» المتلهفة للمزايدة عليه فعالة، ما لم ينفذ وعوده للعرب الجشعين في أسرع وقت. لم يكن يتوقع أن يدفع لـ «عنتر» ثمناً باهظاً مقابل خدماته، وفي بداية الاتفاق، قصد أن تكون فقط «حفنة» الأحجار الكريمة صغيرة جداً، لكن «عنتر» أوقعه في شركٍ بذكاء، وأدرك الآن أنه يجب أن ينفق مبلغاً باهظاً لحثّ الشيخ العجوز على الانصياع لأوامره.

بالأخير، هذا لا يهم. كان الكنز بأكمله ملكاً لـ «حتاتشا» قبل أن يصير له، وسيتم إنفاق جزء منه لضمان تنفيذ انتقامها. هو وحده يعلم أن الكنز لا ينضب، وقد ينفق مقدار وزن العربي الضخم من الجواهر والمشغولات الذهبية، ومع ذلك يتبقّى له أكثر بكثير مما يمكن أن يستخدمه طوال حياته.

لذلك وافق، برضا مُصطنع، على اقتراح «عنتر»، وفكّ قيود المهندس «عبد الله» وأمره بتشغيل «الذهبية»، لتبدأ رحلتها فوق النهر. وسوف يستغرق الأمر ثلاثين

ساعة قبل الوصول إلى «الفدا».

سُمح لـ «رون» و«ونستون» بالبقاء على ظهر الباخرة، لكن تم تقييدهما على كراسيَّهما وحراستهما بحذر. كما تم تقديم الإفطار، ورافق «كا - رع»، الخادم العربي الذي حمل الصينية إلى مقصورة النساء. لم يزعجها «المصري» منذ الليلة السابقة، وهو يعلم جيداً أنهما أمتتا أنفسهما أفضل مما يمكن أن يفعل هو.

قرع الباب بجرأة وقال:

• ائذن لي بالدخول.

سألت السيدة «إيقرينجهام»:

• من أنت؟

• الأمير «كا - رع».

تابعت:

• وبأي حق تزعجنا بوجودك على متن هذه المركب؟

• سأشرح لك ذلك، عندما تسمحين لي برؤيتك!

ساد الصمت للحظاتٍ قليلة. ثم تابع «كا - رع»:

• فطوركما هنا، والخادم في انتظارك لتفتحي الباب.

فجأة، رُفع القضيب الحديد، وفتحت «آنيث» الباب على مصراعيه!

صرخت السيدة «إيقرينجهام»:

• لحظة واحدة من فضلك!

وبينما كان «كا - رع» على وشك الدخول، رأى السيدة تقف في منتصف الكابينة ومسدها مصوّب نحوّه.

قالت بهدوء:

• كنت مستاءة جداً البارحة لأنك أفلتت مني، لكنني على يقين من أنني أستطيع

التصويب مباشرة هذا الصباح!

تراجع «كا - رع» قليلاً. سأل:
• لماذا تخافيني؟

أجابت:

- أنا لا أخافك، بل أنت الذي تخاف، ولديك أسبابك لتخاف. لكنني لا أثق بك، لقد أفتعتني بجدارة بأنك وغد بارع. إذا كان لديك أي شيء تقوله لي أو للآنسة «كونسينور» فنحن على استعداد لسماعه، وإلا من الأفضل أن تذهب؛ لأنني الآن عصبية للغاية وإصبعي على الزناد! عندئذ أعلن:
- لقد استحوذت على هذه الباخرة، وجميع الذين على متنها هم الآن سجناء لي!

تابعت ضاحكة:

- كم هذا مثير! هل لي أن أسأل ماذا تنوي أن تفعل بنا؟ هل ستتهب الباخرة أم ترفع العلم الأسود وتصبح قرصان النيل الحديث؟ هيّا أيها القرصان، أخبرنا بالسر!

أجاب غاضباً من استهزائها:

- في الوقت المناسب يا سيدتي، ستعرفين كل شيء، وربما أكثر مما تطلبين، لكن هناك شيء واحد مُحدّد، الآنسة «كونسينور»، وهنا ألقى نظرةً شريرة، على الفتاة التي وقفت بوجهٍ شاحبٍ في الخلف، ثم أردف:
- لن تهرب مني مرةً أخرى. سأصطحبها إلى «القاهرة» وأحافظ عليها آمنةً في قبلاّتي الخاصة، أما بالنسبة إليك يا سيّدة «إيفرينجهام» فإن حياتك معلقة بخيطٍ رفيع. إذا كان بإمكانني الاعتماد على تقديرك وسكوتك، فقد أعفو عنك، لكنك ذكية بما يكفي لتفهمي أنني لا أستطيع تحمّل خطر الاتهامات في المستقبل!

أجابت السيّدة «إيفرينجهام»:

- يا رجل، حياتك البائسة في هذه اللحظة لا تستحق المجازفة. إذا تجرأت على التحرش بهذه الفتاة أو التحرش بي مرةً أخرى، أو حتى أريتنا وجهك القبيح في هذه الكابينة، أقسم أنني سأطلق عليك النار على الفور. ثم التفتت للخادم قائلة:
- هنا يا «سليم»، أحضر تلك الصينية. وضعها على الطاولة. الآن، أيها الأمير، سأمنحك دقيقة واحدة لتختفي.

رحل الرجل في لحظة، ووجهه ينقبض بغضبٍ وهو يلعن تلك المرأة التي نجحت في تحدّيه.

- على ظهر المركب التقى بالشيخ. وقال:
أخبر المهندس أن يدفع المركب إلى الأمام بسرعة، يجب أن نستمر في التحرك ليلاً ونهاراً حتى نصل إلى جبل «أبو الفدا».

أجاب الشيخ:

- حسنًا جدًّا، أنا لا أُطيع صبرًا أكثر منك يا أخي. فقط السجناء، الذين كانوا يراقبوننا ونحن نشهد سكاكيننا، هم الذين لا يتعجلون!

الفصل الخامس والعشرون المزاج البُرْزِيَّة

ظلت العجوز «سارة» تراقب عن كَثْبٍ ذلك اليوم واليوم التالي من أعلى التل، تكسر ملل ساعات المراقبة بتدخين سيجارة من علبة السجائر الفاخرة، من أن لآخر. بعد وقتٍ قصيرٍ من ظهر اليوم الثاني، أسرعَت إلى «تادرس». قالت:

• إنه قادم!

نهض «الترجمان» من مكانه، واستفسر:

- من أي اتجاه؟
- من أسفل النهر. إنها باخرة «ونستون بك»، وبعد نصف ساعة سيكون عند المرفأ.
- عودي في الحال. انتظري حتى يهبط، ثم تعالِي إليّ على الفور. سأكون في منزل «حتاتشا».

أطاعت «سارة»، ومن آثار الدهشة على «الترجمان»، تبعت «نفتيس» والدتها إلى رأس التل. كانت الفتاة قد نهضت عندما عادت المرأة العجوز، يبدو أنها فهمت من المحادثة الحماسية، ومن أوامر «الترجمان»، أن «كا - رع» قادم. ومع ذلك، لم تقل شيئًا! لكنها أسرعَت خلف والدتها، واتخذت مكانًا بجانبها على التل المرتفع، لترى النهر عن بُعد.

ركض «تادرس» إلى مسكن «حتاتشا»، حيث يختبئ «كونسينور»، الذي انزعج كثيرًا من الاختباء في كوخ «نفرت» العجوز. في ذلك الصباح. هرب إلى مسكن «حتاتشا»، الذي يُعد أيضًا ملاذًا آمنًا مثل الآخر، حيث لا يغامر أيٌّ من القرويين بالدخول إلى المسكن المظلم، وكان «تادرس» سعيدًا؛ لأنه نجح في الهرب من مراقبة أهل القرية. الآن، كان هناك القليل من البهجة في هذا الكوخ الكئيب! ومع ذلك، كان «كونسينور» يعتقد أنه بالكاد يمكن تعويضه عن الساعات البائسة من الانتظار بهذه المكافأة الموعودة! دخل شريكه في المؤامرة؛ ليعلن أنه حان الوقت المُتوقَّع للعمل. قال «تادرس»:

• لا توجد لحظة لتضيعها، انطلق في عجلة من أمرك، هيّا بسرعة!

رَتَّبَ المكان على الفور تحت فراش «حتاتشا» القديم، ووضعه أسفل الفراش بحيث رفع رأسه قليلًا، واستقر على حجارة الجدار؛ مما مكَّنه من مراقبة كل ركن من أركان المسكن من خلال البوص المتناثر فوقه وحوله.

بعد أن خبّاه بأمان، وقف «تادرس» إلى الورااء وفحص المكان؛ ليتأكد بأن «كا - رع» لن يشكّ في أن هناك من اقتحمه مؤخرًا. الترتيب كان جيدًا جدًا. حتى إنه لم يستطع رؤية «كونسينور» نفسه، رغم أنه يعلم أنه كان مختبئًا هناك!

سأله:

- هل أنت مستريح في هذه الوضعية؟
- ليس تمامًا.
- أعني، هل يمكنك البقاء بهدوء في هذا الوضع لمدة ساعة أو أكثر؟

أجاب «كونسينور» من تحت البوص:

- نعم!
- إذًا، سأذهب! كُنْ حذرًا جدًا في أفعالك. تذكّر أن ثروة هائلة لكلينا تتوقف على أحداث الساعة القادمة، ويجب ألا نرتكب أي خطأ. سأذهب لمراقبة الشارع والصحراء خلفه. وداعًا، حطًا سعيدًا!

غادر الكوخ، ألقى الحصيرة الخشنة فوق المدخل، ثم عبر إلى كوخ «نفرت». الآن، جاءت «سارة» تركض نحوه. قالت:

- لقد نزل عن الباخرة، وهو قادم في هذا الاتجاه!
- عظيم! اذهبي للمنزل.
- السجائر كلها نفذت!

ألقى لها بعلبة أخرى، وسرعان ما اختفت داخل مسكنها. لم تكن «نفريس» معها، لكن «تادرس» نسي الفتاة حينذاك. وتسلمت هي داخل الغرفة الأمامية لمسكن «نفرت»، واختبأت في الظل حيث يمكنها الرؤية من خلال فتحة في الجدار، كانت بمثابة نافذة لها، على الممر المقابل لمسكن «حتاتشا».

دخل «كا - رع» الشارع الضيق ونظر حوله بحذر. أسعده كثيرًا أنه لم يكن هناك - أمام ناظريه - أي من سكان القرية الفضوليين. أما الشيخ ورجاله، فكانت «الدهبية» والأسرى بحوزتهم، ينتظرون عودته بفارغ الصبر. لذلك يجب عليه أن يدخل المقبرة السرية مرة واحدة، قبل أن يحلّ الظلام ويعيق تحركاته. سكان «الفدا» كانوا خاملين وغير مباليين، ولم يكن هناك أي احتمال لمحاولة التجسس عليه.

نظر بفخر إلى الخاتم الذي يرتديه في إصبعه. كانت تميمة «آخت - كا - رع» قوية حقًا! فقد مكّنته من تحقيق كل ما تمناه، وكانت تحميه حتى الآن. ترى، هل يجب أن ينتهز هذه المناسبة ليعيدها إلى مقبرة سلفه، ذلك العجوز الذي توّسل إلى تركها مع

موميائه إلى الأبد، وهدد باللعنة لمن يتجرأ على إزالتها؟ لكن لماذا يجب على «كا - رع» ترك تميمة الحظ الثمينة، حبيسةً في تلك الزنزانة الجبلية؟ لماذا يحرم نفسه من الامتيازات التي منحها لصاحبها قديمًا؟ لا يمكن أن تفيد هذه التميمة «أخت - كا - رع» الآن، هو منسِيٌّ منذ زمن بعيد في العالم السفلي، لكنها قد تكون مفيدة لـ «كا - رع» من نواح كثيرة. نعم؛ يجب أن يحتفظ بها، على الرغم من توصلات ولعنات ذلك الميت الذي تمّى بحماقة وأناية أن تُترك مع موميائه!

ربما يومًا ما، بعد سنوات، سيعيد التميمة إلى التابوت من حيث أخذها، لكن ليس الآن. نظر مرةً أخرى إلى الجوهرة الفريدة، التي بدت بروعة غير عادية في تلك اللحظة، وهي تطلق ألسنة اللهب في كل اتجاه. لعنة؟! لماذا عليه أن يهتم بلعنة مومياء وهو يمتلك أعظم تميمة حظ في العالم؟!

تسلل داخل، مسكنه وشد حصيرة المدخل خلفه، وثبَّتْها بحرص. كان «تادرس» قد راقب كل تحركاته، وتنقَّس الصُّعداء بعد أن دلف «كا - رع» إلى مسكنه. الآن، في جميع الأحوال، أصبحت المغامرة في مواجهة «الكونسينور»، سيعاني خطرَ اكتشافه بعيدًا عنه!

جلس «الترجمان» على الأرض، وأبقى عينيه على مسكن «كا - رع». فجأةً، ظهرت «نفتيس» وهي تتسلل بحذرٍ مثل قطة، وجلست القرفصاء أسفل المدخل الحجري. لم تحاول أن تزيح الحصيرة جانبًا، لكنها ظلت جاثمةً على الأرض أمام المدخل. راقبها «تادرس» بفضول، ولاحظ أنها دسَّت إحدى يديها إلى داخل صدرها، كما لو كانت تمسك بسلاح أو شيءٍ ما!

ثرى هل هو خنجر؟ ربما. لقد ظلمت «نفتيس» ولها العذر في كراهية «كا - رع». لكن هل يجب أن يتدخل «الترجمان» لإنقاذها؟ إلى أي مدى؟ قبل أن تتمكن الفتاة من قتله؟ سيكون سر «سليل الملوك» في حوزة «الكونسينور»، وبعد ذلك لن تمثل لهما «نفتيس» أي إزعاج إذا اكتشفت سرهما. من الواضح أنها مسألة لا تستوجب التدخل!

في غضون ذلك، راقب «كونسينور» دخول «كا - رع»، والعناية التي تم بها تثبيت الحصيرة، لإبعاد أعين المتطفلين. لقد حجب ذلك معظم الضوء أيضًا، وأزعج «المصري» أكثر مما أزعج الرجل الإنجليزي، الذي اعتادت عيناه الآن على ظلام الكوخ.

كان على «كا - رع» أن يتحسَّس طريقه على طول الجدار إلى أن يصل لمكان المخبأ السري، لكنه كان يعرف موقع المكان بالضبط، وسرعان ما وجده. رآه «كونسينور» يأخذ من المخبأ، خنجرًا برونزيًا رقيقًا بشفرة حادة، شكله فريد، ومصباحًا قديمًا.

اقترب من الحائط المقابل للغرفة - الذي بُني أمام الجبل وملاصقًا له - ودفع أحد الحجارة بقوة.

تزحزح الحجر إلى الداخل. ولم يَرَ الجاسوس سوى السواد وراءه؛ لذا يجب أن يعتمد على عدِّ الحجارة من الزاوية إلى الفتحة، ثم ملاحظة هل هي في الطبقة الثالثة أو غير ذلك. أثناء هذا الوقت، تسلل «كا - رع» وأغلق الفتحة. الآن، صار «كونسينور» يتنفس بصعوبة من شدة الإثارة. الاكتشاف العظيم تم بسهولة! كل ما يحتاج إليه هو الانتظار حتى يخرج «كا - رع» ويغادر القرية، وبعد ذلك سيتمكن من زيارة المقبرة السرية بنفسه.

ولكن مع مرور اللحظات ببطء، بدت اللحظات ساعاتٍ طويلةً مُملَّةً، وبدأ يشعر بعدم الارتياح. وتذكَّر أن «تادرس» أُكِّد له على ضرورة اتباع «كا - رع» أينما ذهب. وهنا انتبه إلى أن خلف هذا المدخل، لا بُدَّ أن يكمن باقي السر.

خوفًا من إضاعة الوقت الثمين في التأخير، ألقى غطاء البوص جانبًا، واقترب من الحائط. حاول عدِّ الحجارة. ظلَّ يحدِّق بها لفترةٍ طويلةٍ لكي يعرف بالضبط المكان الذي لمسه «كا - رع».

أخيرًا، عرفه بشق الأنفس، وعندما دفع الحجر المقصود، تزحزح مرةً أخرى إلى الوراء، وتسلل من خلاله كما فعل «المصري» ووجد نفسه في مواجهة ظلام دامس!

كان «الترجمان» قد توقع مثل هذا الموقف؛ لذلك قدم شمعة لشريكه. أشعلها «كونسينور»، وترك المدخل الحجري مواربًا إلى حدِّ ما، حتى لا يواجه مشكلة في الهروب، إذا اضطر إلى العودة على عَجَل، بدأ يستكشف بحذرٍ مختلف الممرات التي تؤدي إلى داخل الجبل.

أضاع بعض الوقت في متابعة المسارات الزائفة، إلى أن صادف بعض أعواد ثقاب محترق، استخدمها «كا - رع» ثم ألقى بها، عندما كان يضيء مصباحه، وكانت موجودة عند مدخل خشن بين الصخور.

واصل «الكونسينور» سيره في هذا المسار، وبعد أن تعثَّر كالأعمى، حتى انتهى تقريبًا في طريق مسدود، وصل إلى باب دائري، كان مفتوحًا على مصراعيه. فيما وراءه كان هناك ممر ممهد بواسطة المُنقِّبين بعنايةٍ في قلب الجبل.

توقف «كونسينور» مؤقتًا لفحص الباب بعناية. لقد تم تشييده بزكاء شديد، فهناك ستة أسنة ضخمة من البُرُنز، متراصة على طول حافة الصخرة، وكانت المفصلة الواحدة، ذات حجم هائل ومصنوعة بالمثل من البُرُنز الصلب. لكنه لم يستطع رؤية

ثقب المفتاح، أو الرافعة التي بواسطتها يُفتح الباب. كان السطح الخارجي عبارة عن صخرة غير منتظمة الشكل، لكنها تبدو منسجمة في أبعادها مع جانب الممر، والحواف والسطح الداخلي كانا مصقولين بعناية بالإزميل. بعد أن فحص سطح الجدار، عثر على مقابس من البرُنز، تدخل فيها المزالج البرُنزيّة، وهذه المقابس مثبتة بإحكام في الجدار، لكنه لم يفهم أنه عند إغلاق الباب، كانت المزالج تثبت نفسها تلقائيًا في المقابس. لكن كيف تم فتحه؟ هذا لغز لم يستطع حلّه. لأن «كا - رع»، بعد فتح الباب، سحب الخنجر - عن غير قصد - من الفتحة السرية وحمله معه إلى داخل المقبرة. لقد كان ذلك تصرفًا متهورًا، فإذا سقط منه الخنجر داخل الممر بالصدفة، فسيكون بعد ذلك عاجزًا عن دخول المقبرة مرةً أخرى؛ لأن الخنجر كان بمثابة المفتاح الوحيد. علاوة على ذلك، فإن إزالة الخنجر من الفتحة كان عديم الجدوى؛ لأنه، كما أوضحت «حتاتشا» ذات مرة، لا يمكن فتح الباب من الداخل.

كان «كونسينور» على قناعة بأن «المصري» لا بُدَّ وأن اجتاز هذا الممر؛ لذلك دلف من المدخل بحذر. لقد كان طريقًا طويلًا ومستقيمًا، مائلًا للأسفل. وقبل أن يمضي بعيدًا، أصبح الجوُّ ثقيلًا وخانقًا. ومع ذلك، قرر أنه إلي حيث يذهب «كا - رع»، لا بُدَّ أن يلاحقه، وثأبِر جدًّا، وهو يحمل الشمعة فوق رأسه ويمشي بسرعة كلما أته الجراءة والقوة لفعل ذلك.

في هذه الأثناء، كان «المصري» قد وصل إلى حجرة المومياءات الكبيرة، حيث أهمل، بسبب تسرّعه، إضاءة أيّ من المصابيح البرُنزيّة، معتمدًا فقط على الإضاءة الخافتة التي أتاحها الفتيل الوامض لمصباحه الصغير. مرَّ بمومياء جدته «حتاتشا» وجدته «تي - آتون»، وبالكاد ألقى نظرة في اتجاههما، ثم أسرع بين صفوف التوابيت، باتجاه الجزء العلوي للغرفة. حيث مكان التابوت الحجري العظيم لـ «أخت - كا - رع»، الذي تتألق آلاف الجواهر بروعةٍ من فوق غطاءه، عند انعكاس الوهج المتقطّع لفتيل المصباح، وصل «كا - رع»، لمكان الفتحة السرية المؤدية إلى غرفة الكنز، أسفل لوح الملائحيت.

أزاح الحجر، فانزلق إلى الورااء بصوتٍ بدا وكأنه أنين احتجاج، وبدا «المصري» متوترًا. للمرة الأولى يظهر عليه الرعب، بعد أن أدرك مهابة المكان المخيف!

لكنه سيطر على مخاوفه وتمتم، ربما يكون شبح جدي العظيم، ينوح على فقدان تميّمته. إذا استطاعت روحه أن تتسلل عائدةً من العالم السفلي البعيد، فستطلب مني بلا شك استرداد تميّمه الحظ... لا، ليس بعد! نادى بصوتٍ عالٍ ساخرًا:
يا جدي «أخت - كا - رع»! أجل لعنتك لمدة عام، ولن تكون هناك حاجة لها. الآن فقط لديّ احتياج شديد لهذه التميّمه أكثر مما لديك!

وهو يقول هذه الكلمات، تسلل من الفتحة ونزل الدَّرَج إلى الغرفة أسفل التابوت. كان قد أحضر معه كيسين من القماش، شرع في ملء أحدهما بأفقر الحلي وأقلها قيمة، من بين الحلي المبعثرة في المكان. حتى هذا الوقت، ما زال يرى أن الجزية التي سيعطيها للشيخ «عنتر»، تفوق بكثير قيمة خدماته، وظل «كا - رع» مستاءً بشدة من ضرورة رشوة العربي الماكر.

أما الكيس الآخر، فكان يحتوي على كنزه الخاص، ولأنه قد يتجنب الزيارات المتكررة لهذا المكان الكئيب، الذي بدأ يخشى منه، اختار لنفسه أندر الأحجار الكريمة وأثمن المجوهرات والمشغولات الذهبية، مُلقبًا بجميعها معًا في الكيس حتى امتلاً وفاض، ولم يتمكن من ربطه، إلا عن طريق هز المحتويات بشدة!

شعر بثقل الأكياس، عندما حملهما ليرفعها لأعلى. علق المصباح البرُنْزي أمامه بسلسلةٍ تبتها في زرٍّ في معطفه الرَّمادي. ثم وضع حمل الأكياس تحت إحدى ذراعيه، صعد الدرج وصعد من الفتحة إلى غرفة المومياءات العلوية.

فور صعوده لأعلى، اختلَّ توازنه بسبب ثقل الكنز، تعثَّر وسقط بشدة على تابوت «أخت - كا - رع» الضخم. كانت شدة الارتطام كافية لإسقاط التمثال النصفي الذهبي لـ «إيزيس» من مكانه. سقط التمثال على صدر «كا - رع»، فسقط من يده المصباح وتركه في ظلامٍ دامس. ثم ارتدَّ وسقط على يده، فسحقها على الجدار الرخامي من المقبرة. صرخ من شدة الألم وهو يتشبث بالتابوت، وهناك، استقرَّ مغشياً عليه بلا حراك في الظلام، بينما يستمع لصوت التمثال يسقط في الفتحة عند قدميه، ويتدحرج ببطء، خطوة بخطوة، إلى غرفة الكنز الموجودة أسفله، ليستقرَّ في النهاية بعد أن تحطم، إلى جوار الكنز الذي تراكم على مر العصور!

ارتجف «كا - رع» بشدة. الحادثة المروعة التي وقعت له، والسواد الذي أحاط به، والجلبة المروعة في ذلك المكان الصامت، والهدوء المخيف الذي أعقبها، كلها تأمرت معًا لتروعه وتملأ قلبه بالرعب. سقطت الأكياس من بين يديه. رفع يده المصابة تحسس أصابعه وأطلق صرخة مفاجئة بذعر. لقد كُسر الخاتم الذي يحتوي على جوهرة جده الثمينة بسبب ضربة التمثال، وذهبت التميمة.

لقد ذهبت التميمة! لذلك حلت اللعنة. هي عليه الآن، وربما كانت تقف إلى جانبه روح «أخت - كا - رع» الساخطة، تشاهده خلال الظلام وتشمت في انزعاجه!

رعشة ضربت كل أطرافه، سقط «المصري» على ركبتيه، وبدأ يزحف هنا وهناك فوق الحجارة المتعرجة، وعيناه تحدقان في الظلام وأصابعه تتشبث بكل نتوءٍ طفيف، على أمل العثور مرةً أخرى على الجوهرة الرائعة، التي يمكن لها وحدها أن تحميه. اللعنة حلت عليه الآن، لكنه سيقاوم قوتها المرعبة. يجب أن يقاوم. لأنه إذا استسلم

في هذه اللحظة، فلن يكون هناك هروب من مصيره في المستقبل. التميمة، لا بُدَّ أن يعثر على التميمة! هي بكل تأكيد في مكانٍ ما في غرفة المومياوات الشاسعة تلك، تختبئ بمكر في انتظاره لاستعادتها.

اللا مبالاة الباردة التي كانت جزءًا لا يتجزأ من طبيعة «كا - رع» قد هجرته تمامًا في هذه اللحظة. والخوف الخرافي الذي ورثه منذ القرون استحوذ على قلبه بالكامل. تتمم بشكل غير متزن، وصار يبحث بكل أطرافه الأربعة، يتنقل هنا وهناك في بحثه العبثي. فقط كلمات التحذير المكتوبة في المخطوطة الصغيرة، ولعنة سلفه على كل من حرمه من تميمة الحظ، وحدها هذه الكلمات شغلت ذهنه، أصبح فجأة خائفًا وعنيفًا بسبب اللحظة الكارثية التي يمر بها.

كانت الظلمة جائرة. ولم يكن هناك صوتٌ منذ أن اصطدم التمثال الذهبي وسقط ليستقرَّ بغرفة الكنز. الجوُّ، على الرغم من تغذيته وتجذُّده من خلال بعض القنوات الخفية من المقبرة إلى سطح الجبل، بدا راکدًا ومليئًا بالرائحة الكريهة للمومياوات. سحب «كا - رع» جسده المرتعش بجهدٍ شديد، وشعر أن الصمت والهواء الثقيل والظلام، كل هذه تتآمر لخنقه. لقد وجد المصباح الآن، لكن الزيت انسكب وذهب القَتِيل. ولم يخطر بباله أن يشعل عود ثقاب. قال، إذا كانت التميمة هنا، سأرى ألسنتها المشتعلة حتى في الظلام. لا يمكن أن تُفِلت مني. يجب أن أبحث حتى أجدها.

تسلل مرتين حول تابوت «أخت - كا - رع» الضخم، تحسَّس طريقه بحذر، وحدَّق في الظلام بعيون منتفخة، ثم جاءت المكافأة! أ برق خطُّ نارٍ أمام عينيه واختفى. ثم تكرر ذلك مرةً أخرى. توقف وراقب باهتمام. ظهرت سحابة زرقاء خافتة من حيث أبرقت الألسنة النارية. في بعض الأحيان كانت بلون قرمزي، ثم أصفر كبريتي، ثم أبيض نقي. تنطلق بشدة من السحابة المركزية، التي أخذت شكلًا تدريجيًا، ورسمت الشكل المستطيل للجوهرة الرائعة.

أخذ البريق يتوهج أكثر فأكثر؛ انطلقت الألسنة النارية أسرع وأكثر جمالًا، لقد أضاءت المساحة المحيطة في المقبرة، وأظهرت جمالها!

حدَّق «كا - رع» بدهشة امتزجت بالخوف؛ لأن التميمة كانت مُلقاةً على الأرض، مباشرةً تحت الدائرة الذهبية الثلاثية التي نزعها منها بخنجره. لم تُفِلت فقط من مالکها غير الشرعي، ولكنها عادت إلى حيث وضعها «المصري القديم» في الأصل، والآن تسخر منه بتألقها السحري. كان بإمكانه أن يمد يده ويمسكها في قبضته، ولكن رعبه من لعنة «أخت - كا - رع»، كان هائلًا لدرجة دفعته بالأحرى لبيتعد عن الجوهرة الشيطانية.

كم كانت روعة تألقها! لقد أضاءت التابوت الحجري والجدار خلفه. أضاءت الأرضية بخطّ عريض من الضوء الأصفر. حتى إنها عكست ضوءها على «كا - رع» نفسه وهو متدللٌ أمامها على يديه وركبتيه. لا يمكن لأي جوهرة عادية القيام بذلك. لقد كانت التميمة، لقد كانت..

فجأةً أطلق صرخةً تردد صداها المرعب في القبو، وقفز على قدميه. لإلقاء نظرة خاطفة على كتفه؛ لقد اكتشف وجود شخص آخر معه في المقبرة!

في الطرف الآخر من الغرفة وقف رجل يحمل شمعة مضاءة فوق رأسه. كان يقف بلا حراك يحدق بفضول في منظر «المصري» المنبطح، وهو غارق في مقبرة مغطاة بالجواهر والأحجار الكريمة.

لكنه قابل صرخة «كا - رع» بصرخة أخرى مرعبة، واستدار لا إرادياً كما لو كان سيطير، عندما قفز الآخر وتقدم نحوه بسرعة.

تجاوز «المصري» صفوف المومياوات الصامتة بسرعة، بينما كان «كونسينور» ينتظره في زهول من التردد. ثم أدرك أخيراً خطورة موقفه، ألقى الشمعة على الأرض، وركض في الممرّ بأسرع ما يمكن.

على الرغم من أن هذا التصرف، جعل «كا - رع» يغرق مرةً أخرى في الظلام، فإنه يعرف الطريق أفضل بكثير من الرجل الإنجليزي، ولم يتردد في اتباعه للحظة. لقد نسي الآن لعنة «أخت - كا - رع»، نسي أمر تميمة الحظ. أدرك «كا - رع» أن شخصاً آخر قد اكتشف سرّه، وتطلّبت سلامة الكنز، والحفاظ عليه، عدم السماح للدخيل بمغادرة المقبرة وهو في قيد الحياة.

من جانبه، كان «الكونسينور» أبطأ في فهم الموقف بهذه الطريقة، لكن لم يكن هناك شكٌ في أن «المصري» لا يريد سوى الأذى، والوسيلة الوحيدة للهروب، هي الممر الطويل الضيق. أثناء فراره، اصطدم بالعمود الضخم، الذي يفصل المكتبة عن حجرة المومياوات وارتدّ على جدار الممر، وسقط بشدة على الأرض.

في لحظة قفز «كا - رع» فوقه، يضغط بركبته على صدر الرجل، وأصابه النحيلة التي تشبه المخالب، التفتّ حول حلق عدوّه بضراوة.

لكن عندما يتعلق الأمر بالمصارعة، لم يكن الإنجليزي خَصماً هيئاً. فعندما أطلق «المصري» يده للبحث في صدره عن الخنجر البرُنزي، أمسكه «كونسينور» فجأةً من الوسط وألقى به بسهولة، وانعكست أوضاعهما، ليستريح بجسده الثقيل، على جسد

الرجل الخفيف. بعد أن فشل «كا - رع» في العثور على السكين، أمسك مرةً أخرى بحلق الآخر بأصابعه القوية.

لم يكن هناك سوى شيء واحد يجب القيام به في هذه الحالة الطارئة اليائسة. رفع «الكونسينور» رأس عدوّه وحطمه على الأرضية الحجرية. أرخى «المصري» قبضته. وفقد وعيه؛ ليُخرج نفسه من هذا العناق القاتل، نهض «كونسينور» ببطء على قدميه، ودماغه يترنّح، عادت أنفاسه إليه بالتدريج بزفراءٍ قصيرة.

اتّكأ لبضع لحظات على الحائط ليتمالك نفسه، ثم تشجّع على مواصلة الهروب، ترنّح ببطءٍ على طول الممر، وهو يتحسس طريقه، بإبقاء إحدى يديه على جدار الممر.

ومع ذلك، لم يذهب بعيدًا، حتى التقط صوتًا خفيًا يحذره من عودة «كا - رع» إلى الحياة. فأذنه التي صارت يقظةً وحساسةً لأي صوت بسبب محنته المخيفة هذه، أخبرته أن عدوّه قد عاد لوعيه، وقد سمع وقع أقدام تلاحقه.

لكن «كونسينور» كان يتقدم بالفعل بأسرع ما يمكن، مدفوعًا بالخوف. أثناء تقدمه في الظلام الشديد، كانت أقدامه تصطدم أحيانًا بجوانب الجدران الصخرية بقوة. لكن بشكل عام كانت طريقه سلسة ومستقيمة، ولم يكن «المصري» يبدو متفوقًا عليه بشكلٍ كبير، من الواضح أنه أصيب بالدوّار من الضربة على رأسه، لكن الرجل الإنجليزي أرهق أيضًا من الاختناق الذي تحمّله.

وهكذا واصل كلاهما، وهما يلهثان عبر الجو الخانق، حتى ركض «كونسينور» فجأةً في مواجهة الطرف الصخري للممر وسقط مذهولًا على الأرض. لقد سمع طقطقة خُطى «كا - رع»، الصوت الذي يشير إلى أن «المصري» كان يقترب تدريجيًا، وأدرك وهو في حالة الذهول تلك، أن الموت الوشيك يحاصره. وبجهدٍ أخير، قفز واقفًا على قدميه، وهبط من خلال الفتحة الدائرية، وأغلق الباب في مكانه بكل قوته المتبقية.

سمع صوت الطقطقة الحادة للمزالج وهي تدخل في مقابسها، وصراخ الرعب المكتوم من «كا - رع» الحبيس خلفها!

فُزِع بشدة مما فعله، ووقف مرةً أخرى على قدميه، ثم تحرك بسرعةٍ نحو مدخل الممر الخارجي غير الممهّد.

لمسافة معينة، كانت أرضية هذا الممر الطبيعي ممهدةً مثل الأرضية الاصطناعية، وقبل أن يصل إلى الجزء الأكثر خشونة، رأى «كونسينور» ضوءًا خافتًا في الأمام، يأتي من الفتحة الموجودة في جدار الغرفة.

لكن كل دواعي الطمأنينة والهدوء قد هجرته الآن. وتجلّى جنبه تمامًا منذ اكتشافه الأول بما فعله بـ «كا - رع»، فهو لم يكن متأكدًا حتى الآن، من إغلاق المزلاج البرُنْزِيَّة في وجه عدوّه، وأنه أصبح في مأمن من المطاردة. مع استمرار صرخة «كا - رع» اليائسة في أذنيه، وصل إلى الحائط، ومرّ من خلال الفتحة، أزاح الحجر لمكانه كإجراء احترازي إضافي، ثم أسرع في زعر عبر الغرفة.

سمعتة «نفتيس» قادمًا وظنت أنه «كا - رع». وبينما كان يشقّ الحصيصة ليخرج إلى خارج الكوخ، نهضت الفتاة واقفةً على قدميها وبسطت يدها وطعنته بوحشية.

سقط «كونسينور» وهو يئنُّ عند قدميها، مُخَضَّبًا الأرض الصخرية بشلال من الدماء. في اللحظة التي هُرِع فيها «تادرس» لمساعدته، كان قد مات!

وعندما تأكد أن الضحية هو شريكه، صار يائسًا مسعورًا. اندفع إلى المسكن وحدّق حوله مذعورًا. بدت الغرفة أمامه كما كانت مائة مرة من قبل. لم يكن «كا - رع» في أي مكان! والآن، فقد إلى الأبد، ذلك السر الذي تآمر بذكاء لأجل اكتشافه.

صرخ عائدًا إلى المدخل:

• تَبَّا لِكِ يَا «نفتيس»! لقد قتلتِ الرجل الخطأ ودمرتِ حظِّي إلى الأبد!

لكن الفتاة اختفت. جلست في كوخ والدتها بهدوء على النُّول، واستأنفت عملها القديم!

الفصل السادس والعشرون الترجمان ينتصرا!

انتظر الشيخ «عنتر» عودة «كا - رع» حتى نَفِدَ صبرُه. ثم غادر «الدهبية» واتجه عبر الرمال إلى «الفدا»، ليعرف ما سبب تأخر الأمير عن العودة بمكافأته الموعودة. بالنسبة إلى «عنتر»، تبدو هذه المجموعة من الأكواخ الجبلية غير جذابة أو مريحة عند مقارنتها بقريته، ولم تكن هذه التلال أماكن محتملة لمقابر تحوي كنوز الآثار. كان يعلم أن المستكشفين الفرنسيين والإيطاليين أتوا لهذا المكان، ولم يجدوا سوى بعض حفر موميوات التماسيح.

انتاب الشيخ الكثير من الشكِّ فجأة. لقد كانت وعود «كا - رع» مبالغًا فيها للغاية، بحيث لا يمكن تصديقها، لا شكَّ أنه خدع «عنتر» من البداية، وسعى للحصول على خدماته دون مقابل. صحيح أنه اشتهر في «القاهرة» بكونه ثريًا، لكن يبدو من السهل عليه أن يبدد ميراثه منذ فترة طويلة. كان «عنتر» متأكدًا من شيء واحد: يجب على الأمير «المصري» أن يعطيه كنزه في الحال أو أن الشيخ - الذي يعتقد أنه تعرض للخداع - سيتعهد بالانتقام منه على حسابه الخاص!

تأمل المكان حوله، استدار من زاوية التلِّ وأتى حيث يجلس «تادرس» - الذي كان ينتظره - . دَسَّ «الترجمان» إبهاميهما في جيوب سترته الفضية والزرقاء الرائعة. وقف الاثنان متباعدين، كان «تادرس» في حالة كآبة واضحة، ووجهه حزينًا وساخطًا.

صاح الشيخ:

• أه، هذا هو الرجل الذي طلب مني «كا - رع» قتله!

رد «تادرس» بخنوع:

• لا أشكُّ أن قتل شخص أسهل بكثير من دفع الأجر الذي يستحقه!

سأل «عنتر» بحدَّة:

- هل هو مَدِينٌ لك بالمال؟
- نعم. والآن لن أحصل على مستحقاتي أبدًا.
- ولمَ لا؟
- ألم تسمع بما حدث؟ جاء الأمير «كا - رع» إلى هذه القرية قبل ساعاتٍ قليلة، واستقبله نقيب في الشرطة، يريد في «القاهرة» لأنه متهم في أكثر من اثنتي عشرة جريمة.

- صاح «عنتر» بغضب:
- ماذا! هل أبلغت الشرطة عنّا؟! أنا؟ كمّ هذا سخيف! لقد جنّث إلى هنا لأحصل على أموالي. لكنهم أخذوا «كا - رع» إلى الجنوب في قبضة عشرات الجنود القادمين من «أسيوط». والآن، سيعودون إلى هنا بقوات لإنقاذ «ونستون بك»، الذي يعاني بعض المشاكل بسبب تصرفات «كا - رع».

قال الشيخ:

- أنت تكذب عليّ. أنت من أبلغت الشرطة علينا. أنت خائن!
- بدا «تادرس» حزينًا. قال:
- أنت تعرفني منذ زمن طويل يا شيخ، ولم ترّ سوى أنني كنت دائمًا رجلًا أمينًا. ليس لي اتصال مع الشرطة بأي شكل من الأشكال. لكن هل تتخيل أن الحكومة ستهمل البحث عن «ونستون بك» لتحميه من أعدائه؟ أسأل حضرة «النقيب» عند عودته مع الجنود ومعهم «كا - رع». سيكون هنا قريبًا جدًّا، وسوف يخبرك أن «تادرس» الترجمان، لا علاقة له بمجيء الشرطة إلى هنا.

نظر الشيخ حوله بعصبية.

- هل تقول إنه سيكون هنا قريبًا؟
- في أي لحظة. هناك جريمة حدثت على متن باخرة «ونستون بك»، وعلى العسكر تصحيح الأمور.

لقد سقط «عنتر» في الفخ. لأن حاله هو حال معظم سكان الجبل والقرى النيلية، كان يخاف بشدة من قوة الشرطة، ولم يكن لديه ميل للاشتباك معهم. ركض بسرعة إلى نهاية التلّ المطلّ على النهر، ولوّح بيديه بإشارة إلى رفاقه.

على الفور هبط رجاله من المركب البعيدة، واندفعوا فوق الرمال نحوه. التقى بهم الشيخ واتجه هو ورجاله جميعًا نحو الشمال، واختفوا بسرعة بين صخور الجبال الوعرة.

ظل «تادرس» يضحك من انتصاره السهل، وراقبهم حتى غاب عن الأنظار آخر عربي. ثم نزل إلى «الدهبية»، وكان الوقت آنذاك عند الغروب، قطع قيود الأسرى، مُطمئنًا «ونستون بك» وجماعته، بكلمات كثيرة منمقة، وأنه هزم أعداءهم وأنهم يدينون بحياتهم لذكائه وحنكته. وبسالته. قال لـ «ونستون بك»:

- أنت الآن، حُرّ طليقٌ مثل الهواء. لا تخف من شيء بعد الآن، سأبقى معك.
- أين «كا - رع»؟

لم يكن «تادرس» يعرف شيئاً عن ذلك، لكنه اشتبه في أن «كونسينور» قبل عودته من داخل مخبأ الكنز، قد قتل «المصري». ليس هناك أي تفسير آخر، يُفسّر اختفاءه الغامض. وهو أيضاً لا يرغب في ذكر اسم «الكونسينور»، الذي قد يتسبب مقتله في وضعه هو و«نفتيس» في ورطة؛ لذا، فقد تمسك بطبيعة الكذب المتأصلة فيه، في تلك اللحظة. قال بغرور:

- لقد هرب «كا - رع» في اتجاه، والعرب في اتجاه آخر. أنا متواضع جداً، ولا أحب التحدث عن نفسي، وكيف أنجزت هذا العمل الفذّ المهم! لكن يجب أن تعترف بأنني كنت ذكياً ونجحت بشكل رائع، وقد كنت مخلصاً لمصالحك، فقد أنقذتك من مصير رهيب.

لم يُجب «ونستون»؛ لأنه كان مشغولاً حينها بحضن «أنيت»، بينما نظرت السيدة «إيقرينجهام» إلى الزوجين السعيدين بعيون لامعة وشفافة مبتسمة. لكن «اللورد رون» العجوز، شعر أن منقذهم يستحق المزيد من الاعتراف الملموس بخدماته. قال:

- أنت رجل شجاع يا «تادرس».

وافقه «الترجمان» بجديّة:

- نعم أنا كذلك في الواقع يا سيدي!
- عندما نعود إلى «القاهرة» سأرى كيف أكافئك بالشكل المناسب.

ابتسم «تادرس» بسرور وقال:

- أشكرك يا سيدي، على أي حال، هذا ليس أكثر مما أستحق!
- وتابع سيادته:

- فقط، نحن الآن، متجهون إلى «الأقصر» للاحتفال بزفاف «أنيت» و«ونستون بك».

قال «المصري»، وهو يشعل سيجارةً بهدوء:

- مع «تادرس» الترجمان، كل شيء ممكن!

1. [الغلاف](#)
2. [المصري الأخير قصة على ضفاف النيل](#)
3. [الفصل الأول حيث تُعانق الصحراء النيل](#)
4. [الفصل الثاني حتاتشا](#)
5. [الفصل الثالث التُّرْجُمان](#)
6. [الفصل الرابع كنز «أخت - كا - رع»](#)
7. [الفصل الخامس لُفاقَة البَرديِّ](#)
8. [الفصل السادس «كا - رع» يستحمُّ في النهر](#)
9. [الفصل السابع خطوة نحو الهدف](#)
10. [الفصل الثامن مومياء الجَدَّة](#)
11. [الفصل التاسع أنيت](#)
12. [الفصل العاشر حفل استقبال «اللورد كرومر»](#)
13. [الفصل الحادي عشر الوقوع في الفَخِّ!](#)
14. [الفصل الثاني عشر نفتيس](#)
15. [الفصل الثالث عشر تَمِيمَة «أخت - كا - رع»](#)
16. [الفصل الرابع عشر مقامرة القدماء والمعاصرين](#)
17. [الفصل الخامس عشر غضب «ونستون بك»](#)
18. [الفصل السادس عشر «كا - رع» يُهدِّد](#)
19. [الفصل السابع عشر «أنيت» تستسلم](#)
20. [الفصل الثامن عشر البحث عن مَخْرَج!](#)
21. [الفصل التاسع عشر اختطاف «أنيت»!](#)
22. [الفصل العشرون التأمّر مع الشيخ](#)
23. [الفصل الحادي والعشرون التماسيح. وأكلو اللوتس!](#)
24. [الفصل الثاني والعشرون خُطَّة التُّرْجُمان](#)
25. [الفصل الثالث والعشرون الأُمُّ والإبنة](#)
26. [الفصل الرابع والعشرون مساومة الشيخ «عنتر»](#)
27. [الفصل الخامس والعشرون المزالج البُرُنْزِيَّة](#)
28. [الفصل السادس والعشرون الترجمان ينتصر!](#)